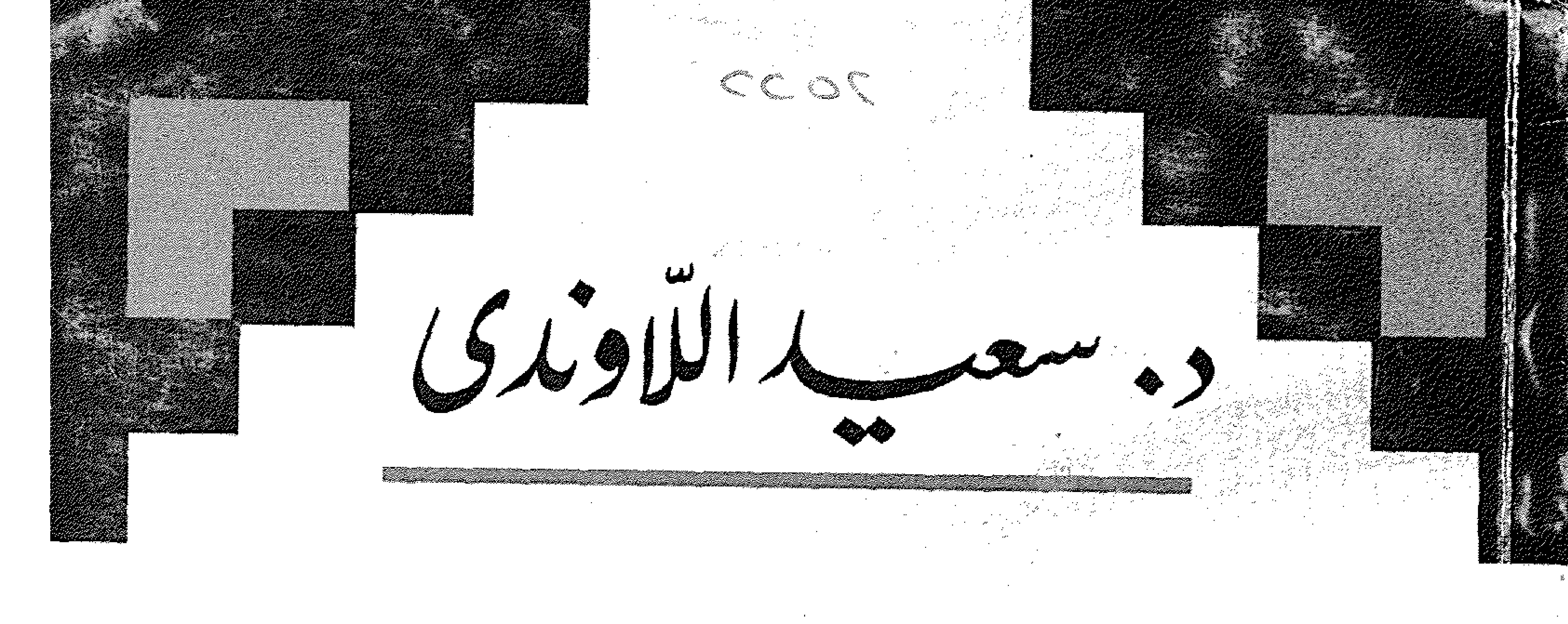


د. سعيد اللاوندى

مثقفون فى مهمة رسمية

جدل الذات والآخر فى الفكر العربى المعاصر



دار ايجى مصر للطباعة والنشر

مثقفون في مهمة رسمية

جدل الذات والآخر في الفكر العربي المعاصر

الكتاب: مثقفون فى مهمة رسمية
جدل الذات ـ الآخر فى الفكر العربى المعاصر
المؤلـف: د. سعيد اللاوندى
الطبعة الأولى: ١٩٩٩ (٢٢٤ صفحة)
الناشر: دار "إيجى مصر" للطباعة والنشر والتوزيع

الغلاف: الفنان/ حامد العويضى
الصـف: مدحت سليمان ـ إبراهيم عبدالحميد
التنفيذ والجرافيك: Egygraph
٢/١ش فلسطين ـ الشطر التاسع ـ المعادى الجديدة
ت: ٥١٦١٠٦١ فاكس: ٥١٦١٣٦١
e-mail :egymisr@infinity.con.eg

إهـــــــداء ٢٠٠٦

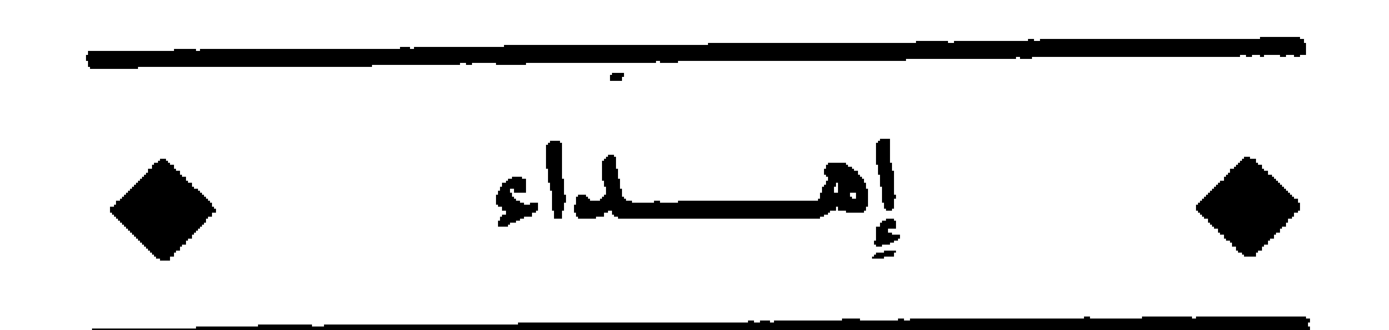
رصيد عام

د. سعيد اللاوندى

مثقفون في مهمة رسمية

جدل الذات والآخر فى الفكر العربي المعاصر




إهـــــداء

إلى من تسكن وجدانى أبداً
أهدى هذا الكتاب
تذكاراً لحب لن تخمد جذوته ماحييت!

مقدمة

بداية لابد أن أعترف أنني لست من دُعاة "الانغلاق"، والتكوم على الذات، أو اجترار الماضي مُفخَماً «حلوه»، مُبرراً «مره»، كارها «للوارد»، أياً كان لونه أو شكله، رافضاً «للآخر» قريباً كان أو بعيداً.. ولكنني - أؤمن بأن العقل السليم كالمعدة السليمة، قادر على التفكير في كل شيء دون محاذير، مثلما المعدة السليمة قادرة على هضم كل طعام مهما كان مذاقه..

.. أيضاً فإن "الآخر" وإن اختلف معي فهو شريك لي في الحياة، ومن حقه، (مثلما من حقي)، أن تكون له قناعاته وخبراته الخاصة.. وإن لم يمنع ذلك من اقتراب بعضنا للبعض، ولا من تمازجنا في بعض الأمور، أو اتحادنا في بعضها الآخر. والمعيار في كل هذه الأحوال هو نهضة الإنسان ورقيه.

وأشهد أنني منذ زمن، كنت قدرت لنفسي ألاّ تعرف كلمة Impensable (أي اللا مُفكر فيه)؛ فربحت كثيراً، ولم أخسر شيئاً. فكل أموري (الخاصة والعامة) تمر بالضرورة "بعقلي" الذي يزنها ويمحصها، ويقلبها على كل وجه، حتى إذا رجحت أقرها مبتهجاً، أما إذا خف وزنها.. لفظها ومجها غير نادم.

هكذا.. يعلم الله، كان بيني في هذا الكتاب الذي شغلتني أفكاره ردحاً طويلاً من الزمن.. توافدت إلى رأسي فُرادى مثلما يخرج الناس إلى الدنيا فُرادى، فأعملت فيها الفكر (الذي أقدسه) وشغلت بها العقل (الذي أمجده)، متنقلاً من فكرة إلى أخرى بحرية؛ لا تحدني حدود، ولا تعترض طريقي سدود.. اللهم إلا حدود العقل المطمئن والمنطق السوي.

وفي هذا "الفضاء الفكري الحر"، التقيت بأفكار لعظام أمثال: "منصور فهمي" الذي شاركني حيرتي الثقافية وهموماً حضارية أخرى، وإن جاء قبلي بعشرات السنين.. أيضاً «محمد عزيز الحبابي» المفكر المغربي، الذي «عضضت» معه على الحديد، منطلقاً من فكرته عن الحرية والتحرر، وإن كان أقلقني كثيراً على «الغد» الذي "لن يكون مشرقاً" كما يقول.

ثم وجدتني وجهاً لوجه أمام شكوى المفكر والفيلسوف المسلم "روچيه جارودي" من فرض الوصاية التي يمارسها البعض علي الإسلام والمسلمين، مدللاً على صدق ذلك بواقعة إصرار نفر من المسلمين العرب في الخارج على إطلاق اسم "رجاء" عليه بدلاً من "روچيه" حتى يكتسب صفة العربي أو "العروبة"!! وقد استنكر الرجل ذلك وهاج وماج، وأكد أن هؤلاء يسيئون للإسلام لأن العروبة «قمقم» والإسلام «مارد» فكيف ينكمش الثاني ليدخل في الأول؟! وتبين لي أن جارودي الذي يرسي لدعائم فقه جديد يدين إطلاق صفة "العربي" على أي مسلم، ويرى في ذلك تقزيماً مشيناً للإسلام.. كيف لا، وهو دين الله للإنسانية جمعاء ..

وعلى غصن آخر من شجرة الفكر العربي العملاقة وجدتني أبحث عنا، أقصد عن الـ "نحن" في لغة "الآخر" من خلال إبداعات كُتّاب ومفكرين عرب في لغة "ڤولتير"، وقادني هذا البحث إلى تحليل بعض سمات ما سمي بالأدب "الفرونكوفوني" عند المصري "ألبير قصيري" والمغربي "الطاهر بن جلون" كنموذجين لهذا النوع من الكتابة .

وكان لابد من طرح قضايا عديدة أخرى لتكتمل صورة "الأنا والآخر" في فكرنا العربي، مثل قضية الجدل الدائر بين الفصحى والعامية منذ أوائل القرن، وحتى الآن .. كذلك دور الترجمة وأساسها في حياتنا الفكرية ونهضتنا المرجوة؛ سيما وأنني كنت قارئاً، ومستمعاً، ومتداخلاً في أغلب الأحيان في مثل هذه القضايا إلى أن وضعت يدي على بعض الصفحات "المجهولة" في تاريخ الفكر العربي، لدى نفر من روادنا الكبار .. فرافقت "محمد عبده" في منفاه إلى بيروت وتعرفت دقائق تجربته مع

الأفغاني في "العروة الوثقى" بباريس، وطفت مع "أمين الخولي" في أزقة وحواري روما بإيطاليا، وشاركت "زكي مبارك" جلساته في حانات حي "مونبرناس" الباريسي .. وعدت برفقة جثمان الوطني الغيور "محمد فريد" إلى أرض الوطن، على أيدي مواطن مصري بسيط هو الحاج "خليل عفيفي" . ثم حطت بي الرحال في إحدى محطات مترو باريس، حيث وقفت أستمع إلى مشادة كلامية جرت، في جوف الليل بين "تيودور روزفلت" الأمريكي، وبين شاعر النيل "حافظ إبراهيم".

وعلى هامش هذه الصفحات جرفني الحنين إلى بئر "الذكريات المصرية" في حياة مفكرين عظام مثل "سلامة موسى" الذي استوقفتني مواقف عاني فيها كثيراً من النكران والجحود .. وهزني وفاء وصدق "فرح أنطون" صحافياً ومفكراً .. وأدهشتني واقعة إنكار كتابات تجديدية عديدة للشيخ "رشيد رضا" ولدوره الإصلاحي .

وبينما نجح "صلاح عبد الصبور" في أن يأخذ بيدي إلى أعلى، حيث حياة المثقف كما يراها هو وجدانياً وفكرياً قبل نحو نصف قرن، وهي حياة لا تخلو من زهد ولوعة على كل حال.. ملأ (فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة) "زكي نجيب محمود" قلبي إعجاباً ممزوجاً بالشفقة على عينيه اللتين مرضتا في أواخر أيامه، فكان في حكم الأعمى، ومع ذلك كتب بهما أبلغ قصيدة نثرية، يمكن أن يكتبها إنسان عن نفسه، وهو يقاوم هبوب رياح خريف العمر! وفيما كنت منتشياً بهذه الكشوف الفكرية وجدتني أقع من عل لأرتطم بالأرض. وعندما أفقت من غيبوبتي، عدت إليها مرة أخرى بتأثير "كأس اليأس" الذي أسقانيه المفكر الكبير "سمير أمين"، حين أنكر صلته بنا وصلتنا به؟!

وكان طبيعياً في نهاية المطاف أن أسأل عاصمة الفرنجة "باريس" عما تحمله من ذكريات لروادنا.. فباحت لي بأسرار ولادة «زينب» هيكل في فجر أحد الأيام، كما عرفتني على المقاهي التي كان يجلس عليها الكاتب الراحل "لطفي الخولي" لأكتشف أيامه ولياليه.. والمفكرين والسياسيين الفرنسيين الذين كان يلتقي بهم.

كما كشفت لي "باريس" صفحة مهمة من ذكريات المفكر الكبير "أنور عبد الملك"

الذى كان يفتح لنا "قلبه" مثلما "بيته"، بحنو الأب وود الصديق .. وحدثتنى مدينة الجمال والنور حديثاً مستفيضاً عن مغتربين مصريين عاشوا أوائل القرن فى مدينة "ليون"، وكان لهم دور مهم فى الدفاع عن قضية الأمة أو ماسمى "بالمسألة المصرية"، من خلال تنظيم المؤتمرات والكتابة فى الصحف، وقادوا حركة الاستقلال ضد الاحتلال الإنجليزى؛ حتى اشتهرت "ليون" بأنها مدرسة "المشاغبين المصريين".. وفى ظلال هذه "الذكريات الباريسية" التى استغرقتنى طويلا. تركت نفسى على سجيتها لأمعن النظر والتأمل ـ بعمق ـ فى فيلسوفنا "الفحل" عبد الرحمن بدوى الذى كتب عن "محمد" نبى الإسلام بالحماسة نفسها التى كتب بها عن نيتشه والإلحاد فى الغرب..

وكان لابد أن أتوقف أمام إشكالية "الذات / الآخر" بين الاندماج والانفصال.. من خلال مناقشة هادئة لصورة الإسلام فى أوروبا اليوم، (فرنسا نموذجاً) بدءاً من فض الاشتباك الاصطلاحى بين "إسلام فرنسا" و "الإسلام فى فرنسا".. انتهاء برؤية للتفاعل دون فقدان الخصوصية.. وأكرر مرة أخيرة أن "دفء" تراثى العربى والإسلامى لم يفارق قلبى وعقلى طوال كتابتى لهذه الفصول. وهو ما يتبدى ـ بوضوح فى الخاتمة التى عزفت فيها عزفا منفردا على "ربابة" صناع الثقافة العرب الذين يدخنون النارجيلة فى الحى اللاتينى، شارحًا جملة من الهموم الثقافية العربية من منظور إغترابى انتقادى.. أيا كان الأمر ما أود ـ بصدق ـ التأكيد عليه هو أن "الآخر" ليس بالضرورة هو ذلك "الجحيم " الذى يشوى جلودنا، ويعرى عظامنا ويكشف مستورنا كما يتصور البعض لأسباب كثيرة .. وقناعتى التى لا أحيد عنها أن الواجب يفرض علينا أن نعرف كيف نواجه هذا «الآخر» بثقة وأن نعى بموضوعية ما يمثله "بعضنا للبعض" ضمن منظومة الحضارة الإنسانية.. تلك التى لا تعترف بالضعيف أو المتخاذل أو الهيَّاب .

د. سعيد اللاوندى

لاديفانس ـ باريس

(ديسمبر ١٩٩٧)

الفصل الأول

إشكالية الفكر العربى

- بين " روچيه" و" رجاء".. جارودى
- مالك بن نبى.. والقابلية للإستعمار

صدمتني إجابة لأحد الكتّاب الفرنسيين عندما سأله أحدهم عن سبب تأليفه لكتاب حول النبي محمد (ص) فقال: «لقد كتبت منذ أكثر من عام مؤلفاً عن الإسلام وعندما اكتشفت دار النشر التي طبعته أنه حقق مبيعات كبيرة، وقعت معي عقداً لإصدار كتاب آخر فاخترت أن اكتبه عن الرسول محمد..».

وهذه الإجابة نفسها قد سمعتها من باحث آخر، يدعى "رينيه خوام" صدرت له قبل فترة ترجمة كاملة باللغة الفرنسية للقرآن الكريم.. عندما سألته عن سبب ترجمته والمدة التي أمضاها في الترجمة، فقال: «لقد دفعت لي إحدى دور النشر مبلغاً مغرياً، وتعاقدت معي على عمل هذه الترجمة، فانتهيت منها في أقل من عام!».

والآن أتساءل: إذا كانت إجابات أمثال هؤلاء الكتّاب والباحثين لا تخلو من براجماتية شديدة ولا تستهدف غير المنفعة المادية.. فلماذا عندما نتناول مؤلفاتهم بالإشارة أو التعليق نسبغ عليهم من ذواتنا، ونكاد نجعلهم مسلمين أكثر عن المسلمين أنفسهم؟ وننسى إنهم يكتبون في حقل الإسلاميات على سبيل التجريب، فإذا «ضرب الكتاب» وحقق مبيعات كبيرة وعاد بأرباح ضخمة .. فليس هناك ما يمنع من تأليف كتاب ثان وثالث. والمؤسف أننا نغض الطرف عن هذه الحقيقة، ونتعامل مع «الكتاب» وكأنه فتح مبين، ومع الكاتب وكأنه "مسلم جديد" مسته هداية الإسلام، فاهتدى!

غريب أمرنا هذا.. قد نرى الحقائق ونلمسها، ويعترف الآخرون بها ولا يُخفونها، و رغم ذلك لا نرى إلا ما نريد أن نراه، ونتوهم أشياء ونتعامل معها كحقائق!

أذكر عندما التقيت بالفيلسوف الفرنسي "روچيه جارودي" ودار بيننا حديث حول قضايا العرب والإسلام، أبدى الرجل (منزعجاً) اندهاشه من بعض السلوكيات العربية التي لا يجد لها مبرراً حتى الآن. ومنها أنه عندما أشهر إسلامه كتبوا له شهادة بذلك، لكنهم أصروا على إعطائه اسماً عربياً.. ودون أن يتركوا له فرصة للتفكير أو حتى لإقناعهم بوجهة نظره، صدرت الشهادة لمسلم جديد اسمه «رجاء» جارودي!

ويعلق "روچيه جارودي" على ذلك، فيقول: «لماذا يُصرّ هؤلاء على جعلي مسلماً عربياً؟ هل يضيرهم أن أكون مسلماً فرنسياً أو هندياً أو صينياً؟».

ثم يستطرد قائلاً دون أن تفارقه دهشته: «إن بعض إخواننا العرب يرون أنهم أوصياء على الإسلام، وأن هذا الدين هو دينهم وحدهم، وتلك نزعة عصبية آن لها أن تزول. فالإسلام هو دين الإنسانية جمعاء، وكما أن من حق أي إنسان أن يدخله دون أن يستبدل بدلته بالجلباب والعمامة العربية، فكذلك من حقه أن يحتفظ باسمه. إنه دين الجوهر على كل حال».

إن التغيير الذي لحق باسم "روچيه جارودي" دون أن يأخذ أحد رأيه، ينطلق من «الموقف» نفسه الذي يجعلنا ننظر إلى أي كتاب جديد في الإسلاميات - مكتوب بلغة أجنبية - على أنه شهادة جديدة لانتصار الإسلام، ونعتبر صاحب الكتاب مبشراً أو شاهداً جديداً من أهل الغرب، على صدق رسالة الإسلام.. نطلق هذا ببساطة وبسرعة على من يؤلفون كتباً في الإسلام قد تكون مشوهة «وموضوعة» بغرض جني المال.. تلك السرعة في التبني توازيها سرعة عربية أيضا في الرفض دون تبين لحقائق الأمور.. إنها - بلا شك - الأحكام «العاطفية» التي تؤكد أحد مظاهر الفكر العربي وأكثرها إشكالاً حتى الآن. وفي هذا الأمر ما أشبه ليلة «جارودي» ببارحة

«چاك بيرك» شيخ المستشرقين الفرنسيين الذي ناله أذى كبير من بعضنا بسبب ترجمته لمعانى القرآن الكريم..

مواقف عربية متخاذلة:

أقول إن موقفنا نحن العرب والمسلمين من الحرب الشعواء التى شُنت قبل فترة على الفيلسوف الفرنسى المسلم "روچيه جارودى" يذكرنى بموقفنا المتخاذل من المستشرق الفرنسى الراحل «چاك بيرك»، والذى تسبب له فى أزمة عانى منها طويلاً فى أعقاب إصدار ترجمته الشهيرة لمعانى القرآن الكريم..

«فجارودى» فيلسوف له وزن وثقل كبيرين على المستويين الأكاديمى والدولى، كرمز فكرى من رموز القرن العشرين. وقد أحدث دخوله الإسلام دوياً فى كافة الأوساط، وأثير حوله لغط كبير قبل سنوات، لكنه كان وما زال أحد أبرز الأصوات الإسلامية المسموعة فى العالم الغربى ومؤلفاته تحرص على أن تكشف عن وجوه العظمة فى هذا الدين الحنيف بموضوعية معهودة فيه، تجلت فى موقفه من «الأصوليات» وجذورها التاريخية، الدينية والثقافية والاجتماعية. وهى رؤية تكسبه مصداقيته.

أما «چاك بيرك» ـ يرحمه الله ـ فكان أيضاً صديقاً للعرب والإسلام، أمضى من عمره نحو نصف قرن فى بحث ودراسة تاريخ وحضارة العرب، وكان يعشق اللغة العربية التى ينطقها فى عذوبة. ووضع عدداً من المؤلفات الفكرية والفلسفية واللغوية حول الأدب العربى، وانقطع فترة طويلة انشغل فيها بترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية..

إن موقفنا من هذين الرجلين هو الذى جعلنى أضعهما فى خندق واحد، سيما وأننا قد التقطنا الطُعم المدسوس لنناصبهما العداء دون وجه حق. فكلنا يذكر الضجة التى أثيرت فى «القاهرة» حول ترجمة «چاك بيرك» لمعانى القرآن الكريم قبل سنوات إلى حد بلغ أن تطاولت الألسن عليه، واتهمته بالعداء للإسلام.. وهى التهمة التى كان يقشعر منها بدن "چاك بيرك"، وقد آلمته كثيراً وهو فى السادسة والثمانين

من عمره آنذاك، لأنها تتعارض وهدفه ويقينه. وإثر هذه المواقف العربية والإسلامية طالبه البعض بأن يترك الحضارة الإسلامية وقضاياها لأهلها ..!

خبايا الصراع ودوافعه:

الغريب أننا لم نفطن في ذلك الوقت إلى أن عداوتنا لچاك بيرك، إنما جاءت بعد عداوة غربية ضارية له كشفت عنها بعض الدوائر.. فبدونا كمن يأخذ المواقف لحساب الآخرين بغض النظر عن جهد "چاك بيرك" نفسه والتمعن فى موقفه الحقيقى تجاه القضايا العربية والدين الإسلامي. وهو الموقف الذى لا يستطيع من يتحلى بالموضوعية أن يلومه أو يسجل شيئاً سلبياً عليه!

إن المتتبع لحياة «چاك بيرك» يجد أنه لم يحظ بأى تعاطف غربى (سياسى أو أكاديمى) بسبب تأييده الدائم للحق العربى فى صراعه مع اليهود خاصة.. وأنه دخل ـ من أجل ذلك ـ فى صدامات عنيفة مع شخصيات غربية ذات شأن ونفوذ. والنتيجة أنه أصبح معزولاً عن عمد، لا أحد يدرى به أو يعرف عن أعماله شىء.. ولعل ما حدث معه عقب صدور ترجمته لمعانى القرآن الكريم هو خير دليل على ذلك. فقد حددت صحيفة «لوموند» معه موعداً للحوار حول الترجمة ثم فى اللحظة الأخيرة، اتصل به «أحدهم» ليعتذر عن اللقاء!! كذلك فقد تراجعت إحدى قنوات التلفزيون الفرنسى بعد أن قررت إجراء محاورة فكرية معه حول ترجمته لمعانى القرآن الكريم، وقضايا الإسلام بشكل عام.. كذلك فإن آراءه حول الصراع العربى ـ الإسرائيلى، كانت تعامل بتعتيم إعلامى ملحوظ فى كافة الدوائر الغربية..

والحق أن هذا كله لم يؤلم «چاك بيرك»، قدر آلمه من عداوتنا له نحن العرب والمسلمين، والتى جاءت متزامنة مع مواجهته العنيفة مع قادة الرأى فى العالم الغربى.. تلك العدواة التى دستها وسائل الإعلام الغربية فى طعامنا، فالتقطها بعضنا لينفخ فيها من روحه المريضة لتصبح على كل لسان.. وليحصد منها «بيرك» الحنظل، بعد أن كان ـ وبحكم صداقته للعرب، ودفاعه عن قضاياهم ـ يحصد

التقدير، والامتنان، أو على الأقل الطمأنينة وراحة البال.

وهو الشيء نفسه الذى حدث مع "روچيه جارودى"، وإن كان بشكل أكثر بشاعة. فموقف جارودى من اليهود، وإسرائيل، والتاريخ السياسى لهم جميعاً، هو موقف معروف وليس فى حاجة، إلى دليل. وسبق لليهود أن أعلنوا الحرب عليه وتحديداً عقب نشره بياناً فى صحيفة «لوموند» يوم ١٧ مايو عام ١٩٨٢ بعنوان: «بعد مجازر لبنان: معنى العدوان الإسرائيلى»، ووقّع البيان معه الأب «ميشيل لولون»، والقس «إيتيان ماتيو». وقاد الحرب على جارودى ورفيقيه جمعية (ليكرا) وهى الجمعية الدولية لمناهضة العنصرية واللاسامية. حيث اتهمت الثلاثة بأنهم ـ فى البيان ـ يأخذون موقفاً صريحاً ضد إسرائيل والصهيونية، فضلاً عن تهمة أخرى هى الإساءة المعنوية لجنس معين. هو بالطبع الجنس اليهودى!! وقد استمرت المحاكمة نحو تسع ساعات ونصف دافع فيها المتهمون الثلاثة دفاعاً مستميتاً عن وجهات نظرهم، ولاقوا فى سبيل ذلك عنتاً شديداً!

ويتكرر الأمر مجدداً عندما أصدر جارودى كتاب «الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيلية».. تثور ثائرة اليهود من جديد، ويشن رجالهم وأصدقاؤهم وهم كُثر حربهم الضروس عليه. وقد يكون هذا طبيعياً إذا ظلت الحرب بين طرفيها الأصليين، «جارودى» مؤلف الكتاب من ناحية، و«رجالات اليهود وإسرائيل» فى الإعلام أو القضاء الغربى من ناحية أخرى.. لكن ما ليس طبيعياً ـ وهو جوهر حديثى على كل حال ـ هو أن يدس الطُعم لنا نحن العرب والمسلمين لتعبئتنا ضد جارودى.. وإعلان الحرب عليه من ناحيتنا... بحيث يبدو جارودى أمام العالم عدواً لليهود وللعرب وللمسلمين جميعاً.

كيف يحدث ذلك؟

الأمر فى غاية البساطة، وهو مايحدث دائماً فى توجيه الرأى العام، كأن يُسمح بمرور خبر صغير فى وكالات الأنباء الكبرى ـ وهو ماحدث بالفعل على كل حال ـ

مفاده أن "روجيه جارودى" أعلن ارتداده عن الإسلام، وتراجع عن أفكاره فى المرحلة الأخيرة من حياته!! وكما هو مخطط تم ترويج الخبر ـ الأكذوبة، ويسيل حوله حبر كثير، ثم يهرع البعض إلى مخزن الشتائم والسباب والاتهامات، فيكيلوا منه ماتشاء نفوسهم «الكريمة» أن يكيلوا لروچيه جارودى.. وبعد أقل من أسبوع تصبح النغمة الشائعة فى العالمين العربى والإسلامى هى نغمة الكراهية والحقد على «جارودى المُرتد»!

وهكذا نجد أنفنسا قد وقفنا موقف العداء السافر من فيلسوف، هو نفسه يعتز بأنه يعتنق الإسلام ديناً، مثلما وقفنا ذات الموقف المؤلم من «چاك بيرك».

ولقد اعترف «روچيه جارودى» بالمرارة التى سببتها له بعض الأقلام العربية التى لم تتوانَ لحظة فى الهجوم عليه، واتهامه بأبشع الاتهامات.. ففى رد له، ترجمه بدقة شديدة الزميل «أحمد الشيخ»، يقول جارودى: «فى أعقاب صدور كتابى الأخير "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية"، تلقيتُ فى التاسع عشر من شهر مارس ٩٨ دعوى قضائية مع تهديد بالسجن لمدة سنة مع التنفيذ. وكنت قد أظهرت فى كتابى أن لا النصوص التوراتية ولا اضطهاد "هتلر" لليهود يُمكن أن يُبررا سرقة أراضى الفلسطينيين وطردهم وقمعهم بصورة دموية. كذلك لا يُمكن أن يُبررا خطة تفكيك كل الدول العربية كما عرضتها مجلة "كيفونيم". وقد نشرت هذه الخطة فى كتابى، وقمت بإدانتها. وبعد أيام من وصول هذه الدعوى حمل إلىّ بعض الأخوة الفلسطينيين أعداداً من صحف عربية تصدر فى الخليج مُزينة بصور كثيرة لى، واعتقدت فى البداية ـ بسذاجة ـ أن هذه الصحف تتضمن مقالات تدافع عنى فى ظل ما أواجه، لكننى وجدت العكس من ذلك، أنها تحاول نزع المصداقية عنى من خلال ادعاءات كاذبة تماماً».

ثم يشرح «جارودى» فى رده التزامن الغريب بين عملية اتهامه قضائياً فى الغرب، وبين هجوم الصحف العربية عليه، فيقول: «إن بعض القيادات العربية لها

تحفظات على مواقفي التي أساند فيها حق الشعب العراقي، وتلك التي أدين فيها السياسة الأمريكية..».

نموذج الفقيه العصري:

وقد شن «جارودي» في رده هجوماً عنيفاً على علماء الدين الذين يتحدثون باسم الإسلام قائلاً: «إنهم يبحثون اليوم عن الانتقام مني بتقديمي كنموذج للمسلم السيئ في اللحظة نفسها، التي أواجه فيها مرة أخرى إدانات الصهاينة.. ويثير هؤلاء العلماء ادعاءات كاذبة حولي، ويدعون أنني أثير الشكوك "حول أبي حنيفة والشافعي" بينما كل كتبي تشهد على تقديري لهما كفقيهين عبقريين: عرفا كيف يؤسسان انطلاقاً من المبادئ الخالدة للشريعة ـ كما حددها القرآن: "المُلك لله وحده، والأمر لله وحده، رسالة أرسلها الله للعالم عبر كل أنبيائه" ـ نموذج الفقيه الذي يُجيب على حاجات بلده وعصره، وبذلك قدما لنا نموذجاً في التفكير الذي يذكرنا به القرآن دائماً، كي نؤسس، انطلاقاً من الشريعة الثابتة، "فقيه القرن العشرين". والحال، إن الذين ينتقدونني، هم مَنْ يريد النيل من الإسلام بادعائهم فرض الفقيه من القرن العاشر على القرن العشرين.. ويتهمونني برفض السُنة، وهذه كذبة أخرى، وأنا أدينهم في استخدامهم السياسي لها..».

ويسأل جارودي، في رده، هؤلاء العلماء:

«هؤلاء العلماء الذين أدانونني هل أدانوا، الجريمة الدائمة للخطر الأمريكي الذي يقتل كل سنة مائة ألف طفل عراقي؟!

هل أدانوا المنظمة العالمية للتجارة (الجات) وصندوق النقد الدولي، اللذين يذهب نتيجة فرض هيمنتهما على العالم الثالث ما يعادل موتَى هيروشيما، كل يومين!!

. الطبع لم يفعلوا.. ويظل شغلهم الشاغل هو تشويه أقوال جارودي، وردي على ذلك هو كتابي الذي ألخص فيه من خلال تاريخ الإسلام: عظمة وانحلال الإسلام. وأؤكد فيه على إيماني بالإسلام، وكفاحي الدائم ضد القادة السياسيين الذين يسيئون إليه.».

ويضيف: «حتماً سيجد الإسلام حيوية القرن الهجرى الأول وقواه فى التجديد الدائم. كما حدث فى "إحياء علوم الدين" للغزالي، وكما فى "إعادة بناء الفكر الدينى" لمحمد إقبال، وكما لدى أساتذتى المُحترمين الأفغاني ومحمد عبده، ورشيد رضا وحسن البنا، وابن باديس ومالك بن نبى، وأخى الوفى حتى النهاية محمود أبو السعود الذى أحاول كتلميذ متواضع مواصلة عمله بالأندلس. حيث أنشأت فى قرطبة ـ عاصمة الخلافة بالغرب ـ المتحف الوحيد المُخصص فى أسبانيا لتقديم الوجه الحقيقى لإسلام الأندلس ضد المشنعين عليه، والذى يستقبل كل عام مائة ألف شخص، أو بالكفاح فى فرنسا والولايات المتحدة وفى كل البلاد الأوروبية ضد اللوبى الصهيونى وإدانة جرائمه».

ويختم جارودى رده قائلا: «أعتقد بهذه الطريقة أننى أنهض بواجبى كمسلم مؤمن بالقرآن الذى يذكرنا دائما بالعمل فى سبيل الله: الذى لا يتوقف عن خلق وإعادة خلق العالم.. وأن يكون المرء وفياً لموطن أجداده ليس بالحفاظ على الرماد وإنما بنقل الشُعلة..».

بعد كل ذلك يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن جارودى برىء من تهمة الردة، مثلما كان "بيرك بريئاً" من تهمة العداء للإسلام.. والتهمة الصحيحة هنا، التى يجب أن نوجهها بشجاعة إلى أنفسنا هى أننا نحن العرب والمسلمين غير أمناء وسريعون فى التقاط السم مدسوساً فى العسل أو حتى فى الحنظل!!

القابلية للاستعمار:

هل ما سبق من مواقف، تتكرر كل يوم، يصلح لأن ندعوه سمة عربية فى السلوك، أو إشكالية فى الفكر العربي؟ إن المفكر العربى "مالك بن نبى" يذهب أبعد من ذلك حين يرى أن تلك «عقدة»، وأننا مازلنا نعانى من هذه العقدة تجاه الغرب، لا ننظر إلى كل ما ينتجه من فكر أو ثقافة إلا بعيون الرضا والإعجاب، وهو تطرف فى التبنِّى، يوازيه تطرف مقابل يرفض تماماً كل ما يأتى من الغرب أو يكون سمة له.

ناهيك عن أن يكون هذا الفكر أو تلك الثقافة تتعلق بنا نحن أبناء العرب والإسلام!

وقد صاغ "مالك بن نبي" هذه العقدة في عبارة قوية هي "القابلية للاستعمار"، حيث قال: «إننا شعوب لا تزال تحمل في صدورها رغبة في أن تكون مستعمرة "بفتح الراء"، وأن يفرض عليها المُستعمر ما يراه..».

والحق أن "مالك بن نبي" قد أعطانا تفسيرا لكل ما سقناه من شواهد، فمؤلف الكتاب عن «محمد الرسول» الذي أشرنا إليه في بداية الحديث مثلاً، يعترف بأن أرباح كتابه الأول عن الإسلام هي التي جعلته يكتب عن محمد (ﷺ)، وكذلك حال زميله مُترجم معاني القرآن الكريم، سابق الذكر، إلا أننا - رغم ذلك - لا نرى فيهما سوى جهبذين من جهابذة الغرب قد جندا كل طاقاتهما للدعوة الإسلامية، وإثبات عبقرية الإسلام، وتأكيد نبوة رسوله.. وهي مغالطة كبيرة على أي حال.. وكأن دعائم ديننا الحنيف كانت ستنهار إذا لم تصدر مؤلفات هذين ومن شابههما .

هناك نقطة أخرى تتعلق بتهليلنا لكل ما يصدر عن العرب والإسلام من تصريحات أو مؤلفات باللغات الأوروبية لكتّاب أوروبيين.. بينما إذا كتب واحد من أبناء جلدتنا بهذه اللغات نصبنا له المحاكم، وأعددنا له قوائم الاتهام الطويلة.. وما حال الكاتب المغربي "الطاهر بن جلون" ببعيدة عن الأذهان، فهو يجيد التحدث باللغة العربية، وقد أجريت معه حواراً ذات يوم تكلم فيه على مدى ساعتين كاملتين باللغة العربية دون ملل أو كلل. لكنه عندما يكتب يفضل أن يكون ذلك باللغة الفرنسية لأنه يمتلك ناصيتها بامتياز ويفضل الإبداع بها. إلا أن البعض منا لا يرون منه إلا كاتباً فرنسياً، وهم هنا يقصدون الإهانة لا الإعجاب، ويحشرون كل ما يكتبه في زمرة الأدب الفرنسي لا العربي. ويغضون الطرف عن الأجواء العربية التي تفيض بها رواياته وأحاديثه عن همومنا العربية، وقضية القضايا (فلسطين).

العجيب أن هؤلاء «البعض» يكيلون بمكيالين: مكيال الإعجاب والفخر بالأوروبيين الذين يكتبون عن العرب والإسلام حتى لو كان هدف كتابتهم - وباعترافهم - هو

الكسب المادى السريع وليس الدفاع عن الإسلام وإظهار محاسن العروبة! ثم مكيال الرفض والإدانة للعرب الذين يكتبون مباشرة باللغات الأوروبية عن همومنا وطموحاتنا..

إنها بالفعل "القابلية للاستعمار" التى ستظل قابعة داخلنا، حتى يخرج علينا فجر ثقافى جديد، نفتح فيه العيون فنكتشف مواقع أقدامنا فى مكان رءوسنا. وعلينا أخيراً أن نمتلك شجاعة الاعتراف بتلك الحقيقة.. إن أردنا تصحيح المسار.

الفصل الثانى

الأدب العـربى الفرانكفونى
الـ "نحن" فى لغة "الآخر"

- المصرى: ألبير قصيرى
- المغربى: الطاهر بن جلون

"ألبير قصيري" وجه مصري، يذكرنا بقلة من الرواد والمارقين في ثلاثينيات القرن، الذين مثلوا بتجاربهم الفنية والإبداعية تياراً خارجاً على السياق الفكري حتى في أقصى محاولات تجديده، ومن هؤلاء "أنور كامل" و"جورج حنين"، و"كامل التلمساني"، و"راسم عزت" و"ألبير قصيري" وآخرون، شكلت رؤاهم رافداً جديداً من روافد الثقافة المصرية المغايرة في النصف الأول من القرن، أنشأوا معاً جماعة "الفن والحرية" وأصدروا مجلة "التطور".. وظلوا على علاقة حميمة فكرياً بتيارات التجديد في الفكر الأوروبي الحديث، وبشكل خاص "أندريه بريتون" والسريالية الفرنسية. ورغم الشهرة التي يحظى بها الأديب المصري والروائي ألبير قصيري في فرنسا باعتباره أحد أبرز الوجوه في الثقافة الفرنسية الآن، إلا أنه في مصر لا يعرفه غير عدد قليل من النخبة، أو المهتمين بالثقافة الفرنسية على وجه التحديد. أما على صعيد الثقافة العربية فيكاد ألبير قصيري يكون مجهولاً تقريباً. وقد بدا ذلك واضحاً من زاوية جلية حين عرض فيلم له في مصر - قبل عدة سنوات - مأخوذ عن روايته «شحاذون ونبلاء». وهنا تكمن المفارقة العجيبة. إن أمراً كهذا يتكرر مع مثقفين وكتاب ومبدعين مصريين يقيمون في الخارج إرادياً منذ زمن. والآن ترد غربة نصوصهم، (بما تمثله من أهمية في سياق الخطاب المهموم) إلى البعث والتجديد اليوم.

إن «ألبير» مصرى حتى النخاع ويعتز بموطنه مصر، فهو يرى أن المصرية ليست "جنسية" بقدر ما هى فطرة مغروسة فى الذات. كتب «قصيرى» سبع روايات تدور أحداثها غالباً فى حوارى القاهرة وأزقتها. يقول: «أنا مدين لمصر الثلاثينيات بالتحديد لأنها كانت حُبلى بأحداث جسام.. إنها فترة حيّة بالنسبة لى على أى حال». يعيش "ألبير قصيرى" في باريس منذ أكثر من ستين عاماً، فى حجرة بسيطة داخل أحد فنادق الحى اللاتينى. ترافقه أفكاره طوال الوقت. ولا يمتلك دخلاً آخر غير عوائد مبيعات كتبه. فحياته محدودة ومحاطة بأشياء حميمة وخاصة هو لا يحيد عنها أبداً. هناك مفردات يومية تنتظم أفق هذه الحياة: الفندق، المقهى، دور النشر التى يتعامل معها فى إطار تناول ما يقيم معاشه من النقود.

يكره ألبير قصيرى التلفزيون ويرى أنه أسوأ اختراع، قدمه العلم لتسطيح الذهن البشرى.. كذلك لا يحب الشهرة ولا المال ويندهش من الكتاب الذين يتكالبون على جمعه.. ويذكرنا فى هذا الموقف بـ تُساعيات «أفلوطين» التى تنتقد فكرة الملكية، وتعتبرها شراً يجب الاحتماء من خطره.

الكتابة: فن إزعاج الآخرين:

«الكتابة هى قدرى» هكذا يرى "ألبير قصيرى" الكتابة والفن، فهو لم يعرف منذ بداية حياته الأولى ـ صبياً فى مصر ـ غير الكتابة والانخراط فى عالمها الفادح السحر والعذاب.. يضيف: «أنا لا أكتب إلا لإزعاج الناس، لأن الكتابة ـ بهذا المعنى ـ هى رسالتى فى الحياة»، لذلك لا تعنى الثروة أو الشهرة مفردات ذات قيمة فى حياته، خاصة إذا ماحللنا فكرة «الإزعاج» فى الأدب والفن التى تنطوى عليها رؤية "ألبير قصيرى"، باعتبار التمرد مقلقاً و«مزعجاً» وصادماً للآخرين، لأنه بالضرورة ينتج أفكاراً تراجع «الثوابت» وفناً ينشد التحرر والاختلاف. يقول : «إن من يقرأ كتبى ولا يحدث فى رأسه أى تغيير فهو ليس منى ولست منه، لأن أفكارى يجب أن تساهم فى تغيير وجهة نظر القراء تجاه

الحياة والناس والعالم... من هذه الزاوية يهمنى أن أكتب أو أروى ما من شأنه أن يزعج الناس ويقلق راحتهم». ويقصد "ألبير" "بالراحة" هنا سكون الآخرين ووخم العادة.

زيارة القاهرة

القاهرة، يزورها "ألبير قصيرى" ليعيش فترة قصيرة في أماكن الطفولة يقول: «فى القاهرة ألتقى – ولو عن بعد – بالناس الذين عاشرتهم صغيراً». ويضيف: «لست أفشى سراً إذا قلت: إن كل أبطال وشخوص رواياتى هم أناس يحيون بيننا، وأكاد أحتفظ لبعضهم بأسمائهم الحقيقية.. على الكاتب أن يشاهد مالا يشاهده الآخرون، لأنه ينبغى أن يرى بقلبه وبوجدانه قبل عينيه.. إننى لست روائياً بالمعنى الشائع للكلمة، إننى "كاتب" رأسى ملىء بالأفكار، وكتابة الرواية هى المحاولة الأكثر متعة كى أصنع أشخاصاً قادرين على التعبير عن هذه الأفكار».

ويضيف: «إننى أحيا مع أفكارى ليل نهار، وعندما أجلس فى المقهى، يعتقد البعض أننى أجلس وحدى، وقد يشفق الآخرون علىّ ظناً منهم أننى أضيق من الشعور بالوحدة. لكن الصحيح هو أننى سعيد جداً بحياتى، لأنى ببساطة أعيشها كما أريد، لا كما يريدها الآخرون، ولذلك يعتبرنى الكثيرون غريباً أو غير طبيعى، مع أننى طبيعى جداً، وصادق إلى أبعد حدود الصدق مع نفسى ومع الناس من حولى. وإذا سألتنى: لماذا اخترت حياتى هكذا؟ فإجابتى هى: لأننى أعشق الكتابة وأحترم ذاتى ككاتب. وأؤمن أن جوهر عملى يستوجب رصد ما لا يراه الإنسان العادى، ولذلك كان طبيعياً ألا تشبه حياتى فى تفاصيلها الدقيقة، حيوات الآخرين».

يبقى أن نذكر أن "ألبير قصيرى" مازال يحمل جواز سفره المصرى ويعتز أيما اعتزاز بأصله العربى، ويستشعر بعض الندم لأنه يعجز عن الكتابة باللغة العربية. إلا أنه يرى أن إتقانه اللغة الفرنسية التى تعلمها صغيرا، وقرأ بها الكتب الكلاسيكية الشهيرة كانت نافذته على العالم..

ويؤكد أنه لا يشعر بعقدة الاغتراب في باريس، لأنه يعيش فيها منذ سنوات طويلة، كما كانت تربطه علاقات فكرية ووجدانية مع عدد من كبار مفكريها مثل "ألبير كامو" الذي كان أول من شجعه على نشر رواياته في فرنسا.

كلمة أخيرة بخصوص "ألبير قصيري" هي أنه يتميز بأسلوب ساخر منتقد للأوضاع غير المقبولة إنسانياً واجتماعياً، ولذلك عندما سئل عن أحب الكُتّاب إلى قلبه؟ أجاب: إنه "توفيق الحكيم". ربما لأنه يتفق معه من زاوية نظرته للحياة والعالم. وعندما سأله البعض عن كتابات "نجيب محفوظ" فأجاب: هي بلاشك جيدة، لكنني لا أحبها. ولا يستطيع أحد منا الاحتجاج على "ألبير قصيري"، لأن الناس فيما يعشقون مذاهب..!

أدب عربي أم غربي؟

الفرانكفونيون العرب، أو الكتّاب والمبدعون العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية لايزال إنتاجهم يثير جدلاً كبيراً في أوساط المثقفين والدوائر الأكاديمية العربية على السواء.

حين التقيت بالقاص المغربي "أحمد المديني" الذي يكتب بلغة عربية جيدة، ويتغنى باللغة العربية عندما يتحدث، وكأنه يترنم بأحلى وأرق الأغاني.. سألته عن رأيه في الأدب الفرانكفوني.. وعما إذا كان يعتبره إضافة للأدب العربي أم للأدب الفرنسي، فأجاب: الأدب هو ابن لغته، وبالتالي فكل ما أبدعه الكُتّاب العرب الفرانكفونيون من أدب أو فكر، هو إضافة للأدب الفرنسي وليس للأدب العربي.

رأي "المديني" السابق يتحمس له، ويدافع عنه عدد من كبار مثقفينا وكتابنا العرب، منهم الشاعر "أحمد عبد المعطي حجازي" الذي أذكر أنه قال لي في إحدى جلساتنا الثقافية: «إنني عندما أكتب مقالي الأسبوعي في جريدة "الأهرام" لا أحاول أن أعطي من خلاله فكراً جديداً فحسب، ولكن أيضاً أحرص على أن أجعل قارئي يستمتع باللغة العربية التي أكتب بها.. أي إنني أعطيه متعتين: متعة فكرية، وأخرى

لغوية».

وانطلاقاً من ذلك، فالأدب الفرانكفونى الذى يكتبه العرب باللغة الفرنسية معزول وأقرب إلى الأدب الفرنسى منه إلى الأدب العربى، لأن قارئه يفقد معه متعة التواصل نتيجة تلك الغربة.

على الطرف الآخر يرى عدد من المثقفين العرب أن المعيار يجب ألا يكون اللغة وحدها، وإنما الموضوع المعالج.. ويبررون بأن أهمية ذلك ترجع إلى أن معظم الفرانكفونيين من الكتّاب العرب لم ينسلخوا تماماً عن بيئاتهم العربية التى نشأوا فيها أو أمضوا فى ربوعها فترة صباهم المبكر.. ولذلك نجد ملامح هذه البيئات بمختلف ظروفها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، تطل برأسها فى أغلب هذه الكتابات.

اللغة ليست المعيار:

ومن ثم فليس هناك ما يمنع من اعتبار النتاج الأدبى الفرانكفونى بمختلف أجناسه الإبداعية والفكرية (ليس فقط إضافة حقيقية للأدب العربى، ولكن أيضا أدباً عربياً مقروءاً بلغة فرنسية)، قد خطا خطوة كبيرة فى طريق الذيوع والانتشار العالمى.

هذا المنظور الأخير للأدب الفرانكفونى هو محور رؤية الدكتور "أسامة نبيل"، فى أطروحته لنيل الدكتوراه حول "الأدب العربى الناطق بالفرنسية" تطبيقاً على أعمال الكاتب المغربى المعروف "الطاهر بن جلون".

ويرى الباحث معياراً أساسياً يدور حول زاويتين:

الأولى: إلى أى حد تأثر "الطاهر بن جلون" بالبيئة المغربية التى نشأ فيها؟

الثانية: نوعية القضايا التى عالجها فى رواياته.

والمعروف أن بن جلون درس فى المغرب، حتى أنهى المرحلة الجامعية، وبعد حصوله على الليسانس فى الفلسفة، عمل فى طنجة والدار البيضاء مدرساً للفلسفة.

ثم سافر إلى فرنسا لمواصلة دراساته العليا وعمل هناك بجريدة «لوموند».. أى أنه أمضى فى بلده (المغرب) ما يقرب من ربع قرن من الزمان. وكان طبيعياً ـ طوال هذه السنين ـ أن يتشبع بكل ما ورثته البيئة المغربية من تراث وأفكار دينية أو دنيوية. فقضية الدين مثلاً تحتل مساحة كبيرة فى رواياته الثلاث: "صلاة الغائب"، و"ليلة القدر"، و"هاروداً".. وفيها يهاجم أدعياء الدين، ومفسرى القرآن الكريم الذين يفسرون الآيات لإشباع رغباتهم وأهوائهم. ويعرض "ابن جلون" قضية خلط الدين الصحيح بالأساطير والمعتقدات الشخصية. كما ينكر استغلال الدين كستار لأغراض سياسية لا علاقة لها بالدين الصحيح، وإنما فقط لإرضاء أهواء الحكام على حساب المحكومين المغلوبين دائماً على أمرهم.

وفى كل هذه المعالجات يحرص "الطاهر بن جلون" على الاستشهاد بالآيات القرآنية لتأكيد صحة ما يقول، إنه يضع تكييفاً خاصاً وجوهرياً لعلاقة الدين الحقيقية بالعلم والحياة المعيشية. وعلى الطرف الآخر لا تخلو رواياته من انتقادات عميقة لبنية المجتمع المغربى العربى على الصعيدين الاقتصادى والسياسى. كما أنه يقف دائماً إلى جانب الشعوب المطحونة مناصراً لقضايا التحرر، ففى روايته "الكاتب العام" ينادى برفع الظلم عن الشعب ومحاربة الجهل والفقر المتفشى بين الناس ويعالج قضية المرأة مبرزاً التناقض الذى تعيش فيه، فيعرض لنا فى روايته "ليلة القدر" نموذجاً لشخصية المرأة التى تقدس زوجها وترعى أطفالها ونموذجاً آخر لامرأة متحررة فى الخفاء، ونموذجاً ثالثاً لامرأة حائرة بين الالتزام والتحرر.

وهو بذلك يرسم لنا صورة واقعية لحياة المرأة العربية الملتبسة بين الالتزام بالدين والمعتقدات الشعبية، والأفكار الغربية.

يؤكد الدكتور "أسامة نبيل" أننا لو بحثنا فى حياة "الطاهر بن جلون" ككاتب عربى مغترب، لوجدناه يدرك أبعاد الغربة والهجرة وما أفرزته من مشاكل على الصعيدين النفسى والاجتماعى للمهاجرين العرب. ففى «الكاتب العام» و«حسن الضيافة

الفرنسية»، و«الخضوع».. وأخيراً: "العنصرية".. يا أبنتي" تكلم عن مفهوم العنصرية بين الشعوب، ويسلط الضوء بقوة على العنصرية التى يعانى منها المهاجرون العرب فى فرنسا، مشيراً إلى أن معظمهم لا يعملون إلا فى الأعمال الحقيرة، ويعيشون على هامش حياة المواطن الفرنسى القح، وكأننا مازلنا نعيش فى عصور الأسياد والعبيد.

لم ينس "الطاهر بن جلون" فى يوم من الأيام قضايا وطنه العربى. ففى روايته «الكاتب العام» على سبيل المثال، لم يتردد فى مهاجمة الغرب وفرنسا على وجه الخصوص بسبب صمتها عن الاجتياح الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢.. مطالباً إياها أن تتخذ موقفاً أكثر إيجابية من أجل شعب كان يوماً من الأيام ناطقاً بالفرنسية، ومن أجل أن تكون صادقة مع مبادئها التى تدعو إلى: الحرية والإخاء والمساواة. ويسجل "أسامة نبيل" دهشته قائلاً:

«بعد كل هذا كيف نصنِّف كتابات "الطاهر بن جلون" فى قائمة الكتابات الفرنسية أو الأدب الفرنسى فقط لأنها كُتبت باللغة الفرنسية، وننسى أنها - وإن كانت مكتوبة بلغة غير اللغة العربية - تعالج فى الجوهر قضايا عربية محضة!

.. ألم يكن من الأجدر بنا أن نعتبرها أدباً عربياً أُتيح له أن يترجم إلى اللغة الفرنسية فى ترجمات صحيحة وسليمة، كما هو الحال مع ترجمات روايات "نجيب محفوظ" أو "الغيطانى"، أو "عزيز الحبابى" أو "إدوار الخراط".. سيما وأن "الطاهر بن جلون" نفسه يجيد اللغة العربية، والدليل على ذلك أنه قام بترجمة رواية «الخبز الحافى» للكاتب المغربى "محمد شكرى" إلى اللغة الفرنسية.

على أية حال، وعلى الرغم من قوة الحجج التى ساقها الباحث "أسامة نبيل" المختص فى أدب "الطاهر بن جلون"، فإن قضية الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية لاتزال فى حاجة إلى أخذ ورد، ونقاش.

"بن جلون".. مرة أخرى:

فى ديسمبر عام ١٩٩٢ نشر الكاتب المغربى "الطاهر بن جلون" مقالة فى جريدة

«لوموند» تحدث فيها عن "القاهرة" بوصفها الشخص الرئيسى أو البطل فى روايتى: «ذات» لصنع الله إبراهيم، و"رسالة البصائر فى المصائر" لجمال الغيطانى.. وقد أزعجت هذه المقالة ـ للوهلة الأولى ـ عدداً من المثقفين المصريين والعرب فى باريس، خاصة وأن "ابن جلون" بدأها بوصف القاهرة يقول: «يبدو أن مؤسس القاهرة كان فى الأصل حلوانياً. إنها مدينة جميلة، هشّة، ترزح تحت وطأة نحو عشرة ملايين ساكن، إنها كقطعة الحلوى المليئة بكثير من الرمال، وقليل من السكر، وكالجاتوه الملئ بالثقوب، والحلوى المغطاة بالذباب، والصلصة المصنوعة من اللبن الفاسد والماء الملوث.. القاهرة ليست "رواية"، إنها دفتر تليفونات تنقصه بعض الصفحات، إنها قصة دائرية تسير فى كل الاتجاهات. حيث تخرج الفئران، والقطط المتوحشة، والعصافير الصغيرة، والأطفال والموظفون، والآلات، كما يخرج منها خصوصاً ـ شخصان يكونان ثنائياً خارج المعتاد، أو على العكس يمثلان كل ما هو رث فى مصر... "وهذان الشخصان هما "عبد المجيد" وزوجته "ذات"».

كان طبيعياً أن يصدم هذا التقديم عشاق القاهرة، لكن حين نواصل قراءة المقالة، نكتشف أن "الطاهر بن جلون" لم يكتب عن القاهرة سوى ما استوحاه من روح الروايتين، وهما مترجمتان إلى اللغة الفرنسية، وخصوصاً رواية "صنع الله إبراهيم"، عبر شخصيتين رئيسيتين هما: "عبد المجيد" وزوجته "ذات" وبالتالى يسقط الاتهام الذى رفعه البعض ـ وقد كنت منهم ـ فى وجه "ابن جلون"، خصوصاً فيما يتعلق بموقفه من مصر.. لكن يبقى بطبيعة الحال، حقنا فى نقد أسلوبه أو المنهج الذى اختار أن يعرض به أفكار الروايتين. وهذا الأمر ـ على كل حال ـ هو موضع خلاف.. فالبعض يرى أنه أخطأ عندما تصور أن البطل فى الروايتين المذكورتين هو مدينة القاهرة نفسها.. بينما وافقه البعض الآخر على ذلك، انطلاقاً من المنظور النقدى الذى يركز على عبقرية المكان ويجعل أبطال الرواية ـ أية رواية ـ جزءاً أساسياً منه.

هذا التفسير قد يرضى الدكتور "أنور عبد الملك" الذى لم يخف انزعاجه من المقال، وقال فى نقاش طويل حول الموضوع ما خلاصته أن مصر ليست بهذه الصورة السيئة التى عبر عنها "صنع الله إبراهيم"، واستوحى منه "الطاهر بن جلون" ما استوحى .. إن رواية «ذات» هى رواية سوداوية لا ترى فى مصر سوى الخراب والضياع، ولذلك فمن الخطأ القياس عليها أو اعتبارها مؤشراً صحيحاً لمصر وما يحدث فيها. وكما أنه لا يخفى عن الباحث خطأ الاعتماد على تحليل رسائل القراء فى الصحف والتى تحمل بالضرورة أوجاع الناس ومخاوفهم، ليحكم به على حياة وأفعال أى شعب من الشعوب.. فكذلك أخطأ "ابن جلون" لاستناده فى مقاله إلى «ذات» صنع الله إبراهيم التى تغض الطرف عن مصر: السد العالى، وجمال حمدان، والجامعة المصرية، ونجيب محفوظ، وطه حسين، وعبد الرحمن بدوى، وشادى عبد السلام.. وآخرين، لتبرز فقط العيوب والتناقضات ..

كفانا تجريحاً فى مصر «والكلام لأنور عبد الملك» فهذه الرتوش التى نقرؤها بين حين وآخر فى الإعلام الغربى عن مصر «الأزمات، والإرهاب، وعدم الاستقرار» هى رتوش موضوعة بعناية، وأكاد أقول مخطط لها سلفاً بهدف الإضرار بمصر أولاً وأخيراً.

وقد يكون الحق مع "أنور عبد الملك" فى أن «ذات» صنع الله إبراهيم لا تصلح كمقياس أنطولوچى لما يحدث فى مصر كما يصوره الإعلام الغربى فى الفترة الأخيرة، وأنها، من هذه الناحية كتابات غير موضوعية، ولا ترى من قطعة الجاتوه (مصر) سوى الثقوب!

لكن للإنصاف، يجب أن نذكر أن كتابات "الطاهر بن جلون" عن مصر ليست من هذه الكتابات المريضة فى قليل أو كثير.. فالرجل يحب مصر كأهلها، ويرى أنها تحتل مكان القلب فى الجسد الثقافى العربى كله، ويعترف بفضلها عليه ككاتب، ويرى أن الزيارة إليها وقراءة أدبها هو جواز سفر أى كاتب عربى: ليس فقط نحو

الانطلاق فى دنيا الفكر والأدب، ولكن أيضاً نحو الاعتراف به كمبدع أولاً.

الرحلة إلى مصر:

التقيت بالطاهر بن جلون أكثر من مرة، وتحدثنا فى أمور عديدة، عندما سألته عن علاقته بمصر وأدبائها. قال: «على الرغم من أننى لم أقرأ كثيراً فى الأدب المصرى، إلا أننى أزعم أنى فهمته جيداً مثل سائر شباب الأدباء والكتاب المغاربة. فقد قرأت فى طفولتى لطه حسين ثم شغفت فى صدر شبابى بروايات نجيب محفوظ، ومسرحيات توفيق الحكيم، وقصص يوسف إدريس.. ربما لا تعلم أن الأدباء المغاربة كانوا ـ ولا يزالون ـ ينظرون إلى الأدب المصرى كمرجع أساسى للأدب العربى، ففى العُرف الدارج بيننا فى الأوساط الأدبية المغربية نسمى الاطلاع على الأدب المصرى «الرحلة إلى مصر». فالأديب المغربى إما أن يذهب إلى مصر للدراسة أو أن يقوم بجولة ثقافية فيها. وفى الحالتين تمثل مصر بالنسبة لنا ينبوعاً لا ينضب من الفكر والأدب والثقافة.».

ويتذكر "بن جلون": «دعنى أذكر لك الفرحة العارمة التى ملأت قلوب جميع المغاربة عندما سمعنا نبأ فوز "نجيب محفوظ" بجائزة نوبل، كانت الفرحة لا تعنى سوى أن الفائز بالجائزة هو رجل من أهلنا. وكذلك عندما مات الأديب الكبير "يوسف إدريس" شعر كل بيت فى المغرب بأنه صاحب المأتم، وأن الفقيد هو ابن من أبنائه». واستطرد: «إن النقاد عندما يتحدثون عن أفكارى يضعوننى فى سلة واحدة مع الأدباء المصريين.. أذكر أن رسماً كاريكاتورياً نشرته إحدى الصحف إبان أزمة الخليج، جعل القلم الذى يشير إلى الفكر وأهل الكتابة فى شكل طائرة، يقودها "نجيب محفوظ"، ويساعده "يوسف إدريس" أما أنا فكنت واقفاً أحمل إشارة "ستوب". وعندما سأل عنى "يوسف إدريس"، أجابه "نجيب محفوظ": لا تقلق، إنه من أولاد حارتنا».

إذن "الطاهر بن جلون" الذى يعتز بأنه واحد من أولاد الحارة الكبيرة (مصر ـ

الحرية) لا يمكن - حسب قناعتى ومعرفتى به - أن يلوث قلمه بالكتابة مسيئاً لمصر.
ومن ثم، وفيما يتعلق بما كتبه حول القاهرة عن رواية "ذات" فى صحيفة «لوموند» يجب التفريق بين أن يكتب الكاتب من عندياته مسجلاً بنات أفكاره، وبين أن يكتب مُستلهماً أجواء الرواية، لأن لسان حاله - فى الحالة الأولى - يقول: هكذا أرى وأفكر. بينما فى الحالة الثانية، يقول: هكذا يفكر الآخرون.

وقد تكون «سوداوية» صنع الله إبرهيم فى "ذات" أو «تراچيدية» جمال الغيطانى فى "رسالة البصائر فى المصائر" مغالًى فيها بعض الشىء حسبما يرى "أنور عبد الملك"، وليس الناقل كالصانع على كل حال!

الفصل الثالث

اللغة وإشكاليات التفاعل

- الترجمة.. رؤى وجهود
سامى الدروبى
- بين العامية والفصحى

طه حسين ـ لويس عوض ـ إسماعيل أمين

الترجمة.. رؤى وجهود

-١-

المثقفون العرب مدينون لـ "سامي الدروبي" وزميله د. "عبدالله عبدالدايم" في معرفة فلسفة الفرنسي "هنري برجسون"، عندما ترجما له ثلاثة كتب. أولها كتابه الشهير «منبعا الدين والأخلاق» في عام ١٩٤٥، وثانيها كتاب الضحك «بحث في دلالة الضحك» في عام ١٩٤٨، والثالث بعنوان «الطاقة الروحية». لكن يبدو أن هذا الكتاب الثالث قد قام بترجمته سامي الدروبي بمفرده، مثلما فعل مع الأعمال الكاملة لدستويفسكي، حيث كانت تعاقدت معه وزارة الثقافة في مصر على ترجمتها جميعاً.

وعندما أنجزها، كانت بمثابة «القنبلة» التي هزت الأوساط الثقافية في مصر والعالم العربي، وأثنى عليها كبار الكُتّاب ومنهم الراحل "أحمد بهاء الدين" الذي وصفها بأنها ترجمة «أبدية ونهائية».

وتروي زوجته السيدة "إحسان بياتي الدروبي" أنه حينما أكمل ترجمة دستويفسكي، قال: «الحمد لله، كنت أخشى أن تأتي المنية قبل أن أنتهي. أما وقد انتهيت فوالله لابد أن أبدأ بتولستوي».

وتقول: عندما صحتُ: أنت في حاجة إلى الراحة يا سامي. أجاب: إن العمل يردُ إليّ إنسانيتي.

وترجم "سامي الدروبي" بالفعل ثلث أعمال "تولستوي"، وكان قد توقف في المجلد الخامس - وهو يقع في نحو ألف صفحة - عند صفحة ٩٦٥ فأكملت ابنته الصفحات الخمسة والثلاثين الباقية، ونشرته وزارة الثقافة السورية.

إن ما يجعل "سامي الدروبي" جديراً بالاهتمام، فهو أنه رفع لواء الترجمة إلى أعلى عليين، حيث كان يمتلك ناصية اللغتين الفرنسية والعربية، بحيث كان النص المترجم لا يقل رصانة وغنى عن النص الأصلي.. ويشهد بذلك زميله "عبد الله عبد الدايم"، الذي يقول في مقدمة الترجمة العربية لكتاب الضحك لبرجسون: «.. إن الفضل الأكبر في الارتقاء إلى أسلوب برجسون، ونحن نترجمه يرجع إلى الصديق الغالي المرحوم سامي الدروبي، لقد كان فطرة وتكوينا، برجسونياً بالطبع، مدققاً في الأداء والتعبير، قادراً على أن يصوغ العبارة صياغة سهلة ممتعة، ولكنه يبدع صيغاً جديدة وهو يترجم. حتى لقد كان دوري معه في معظم الأحيان دور من يذكّره بالأصل ويرده إلى منطوق النص لا إلى مفهومه وحده».

بين الأدب والفلسفة:

ويستطرد د. "عبد الله عبد الدايم" قائلاً: «وإن نفخر، فإنما نفخر بشيء واحد وهو أننا استطعنا ـ فيما نزعم ـ أن نثبت أن اللغة العربية قادرة على نقل أدق الأفكار وأرهف الأساليب، وأنها ـ حين يمتلكها قلم صنّاع، ترقى في أدائها إلى أفضل ما ترقى إليه لغة أجنبية حديثة. وهذا ما أدركه فقيد الأدب العربي "طه حسين" حين عرضنا عليه ترجمتنا ليقر طبعها في «دار الكاتب المصري» وكان إذ ذاك مشرفاً ثقافياً على مطبوعاتها، فإذا به يعجب بها أيما إعجاب. بل إذا به يطلب إلينا بلهجة حاسمة آمرة، ألا نطبع أي كتاب آخر من ترجماتنا أو تأليفنا إلا في تلك الدار. وقد ذكر آنذاك - فيما ذكر - أن مثل هذه الترجمة تشهد على أن من الممكن والواجب أن "نؤدب الفلسفة، وأن نفلسف الأدب". والحق أن "طه حسين" قد وضع يده على مفاتيح نبوغ "سامي الدروبي" في الترجمة.. تلك المهمة التي يبدو أن الرجل قد

وهب لها نفسه، في سن مبكرة.

تروى زوجته أن "الدروبى" كان اكتشف دستويفسكى مذ كان عمره ١٦ عاماً، وبعد حصوله على شهادة الثانوية عين مدرساً فى الريف السورى فى بيئة معزولة، لذلك أخذ معه كزاد مؤلفات الروائي الروسى الكبير، وبدأ يترجمها منذ ذلك الحين.

وعن أسلوبه فى الترجمة تتحدث السيدة "إحسان الدروبى" فى لقاء معها، فتقول: «كان يأخذ النص الفرنسى ويملى علىّ إملاء، وقلَّما تجد فى المسودة الأولى تصويباً ذا أهمية إذ كان يكره أن تذهب الورقة إلى المطبعة وبها تشطيب. وأذكر قبل رحيله الأبدى ببضع ساعات، أنه طلب إلىّ أن أنقله إلى المكتبة، وكنا قد حولنا غرفة النوم إلى مكتبة بسبب سوء حالته الصحية. فمسكت بيديه وأنا أساعده على استنشاق الأوكسجين من الأسطوانة. نظرت إليه، كان فاقداً لحيويته، فأحسست بغصة وألم. وتجرأت وقلت له: أجِّل الشغل حتى ترتاح. فقال لى: هناك كلمة أقلقتنى طول الليل وأريد تصحيحها. ولم أكن أدرى أن شبح الموت يحوم حولنا. وبعد أن صحح الكلمة التى يريدها، نظر نحوى بإشفاق، وقال: هل يزعجك أن أمكث على المكتب بعض الوقت؟

قلت: أخشى عليك فقط.

.. وبعد ساعة فارق الحياة».

اللافت للنظر أن عمل "سامى الدروبى" فى الترجمة، والذى وصفه "طه حسين" - حسبما تذكر السيدة "إحسان بياتى الدروبى" - بأنه عمل مؤسسة بكاملها، كان يقوم به وهو فى سنى الدراسة الجامعية، بل إن زوجته السيدة إحسان لم تتعرف إلى زوجها إلا من خلال إحدى هذه الترجمات.. عندما ذهبت إلى مكتب الدكتور "عبدالله عبدالدايم" فى الجامعة تسأل عن كتاب «الطاقة الروحية» لبرجسون الذى ترجمه سامى..

ويتذكر الدكتور "عبدالله عبدالدايم"، فيقول: «كان علينا، ومازلنا بعد فى ريعان

الشباب طلاباً فى جامعة القاهرة، أن ننقل هذا الأسلوب المرهف الشعرى إلى قراء العربية، مدركين أن التعبير، ولاسيما عند "برجسون" لا ينفصل عن التفكير، وأن الإخلاص لأفكار "برجسون" يستلزم أولاً وقبل كل شىء الإخلاص لأسلوبه.. وقد يسر هذه المهمة أننا كنا، كلانا، شأننا فى ذلك شأن كثير من الشبان، فى منزلة بين المنزلتين: بين تعشق الأدب والقرزمة فيه، وبين تعشق الفلسفة والميتافيزياء».

عبدالناصر.. والدروبى:

وفى مقدمة ترجمة كتاب «منبعا الدين والأخلاق» يؤكد الدكتور "عبدالله عبدالدايم" هذه المعانى، فيقول: «نقدم هذه الطبعة الجديدة من ترجمتنا لكتاب "برجسون" "منبعا الدين والاخلاق" وقد رحل عنا من أغناها بروحه وأسلوبه الرشيق الفذ المرحوم "سامى الدروبى"، والحديث عن ترجمتنا المشتركة لهذا الكتاب يثير شجوناً وشئوناً. شابان فى مقتبل العمر، لايزالان على مقاعد الدراسة يتوفران على فهم "برجسون" وفلسفته ويتعاشقان هذه الفلسفة، ويحققان تواصلاً فكرياً ونفسياً عميقاً من أجل ترجمة كتاب من أروع كتبه وأغناها، ويأنسان فيه رغم شبابهما إلى أنظار راودت المؤلف فى أمسيات حياته غير أنها راودتهما وهما فى شرخ الشباب. لقد كانت المسألة الأخلاقية تقض مضجعهما ويلتمسان لها الحلول. وما كانت أنظار فلاسفة الأخلاق ولا سيما أنظار "كانط" قادرة على أن تروى لهما ظمأ. فوجدا فى أفكار "برجسون" التى جمعت بين دقة التجربة، وصرامة العقل، وشطحات الحدس، مايثير اهتمامهما ويشفى بعض نهمهما».

يبقى أن نذكر أن "سامى الدروبى" سليل عائلة تعيش فى مدينة حمص السورية، أصولها تعود إلى العراق، حيث هاجرت عائلته إلى سوريا قبل أكثر من قرنين. وترك بعد حياته الحافلة بالثقافة والفكر والترجمة نحو ٨٠ كتاباً مؤلفاً ومترجماً، مواضيعها مصطفاة، إذ لم يكن يهمه أن يترجم الأعمال التجارية التى تدر ربحاً.. كما كانت تربطه صلة وطيدة بالرئيس "جمال عبدالناصر"، فتذكر زوجته "إحسان" أنه عندما طُلب إليه أن

ينتقل من سفارة سوريا فى يوجوسلافيا إلى القاهرة اشترط أن يعالج موضوع العلاقات المصرية ـ السورية المتأزمة وقتئذ بأسلوبه الخاص. ولذلك فقد تم تقديم أوراق اعتماده للرئيس عبدالناصر بطريقة لم يشهد البروتوكول الدبلوماسى مثيلاً لها، حتى أصبحت حديث المجالس الدبلوماسية فى ذلك الوقت. وهو السفير الوحيد ـ على كل حال ـ الذى عاده عبدالناصر فى بيته.

الترجمة.. ووهم العالمية

ـ٢ـ

فى معـادلة الأنا والآخر تظهر قضية الترجمة دائماً لتحتل مكاناً بارزاً فى إشكالية التعاطى مع «الآخر». وقد حسم أستاذ الجيل "أحمد لطفى السيد" هذه الإشكالية، عندما قال: «إن علاقتنا بالإنتاج الفكرى الغربى يجب أن تمر بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى هى مرحلة الترجمة. ويعنى بها نقل أكبر قدر من التراث الفكرى الغربى إلى اللغة العربية. **والمرحلة الثانية** هى مرحلة تمثُّل هذا التراث المنقول وتذويبه داخل الوجدان العربى، ثم تأتى بعد ذلك **المرحلة الثالثة** وهى مرحلة الإبداع الحقيقى الذى يحمل سماتنا ويعكس خصوصيتنا الثقافية والفكرية والحضارية.

لكن لو سألنا أنفسنا اليوم عن مدى التزامنا بهذا التقسيم على الأقل فيما يتعلق بمرحلة الترجمة، لوجدنا أننا قطعنا مساحة صغيرة فى بداية الطريق، على الرغم من أن هذه المسافة كانت تبشر بخير كثير، إلا أنها لم تكتمل وفق رؤية "لطفى السيد". وأحسب أن عيون الكتب الغربية التى ترجمتها «لجنة التأليف والترجمة والنشر» ثم «الإدارة الثقافية» بجامعة الدول العربية هى أفضل ماتم تحقيقه فى هذا الاتجاه إضافة بالطبع لما أنجزته «إدارة الترجمة» التى أنشأها الدكتور "طه حسين" فى وزارة المعارف منذ عام ١٩٤٣.

ولا شك أن الحسرة تكاد تأكل قلوبنا؛ لأن هذا التقسيم على الأقل بمدلولاته الثقافية والحضارية قد غاب عن الساحة العربية تماماً، وبدلاً من تكريسه والاستمرار فيه، وتعميقه، تُركت مسألة الترجمة فى عمومها للاجتهادات الفردية. أما مازاد الطين بلة فى رأينا هو أن معظم أدبائنا قد خرجوا على المراحل الثلاث التى حددها "أحمد لطفى السيد" ليتكالبوا فقط على ترجمة مايكتبونه هم إلى اللغات الأخرى،

اللهم إلا "المشروع القومى للترجمة" الذى يصدره ويشرف عليه المجلس الأعلى للثقافة منذ عدة سنوات.

وهكذا تبدل الحال، ووجدنا أنفسنا أمام تقسيم جديد وضعه بعض الكتاب لأنفسهم بهدف واحد هو ترجمة مايكتبون إلى أية لغة من لغات الأرض حتى لو كانت «لغة واق الواق». وفى هذا الخصوص أذكر أن روائياً معاصراً قال متفاخراً ذات يوم فى إحدى الندوات أن روايته «كذا» قد ترجمت إلى ثلاث عشرة لغة، ومن المنتظر أن تبلغ فى نهاية العامين القادمين ثمان عشرة.

ولست أريد هنا أن أناقش هذه الترجمات التى يدّعيها، ولا عدد النسخ القليلة التى بيعت منها، ولا تأثيرها الباهت أو المنعدم فى الوسط الثقافى الجديد الذى انتقلت إليه، ناهيك عن رداءة الترجمة التى يضطلع بها فى الأغلب الأعم طلبة أو باحثون مبتدئون.. ولكنى أريد التوقف عند نقطة أساسية تتعلق بالتقسيم المشار إليه (تقسيم أحمد لطفى السيد) وأتساءل:

ـ هل انتهت مرحلة الترجمة من التراث الغربى، ومتى؟ وهل بدأت مرحلة التمثُّل ثم الإبداع، أم لم تبدأ بعد؟

صحيح أن هذه المراحل ربما تكون «متوازية» بمعنى أن تتم الترجمة والتمثل والإبداع فى وقت واحد، لكن الواقع حقا هو أن هذه المراحل قد استبعدت تماماً على المستوى العملى لتحل محلها عملية واحدة هى الترجمة العشوائية ـ للأسف ـ من العربية وليس إليها.

الترجمة فى أصيلة:

وعلى الرغم من أهمية هذا الأمر خصوصاً إذا وضعت له حدود ومعايير ولم يترك للتقديرات الفردية والغرائز النرجسية لدى بعض الكتّاب، والروائيين فالمحقق أن خطورة هذا «التبدل» وتحول «الترجمة إلى العربية» إلى «ترجمة من العربية» لم تغب عن عقول باحثين ومفكرين ونقاد عرب. فقبل فترة شهدت مدينة "أصيلة" المغربية

ندوة مهمة بعنوان «الترجمة ومستقبل الثقافة العربية» حثت على العودة إلى تقسيم "أحمد لطفي السيد"، وركزت على مرحلة الترجمة إلى العربية وليس منها. وخرجت الندوة بمجموعة من التوصيات منها أخذ موضوع الترجمة على محمل الجد وإعطاؤه مرتبة الأولوية في الساحة الثقافية العربية، واعتبار الترجمة عملية إبداعية لا تقل أهمية عن عملية الكتابة. والانخراط في الترجمة كمشروع استراتيجي شامل بمعنى أنه ينبغي أن يشمل العلوم الدقيقة كما العلوم الإنسانية. فاللغة العربية قادرة على أن تكون لغة طب ورياضيات وفيزياء وعلم اجتماع وعلم نفس أدبي. وإنشاء مراكز للبحوث والترجمة في جميع أنحاء الوطن العربي.

وطالبت الندوة وزارات الثقافة العربية الـ ٢٢ وكذلك الجامعة العربية ومنظمة الأليسكو بترجمة ألف كتاب من قِبَل كل واحدة منها من الآن ولمدة عشر سنوات. وهكذا يتوافر في المكتبة العربية في نهايتها نحو عشرين ألف كتاب في جميع الاختصاصات والعلوم، كما ركز المؤتمرون على أهمية مسألة اختيار الكتب المترجمة فلا ينبغي إعطاء الأولوية إلا للكتب التي تسد الحاجيات الثقافية والعلمية الملحة للطلاب والجامعيين، والباحثين العرب. ولا تترجم إلا الكتب التي حققت فتوحات معرفية في وقتها، ولا يهمنا هنا أن تكون آخر ما صدر في لندن وباريس ونيويورك وبرلين، فقد نحتاج إلى ترجمة كتب صدرت منذ مائة عام أو حتى منذ مائتي عام أي منذ انطلاقة الثورة الصناعية والحداثة الفكرية في الغرب.

وينبغي ترجمة الكتب التي تقدم لنا صورة واقعية وتاريخية عن الثورات اللاهوتية والعلمية والفلسفية التي حدثت في الغرب، والكتب التي تروي لنا تاريخ أوروبا الحديثة، وعصر مابعد الصناعة، وتلك القفزة المعرفية والتكنولوجية النوعية التي تنتظم العالم الغربي الآن. وترجمة الكتب والبحوث الاستشراقية الجادة والتعامل مع الخارج بحذر ودون خوف وينبغي الدفاع عن اللغة العربية كما تدافع اللغة الفرنسية عن نفسها ضد هجمات الإنجليزية أو الأمريكية.

وطالبت الندوة في هذا الصدد بألا ينشر الباحثون والجامعيون العرب مؤلفاتهم إلا باللغة العربية، ويستحسن أن يترجم كل واحد منهم كتاباً واحداً أو عدة كتب في مجال اختصاصه إلى اللغة العربية. وذهب المؤتمرون إلى أن الترجمة ستكون إما وسيلة لإغناء اللغة العربية، وإما وسيلة لإفسادها وذلك بحسب ماإذا كانت جيدة أو رديئة. كما طالبوا بمحاربة الترجمات الرديئة والغامضة والتجارية التي تظهر في السوق. وألا يدخل في ساحة الترجمة من يشاء، وتخصيص جائزة سنوية لأحسن الكتب المترجمة في جميع المجالات العلمية والأدبية والفلسفية، وخدمة الترجمة إلى أبعد حد؛ بمعنى أنه ينبغي على المترجم أن يكتب مقدمة لتبرير ترجمته والبرهنة على أهمية الكتاب المترجم، وحاجة الثقافة العربية إليه. كما ينبغي إرفاق النص المترجم بالشروحات والهوامش لتوضيح ما استغلق في معانيه لكي تبدو عملية الترجمة عملية بحث علمي وليست فقط ترجمة سلبية.

وأخيراً، اعتبار موضوع الترجمة عملية حسم مصير، بمعنى أنه بناء على نجاحها أو فشلها يتوقف فشل أو نجاح النهضة العربية المقبلة.. لكن المؤسف أن توصيات هذه الندوة على حد تعبير الكاتب السوري "هاشم صالح" قد تبخرت كما تبخرت توصيات سابقة ولاحقة، كأن شيئاً لم يكن. وهذا هو حال الواقع العربي، فكلنا يعرف الداء، وبعضنا يعرف الدواء لكن أحداً لا يفكر في العلاج!

الفصحى.. وقضية اللهجات:

ـ ٢ ـ

مازلت أذكر الاعتراض الذى خص به الراحل الدكتور "لويس عوض" زميلاً لنا، عندما علم أنه يعد أطروحة للدكتوراه بعنوان: «لهجات أبناء الواحات الداخلة بصحراء مصر» حيث سأله فى غضب: «ما فائدة هذه الدراسة؟ وكيف تسلخ من عمرك أخصب سنواته فى بحث عديم القيمة كهذا.. وماذا سنكسب إذا عرفنا أن أبناء هذه الواحات يمطون حروفاً، ويختزلون أخرى، ويستحدثون حروفاً ثالثة؟».

واتجه الدكتور "لويس عوض" إلى الحاضرين من حوله، وقال: «لقد وقعتم للأسف الشديد فى الشرك الذى نصبه لكم المستشرقون، فنحن يا أبنائى لسنا فى حاجة إلى دراسة لهجاتنا بقدر مانحن فى حاجة إلى معرفة المناهج العلمية الحديثة فى البحث، ثم استخدامها فى دراسة الفكر الغربى لنقف على نقاط قوته، وضعفه..

يا أبنائى الأعزاء، لا تضيعوا وقتكم فى هذا النوع من الدراسة التى لا يستفيد منها سوى الغربيين الذين لا هم لهم سوى معرفة دقائق حياتنا بدءاً باللهجات وانتهاءً بالفلكلور مروراً بشتى مظاهر الحياة فى مجتمعاتنا..».

وأذكر أن أحداً منا ـ نحن الحاضرين فى هذا اللقاء ـ لم يجرؤ أمام غضبة الدكتور لويس، أن نذكره بأنه كان من أكثر المتحمسين للهجة العامية المصرية، فكتب بها واحداً من أهم مؤلفاته وهو كتاب «يوميات طالب بعثة» وفى «بولاتولاند» بعض "السوناتات" بالعامية المصرية.. ومن ثم فثورته على من يدرس اللهجات أو يكتب بها غير مفهومة.

الشىء نفسه لاحظناه عند عميد الأدب العربى الدكتور "طه حسين" الذى لم يكن يتحدث بغير الفصحى حتى فى أمور الحياة اليومية، كما كان لا يقبل من تلاميذه أن يتحدثوا معه بغيرها.. ومما يذكر فى هذا الخصوص أنه سأل إحدى

تلميذاته يوماً عن سبب اختفائها عدة أسابيع، فأجابت تقول: كنت مع زوجي وأولادي في المصْيف (نطقت المصيف بتسكين الصاد). فغضب "طه حسين" من نطقها المصيف بالعامية. وقال لها في لهجة لا تخلو من لوم: المصْيف بتسكين الصاد، أم المصِيف بفتح الميم وكسر الصاد؟! فتداركت التلميذة الأمر، وقالت في شبه اعتذار: المصيف بفتح الميم وكسر الصاد يادكتور. وإذا كنت قد نطقتها بالعامية فما ذلك إلا من قبيل التبسط معك في الحديث.

فهز الدكتور طه حسين رأسه في اعتداد وثقة، وقال: وهل أنا ممن يُتبسط معهم في الحديث أيتها التلميذة النجيبة!

فاحمر وجه التلميذة، ولم تحر جواباً!

معركة العامية: قديمة جديدة..

.. وعلى الرغم من ذلك، يسجل تاريخ المعارك الأدبية في أربعينيات هذا القرن تحمس الدكتور طه حسين لدراسة اللهجات العربية، وهو ماقد يبدو غريباً على كل حال، عندما خاطب خصومه في هذه المعركة قائلاً: «حرام عليكم أيها الأصدقاء.. فلا يباح لكم أن تقتلوا هذه العامية الحلوة، فإنا نجد في اختلافها لذة، ومتعة، وعزاء في كثير من الأحيان».

إن "طه حسين" كان لا يرى غضاضة من دراسة اللهجات، ولم يعترض إلا على إدخالها ضمن وظائف ومهام المجمع اللغوي، ويطالب بأن تكون الجامعة وليس المجمع اللغوي، مكاناً لدراسة اللهجات. فرد عليه "منصور فهمي" قائلاً: «إن دراسة اللهجات تُعين على معرفة معنى الكلمة على وجهها الصحيح. فغير قليل من الكلمات قد تستخدم من ناحية أو في عدة نواح من البلاد العربية لمعنى من المعاني. وإن العناية بمعرفة هذه الألفاظ ومعانيها قد تعين على وضع كثير من المعاني والألفاظ في موضعها الصحيح الأوفق، فضلاً عن أن اللهجات لم تخرج عن كونها جزءاً من تاريخ اللغة وتطورها. ومن أراد أن يزيد رسوخاً في اللغة، فليس له أن يُهمل أجزاء من تاريخها.

واستطرد "منصور فهمي" يقول: «زد على هذا أن البلاد العربية قد تعددت لهجاتها لدرجة الصعوبة فى التفاهم أحياناً، وأنه من أمل مجمع اللغة المصرى أن يكون لمصر مركز ممتاز بين البلاد العربية لتوحيد الأدوات والأساليب فى التخاطب والكتابة، والتفاهم بلغة مشتركة فصحى رقيقة، فمن حقه إذن أن يعنى بلهجات البلاد العربية المختلفة، وذلك لدفع تلك اللهجات إلى لغة سليمة فصحى تُوحد بين الجميع فى الكتابة والتخاطب».

ويبدا من هذه المعركة أن الخلاف بين الرجلين ينحصر فى أن "طه حسين" يرى أن مكان دراسة اللهجات هو الجامعة، وليس المجمع، وأنه لا يحق لأحد أن يقتل هذه العامية الحلوة!

أما "منصور فهمى" فيرى أن مكان الدراسة هو المجمع الذى تكون مهمته - والحالة هذه - إصلاح ما فسد من مفردات اللغة، ورده إلى الأصل العربى السليم الصافى بغية الوصول فى النهاية إلى لغة موحدة.

وانتهت المعركة، ولم تنته القضية حتى اليوم..

فالجامعات الأوروبية تتبارى فى إنشاء أقسام خاصة باللهجات العربية، ويشرف عليها أساتذة متخصصون، يقومون بدراسة اللهجات العربية القديمة، كما تمثلها قراءات القرآن الكريم، وينشطون فى السنوات الأخيرة لدراسة اللهجات الحديثة..

اهتمام غربى بلهجاتنا؟!

عندما سألتُ أحد الأساتذة المصريين المتخصصين فى علوم اللغة العربية بجامعة زيورخ، هو الدكتور "إسماعيل أمين"، عن سبب الإقبال الشديد من جانب الجامعات الغربية على دراسة اللهجات العربية، أجاب: «إنه الولع بمعرفة قواعد لغة التخاطب، لأنها لغة الحياة، وأكبر المظاهر الحضارية التى تعيش فى عصرنا الراهن.. ناهيك عن أن هذا النوع من الدراسة الأكاديمية يساعدنا فى التعرف على تطور اللفظ، ومراحله، وهل هو تطور دلالى أم تطور من ناحية الشكل فقط..».

فأوضح الرجل - الدكتور "اسماعيل أمين" أن هذا الاتجاه الأكاديمي في دراسة اللهجات بدأ في ألمانيا في أواسط القرن الماضي، وأصبح الآن أكثر تعقيداً لأنه يعالج قضية تطور اللهجات من منظور الصوت والنطق بالألفاظ..

ويؤكد أن هذه الدراسات تنطلق بالأساس من رفض النظرية التي تقول: «إن جميع اللغات يمكن إرجاعها إلى قواعد عامة وثابتة». ومن ثم لا وسيلة للتأكد من صحة ذلك إلا بدراسة اللهجات.

وبعد أن أسهب الدكتور "إسماعيل أمين" في شرح فوائد الأبحاث اللغوية مشيراً إلى أنها قطعت شوطاً بعيداً في الولايات المتحدة الأمريكية، أطلعني على آخر مؤلف له، فإذا به كتاب تعليمي لتدريس «اللغة الفصحى» للآخرين..

وهكذا أجدني للمرة الثالثة أمام حالة جديدة بطلها - هذه المرة - هو العالم الكبير "إسماعيل أمين"، الذي يدافع عن دراسة اللهجات، لكنه عندما أراد أن يعلم الأجانب لم يجد - في الواقع - غير الفصحى التي صاغ بها أفكاره، ونقلها إلى التلاميذ مقتبساً أشعاراً ومأثورات من التراث العربي والإسلامي..

يبقى أن نذكر أن قضية الفصحى والعامية من أخطر القضايا التي تطرح نفسها بإلحاح في الساحة الثقافية والفكرية العربية إلى اليوم. ومازال هذا التناقض الذي شهدناه مع "لويس عوض"، و"طه حسين" قائماً ومعيشاً، كما تجسد في تجربة "إسماعيل أمين" أستاذ علوم اللغة العربية بجامعة زيورخ..

ولست أدري هل سنصل يوماً إلى حسم هذه القضية كما حسمنا قضية «لغة الصحافة» في كل البلاد الناطقة بالعربية؟ وهل يكون من حقنا - ونحن نفتح ملف هذه القضية - أن نتساءل عن صحة التفسير الذي يرجع اهتمام الدوائر الأكاديمية الغربية بموضوع اللهجات إلى انكباب الغرب التركيز على البنى الاجتماعية وتحليلها، وتكييف دوافعها، أم إلى إزكاء روح الإقليمية وترسيخ معاني التشرذم والانقسام في المنطقة العربية؟

وأخيراً، ماهي حقيقة هذه الازدواجية (الفصحى - اللهجات) في فكر "لويس عوض" و"طه حسين" و"إسماعيل أمين".. فالأول يرفض العامية بينما هو صاحب تجربة رائدة في الكتابة بها.. والثاني يدعو لدراستها في الجامعات ويرفض في الوقت ذاته التحدث بها، والثالث يدافع عن اللهجات بينما لا يُعلم تلاميذه الألمان سوى الفصحى.

إنها أسئلة تبحث عن إجابة. لكنها بالتأكيد تفسر الفارق الدائم بين الحضور البلاغي والإنشائي للنخبة وبين ممارساتها الفعلية!!

الفصل الرابع

الهوية.. بين الاتباع والابتداع

- د. منصور فهمى
- د. محمد عزيز الحبابى

"منصور فهمي" ونقض "الثوابت"..

يبقى الحرص على الهوية والذات الوطنية أمراً محتوماً تؤكده مسيرة الشعوب وتجاربها الحية فى النهضة المبنية على تلك الخصوصية، سيما حين تكون تلك الشعوب ذات حضارة، أو تضطلع بدور محورى ثقافياً وسياسياً بين جيرانها. لكن مسيرة النهضة البشرية أيضاً تؤكد شيئين مهمين يظلان قرينين لأية حركة جادة باتجاه التقدم:

أولاً: إن الحرص على الهوية والخصوصية لا يمنع أبداً من مراجعة الذات، وممارسة فعل المساءلة كخطوة مهمة فى أى رقى، خاصة فى ظل المتغيرات العديدة التى تطرأ بكثافة على واقع حياتنا فى نواحيها الفكرية والاجتماعية والسياسية. الأمر الذى يجعل الركون للثابت والقارّ دعوة للتأخر.

ثانياً: إن الحرص على الذات والخصوصية الوطنية إذا لامس حدود الشطط قد يؤدى بأصحابه ـ ربما دون أن يدروا ـ لا إلى التخلف بمجتمعاتهم فحسب، وإنما إلى الصدام مع المختلفين معهم، ومن ثم إشاعة جو من الارتياب الذي يصل إلي حد الخصومة بين "دعاة الذات"، و"أنصار الآخر"..

ولا شك أن المتابع لحركات التطرف والتعصب فى العالم، يعرف ربما أكثر من

غيره، أن بعض هذه الحركات لم تكن - بادئ الأمر - في أذهان أصحابها سوى سؤال بسيط حول الهوية.. ومجرد بحث عارض عن الخصوصية.

وأياً كان الأمر فمن هذا المنطلق (منطلق "الذات" و"الهوية" و"الخصوصية") سيكون بمقدورنا رصد عدد من المفكرين الذين أثروا الواقع الثقافي المصري والعربي، وتبنوا، رغم (مالاقوه من عنت وإنكار) فكرة المراجعة ومساءلة الذات كأولى خطوات الإجابة الحقة عن الخصوصية. ومن هؤلاء المفكر المصري المغمور "منصور فهمي"، هذا الرجل الذي لم يأخذ حقه من الدراسة والتحليل وبعد نصاً مهمشاً بسبب رؤاه الخلافية حول «ثوابت» كثيرة. ونحن نعرف أن "منصور فهمي" يمتلك خبرة حياتية عميقة وخصبة، إضافة إلى نهج فكري تميز بالجدة. إذ كان هاجسه الأول هو المساءلة التي تفتح وعياً أعمق بالذات ومن ثم تنتج رؤية أدق وموضوعية للآخر.

وقد أتيح لمنصور فهمي أن يدرس في باريس أوائل هذا القرن. وقد أنجز تحت إشراف «ليفي برول» عالم الاجتماع الفرنسي آنذاك أطروحة مهمة لنيل درجة الدكتوراه. كانت بعنوان «وضع المرأة في تراث الإسلام: دراسة تاريخية واجتماعية» يعالج فيها بمنهج علمي وضعية المرأة في التاريخ الإسلامي من كافة جوانبها الحقوقية والمعنوية والاجتماعية. وقد أثار هذا البحث جدلاً واسعاً أعقاب مناقشة له عام ١٩١٣ في فرنسا.. كذلك كان الحال مختلفاً في مصر فقد أثار البحث الجرئ لمنصور فهمي حفيظة المؤسسات الدينية المحافظة آنذاك تحت دعوى النيل من الثوابت، حيث أصبح كل شيء فجأة - والحال هذه - مقدساً، يحظر التعامل معه، ناهيك عن مراجعته أو نقضه.

وقد اختلفت الآراء في مصر، حول الرجل وأفكاره، فالبعض ضمه فوراً لمن أطلق عليهم آنذاك «أنصار التغريب» أمثال: "طه حسين" و"محمود عزمي" و"سلامة موسى" و"علي عبد الرازق" و"اسماعيل أدهم" و"عبد العزيز فهمي" وآخرين. واتهمه البعض بأنه كان في بحثه السابق «غربياً أكثر من الغرب» حين التزم منهجاً علمياً تاريخياً

بحثاً في معالجة موضوع كهذا. ولم يوضح هؤلاء كيفية تناول «أحوال المرأة في الإسلام» بمنهج آخر. غير أن ما يبدو دائماً في هذه المواقف التي لا نزال نرى أمثالاً لها كثيرة إلى الآن، هو التباس الفكري والثقافي والحياتي بالديني دائماً اعتماداً على فكرة «المقدس» في نفي الآخر المختلف فكرياً. ويصبح اتهام منصور فهمي بلي الحقائق إرضاءً للغرب أمراً طبيعياً. والعجيب أن من اتهموه لم ينظروا في البحث، بل أخذوا انتشاره مدعاة لتأكيد اتهامهم. وأيا كان الأمر، فالثابت أن هذا البحث يعد أولياً وفاتحاً لتيار مجدد فيما يخص قضايا النهضة والتحرر بشكل عام.

الاتباع والابتداع:

وللانصاف يجب أن نذكر أن جدل الذات/ الآخر كان هاجساً قوياً وماثلاً بعمق في إنتاج مفكرين عظام أمثال "طه حسين" و"سلامة موسى" و"قاسم أمين" وغيرهم. وقد كان للدكتور "منصور فهمي" رأي في هذه القضية تجلى في رده على "طه حسين" في واحدة من أهم المعارك الأدبية عام ١٩٢٩. فقد حيرته دعوة "طه حسين" لاتباع الغرب وتعظيمه من شأن نهضتهم الحديثة، والتي تضمنها كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» الصادر عام ١٩٣٨ وطالب فيه صراحة على أن «نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً.. ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب». مما جعل منصور فهمي يكتب آنذاك: «أكاد أرجع أكثر الخصومات في الرأي حول مشاكلنا الاجتماعية إلى علة واحدة، تلك هي: الرغبة في تقليد الغربيين أو كراهية ذلك التقليد.. وهأنذا أقرأ لزميلي د. طه حسين مقالاً حديثاً من مقالاته في جريدة "الأهرام" فأجده يقول: لكننا منذ أوائل القرن الماضي نظرنا إلى أوروبا واتخذناها مثلاً نحتذي به، ونقلده، فاستعرنا منها فكرة التعليم الإلزامي ومجانيته، وفكرة التعليم العالي الجامعي، أترى أننا ننظر إلى أوروبا والانتفاع بما خضعت له من التجارب ولما اختلف عليها من حظوظ..». وبعد التضمين السابق الذي يورده "منصور فهمي"

فى معرض رده على "طه حسين" يؤكد رؤيته الخاصة به فيما يتعلق بقضية الانفتاح على «الآخر» فيستطرد قائلا:

«طالما قرأت لغيره من ذوى الرأى، وسمعت منهم حيث يتحدثون فى اتخاذ طرائق الغربيين أو تجنبها ما يخالف رأى الصديق - يقصد طه حسين - ويغايره، وعندئذ يتردد إلى خاطرٍ زوّار، فأقول فى نفسى: أيهما يا ترى أهدى إلى الحق وأدنى إلى سبيله، أذلك الذى يجد أن حياتنا الاجتماعية تظل فى عوج واضطراب مادمنا لا نحتذى أثر الغرب، ونقدم على اصطناع مُثُله فى صراحة وعزم، أم ذلك الذى يرى أن أمتنا ليست كأمم الغرب فى كل شىء وأن اتخاذ أكثر نظم الغربيين لا يُجدى فى رقينا وإسعادنا، وقد يعود علينا بالشقوة والخسران؟!».

ويعترف "منصور فهمى" بعجزه عن الإجابة على السؤال، فيقول: «تولتنى فيه حيرة من هذه الحيرات التى تتجمع فيها النفس لتستعين بالله عساه يقرها إلى رأى، ويسكنها إلى مذهب تجد عنده راحة اليقين وتتخلص به من ألم الحيرة. كنت أشعر أحياناً إلى الميل لرأى زميلى طه، فهؤلاء ذوو الشأن فينا يتأثرون بالغربيين فى غير هوادة ولا مبالاة، فأوروبا إمام فى التعليم وأوروبا إمام فى أكثر مسائل التشريع، وأوروبا إمام فى أكثر مظاهر الأخلاق والنظم.. وقد يجرنا اتباع أوروبا فيما هو أبعد الأمور عن طباعنا، فهل من المستطاع حقاً بعد ذلك أن تسهل علينا الرجعة والنكوص؟!».

ثم يغوص "منصور فهمى" فى أعماقه باحثاً عن إجابة على السؤال، ويكتب شارحاً حالته النفسية فيقول: «سبحانك اللهم: أى السبيلين لنا فيه هدى وتوفيق؟ على أننى بعد هذا الجذب الذى يُراد به تقريبى إلى ما يقولون أعود فأستمع من أعماق القلب صوتاً مدوياً يشق سبيله إلى عقلى الحائر، فأقول لنفسى: سبحانك اللهم، فليست بيئتى، التى أعيش بها ولها وفيها، هى بيئة الغرب. فهذه سماؤنا غير سماء الغرب، وهذه تربتنا غير تربته، وهذا موقعنا فى ملكوت الله غير موقعه، وهذه

لغتنا غير لغته، وهذا ما ورثناه من عادات ومحن وظروف وصروف غير ما ورث الغرب. أفتكون مكنوناتنا غير مكنوناته، ومميزاتنا غير مميزاته، وظروفنا وصروفنا غير ظروفه وصروفه، ثم يراد بنا أن نكون كالغربيين ويحاول داعية صريح ان يقنعنا بأن نتخذ من الغرب إماماً، نأتم به في كليات ما يسير عليه وفي جزئياته».

يستمر "منصور فهمي" في مناجاة نفسه حتى يصل إلى نتيجة يرتاح إليها ضميره، فيقول: «عفوك اللهم وهداك، إن نفسي وعقلي مازالا راغبين عن سبيلها، بل إن النفس لتدعوني أن أحتفظ بالخصائص التي أراد الله أن يميز بها أمة أنا من بينها، وأن أتمسك بميراث انحدر إلى بلدي من قرون، وأن أستوحي به تاريخي وأن أستلهم به جو بلادي وما تلهمني به تلك الأرواح الخفية في سماواته». ثم يختم هذا الرد، فيقول: «عند سكون نفسي إلى هذه النزعة أعود فأهمهم في شدة وحماسة. لسنا من الغرب في شيء وإنها لكبيرة أن ننتهج في كل شيء سبيل الغربيين، فللتقليد حدود».

وعلى الرغم من أن هذه النهاية تعود بنا إلى الحيرة التي بدأ بها رده على زميله "طه حسين"، إلا أنها تنقلنا بلاشك من الجو الأول، جو الثقة في الغرب الذي أعد فيه أطروحته للدكتوراه حول وضع المرأة في تراث الإسلام، إلى الجو الثاني وهو الزهد في هذا «الغرب» والبحث في «الذات» عن الهدى، والتوفيق، و«حدود التقليد الذي ليس منه بد».

هذه التجربة الحياتية والفكرية التي عاشها "منصور فهمي" ـ في رؤيته للغرب ـ جديرة بالتأمل والمراجعة ليس فقط لأنها نموذج يتكرر كل يوم وبدرجات متفاوته بين مفكرينا المعاصرين والمحدثين الذين ينبهرون بالغرب في بداية الأمر، ثم يذهدونه بعد ذلك، ولكن أيضاً لأنها دليل قاطع على أن النمط الغربي ليس هو ـ بالضرورة ـ أصلح الأنماط في السلوك، والتفكير والحياة.

كما أن التعصب للذات تحت أي دعوى فكرية أو دينية يعد تطرفاً آخر، إنما

يبقى قوام الأمر في ذلك التوازن الحي بين خصوصية المصادر والمقومات الوطنية الشخصية وبين الانفتاح على الآخر، الذي سيكون ـ والحال كذلك ـ انفتاحاً واعياً يرفض الاستتباع، ويتأسس على الندّية.

"عزيز الحبابي": النهضة العربية عرجاء!

.. مثل سائر الأفكار الكبرى كان فكر فيلسوف الشخصانية «الواقعية» المغربى "محمد عزيز الحبابي" موضع خلاف بين النقاد والمؤرخين، فمنهم من رأى أنه لم يكن أكثر من «شارح» لفلسفة "هنرى برجسون" وأنه لم يتجاوز الدور الدعائى للبرجسونية فى الشرق. ومنهم من ذهب إلى أن «الحبابى» قد بدأ حياته الفكرية على مائدة البرجسونية، إلا أنه تجاوزها فى نهاية المطاف ليخلق لنفسه اتجاهاً فلسفياً خاصاً، رسم ملامحه بدقة فى عدد من مؤلفاته الفكرية: «من الكائن إلى الشخص»، و«من المنغلق الى المنفتح»، و«من الحرية إلى التحرر»..

التقيت بالحبابى أكثر من مرة، واستمعت إلى إجاباته المسهبة حول هذه القضية الخلافية فى النظر إلى فكره. وتبين لى أن الحبابى نفسه يرفض الربط المتلازم بينه وبين الفيلسوف الفرنسى «هنرى برجسون» صاحب الكتاب الشهير «منبعا الدين والأخلاق». فها هو يقول: «بالنسبة للتأثر بالبرجسونية فذلك غير صحيح لأنها مثالية، بينما توصف الشخصانية التى أنادى بها بالواقعية التطبيقية. كذلك البرجسونية ليست إلا ميتافيزيقيا فى عمقها، أما الشخصانية الواقعية فهى كفاح يقاوم أوضاعاً مجتمعية تاريخية.. والفرق واضح بين المذهبين. ولعل هذا الخطأ فى الخلط بين أصول الشخصانية الواقعية وأسس البرجسونية قد جاء نتيجة اهتمامى بالفيلسوف الفرنسى "هنرى برجسون" الذى نشرت عنه كتاباً، فوقع فى ظن الكثيرين أنه لا يعنى غير التبنى للبرجسونية، مع أن كتابى حول "برجسون" ليس إلا انطلاقة نقدية لفلسفته خصوصاً فيما يتعلق بفكرة الحرية».

---

* ولد "محمد عزيز الحبابى" فى "فاس" عام ١٩٢٢. درس فى مصر ونال من جامعتها الماجستير، ثم دكتوراه فلسفة من فرنسا، وشغل منصب عميد كلية الآداب بجامعة الرباط. ومن نتاجه الأدبى: «بؤس وضياء» (شعر ١٩٦٢)، و «جيل الظمأ» (رواية ١٩٦٧)، «إكسير الحياة» (رواية ١٩٧٤).

وحول الفكرة ذاتها يذكر الحبابي في كتابه «من الحرية إلى التحرر» أنه تأثر بهنري برجسون في إطار التأثير الكلي للفلسفة البرجسونية على الفكر الأوروبي منذ مطلع هذا القرن، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر؛ ولأن مذهبه في الشخصانية الواقعية يرمي إلى تحقيق فلسفة "تحرر" فكان لابد من أن «يهضم» البرجسونية التي تبدو في الأزمنة الحديثة خير مدافع عن الحرية الروحية. ويؤكد الحبابي أن: «المرور بفلسفة ما شيء، والانتهاء إليها شيء آخر».

وكأنني به يريد أن يوضح أن مروره بفلسفة برجسون (فهماً وتأثراً) لا يعني أنه سيظل لصيقاً بها مدى الحياة. والسبب ببساطة ـ كما يقول هو: «إن المذهب البرجسوني لم يتعرض لكل الأفكار الأساسية في عصره».

«الثالثية».. نقض «الذات» قبل «الآخر»:

أياً كان الأمر، فالبرجسونية، على أحسن تقدير، كانت محطة أولى في طريق «الحبابي» الطويل نحو تأسيس فلسفة خاصة به. وفي تقديري إن من يرصد حياة وفكر «الحبابي» دون أن يعطي مساحة كبيرة لفكرة «الثالثية» فالمؤكد أنه سيقع في خطأ كبير، لأن الاهتمام بالعالم الثالث كان أحد أبرز ركائز فكر الحبابي، إن لم يكن الركيزة الوحيدة.. وليس أدل على ذلك سوى ما ذكره الحبابي نفسه، عندما قال: «إذا أردت البداية الحقيقية لي في دنيا الفكر، فلابد أن ترجع معي إلى سنوات طلب العلم: من أنا؟ وما هو الشعب أو الأمة التي أنتمي إليها؟ كان دافعي إلى طرح هذا (السؤال ــ القضية)، هو إحساسي ـ في ذلك الوقت ـ بأنني واحد من أبناء إحدى المستعمرات الفرنسية. لا هوية لي إلا من خلال المستعمر. فجواز سفري مكتوب عليه باللغة الفرنسية أنني "من الحماية الفرنسية بالمغرب". هل هناك توصيف آخر أكثر خزياً من ذلك؟! كنت أتألم عندما أجد الآخرين يعاملونني بدرجة "دون"، ويعتبرونني إنساناً غير مُكتمل الإنسانية. والسبب هو أنني مواطن مغربي، ولست فرنسياً، أي مواطن من بلد "تحت الحماية"، وبالتالي فحقوقي يجب ألا تتساوى مع حقوق

"الحامي"! هذا الوضع المخزى المؤلم، دفعني للبحث عن هويتي، وعن مواطن الداء النفسي الذي أعانيه ويعانيه معي عشرات بل مئات من مثقفي العالم الثالث.. إذ كان لابد أن أضع حداً لهذا الشعور بالانسلاخ عن مسيرة التاريخ، وأن أرد الاعتبار للغتي العربية، وتراثي الإسلامي ليكون في الدرجة الأولى، وليس الثانية بعد لسان وثقافة المستعمر. كانت هذه الحالة من الحرمان والقلق والعصاب هي التي وجهتني لدراسة الشخصانية، التي اعتبرتها في ذلك الوقت محاولة للإجابة على مختلف الأسئلة التي حيّرتني، وأثرت على تفكير عدد كبير من مثقفي العالم الثالث، لأننا جميعاً في الهمّ سواء».

إذن كانت الفكرة أو النظرية «الثالثية» هي بداية طريق «الحبابي»، وليست «البرجسونية» كما يزعم الآخرون. وتتأسس نظرية "الثالثية" على حدّين:

الأول: خاص بالغرب الذي خاطبه الحبابي بلهجة قاسية، ونعته بشتى النعوت بدءاً من الأنانية والغطرسة وانتهاءً بالخواء وقرب الانهيار..

والثاني: خاص بالشرق حيث كان خطاب الحبابي ملتهباً عندما اتهم شعوبه بالجهل والتخلف والكسل العقلي.

وقد صاغ "الحبابي" ما يتعلق بالحد الأول من هذه النظرية في كتاب، يصفه النقاد بأنه كتاب نارى لأنه يتحدى الغرب المسيطر، ويتهم الشرق بالتقاعس، وهو بعنوان: «الغدية: العالم الثالث يتهم». وفيه يتوجه "محمد عزيز الحبابي" إلى الغرب قائلاً، في لهجة لا تخلو من سخط: «لعل أكبر شيء يحول دون إيجاد الحلول المناسبة هو ارتكاب الغرب نفسه خطيئة التمركز على الذات ذاك هو ضرره الجذرى وما دام الغربيون لم يعوا ذلك ولم يعالجوا أنفسهم بنقد ذاتي جدى، فلا أمل يرجى لا لإنسانية اليوم ولا لإنسانية الغد. لقد احتكر الغرب الماضي ونهج طريقاً معوجاً، فعليه إذن أن يتفهم أن من الضروري أن يغير وجهته قبل أن يستأنف مسيرته نحو الغد. إن عالم الغد لا يحتمل أن تحتكره أية دولة أو كتلة من الدول. فالتغير هو قدرنا

وقدر الغرب نفسه، أراد ذلك أم أبى. والعالم الثالث طرف كامل الحق فى كل تصور لذلك التغيير والمستقبل. وإذا كان الغرب قد طرد العالم الثالث من التاريخ بعدما نهب مواده الأولى وداس على كرامته، فإنه لن ينجح فى أن يخرج من أحشائه كراهيته للظلم والحيف. لقد نجح الغرب فى أن يفرض معاييره .. لكن يبدو أن الغرب قد غابت عنه فكرة أساسية، وهى إذا كان واقع الحال هو تفوق الغرب، فإن الحقيقة تثبت العكس، بمعنى أن كل شىء نسبى، فما يسود فى فترة ما، لا يملك بالضرورة صلاحية شمولية بالنسبة لجميع الفترات».

وظل «الحبابى» وفياً لهذا الخطاب العنيف فى توجهه إلى الغرب حتى أخريات أيامه، بهدف هدم الركائز المعرفية التى يقيم عليها هذا الغرب نظرته إلى نفسه، ويحطم المركزية الأوروبية فى نظرتها لباقى الثقافات أو الحضارات غير الأوروبية فى إطار «الاستتباع» والهيمنة. تلك المركزية التى كان فكر «الحبابى» ينقضها من زاوية انطوائها على منظومة معقدة ترفض كل ما ليس له نموذج سابق لديها. وهى تنفى بذلك قدرة الشرق على الابتكار وحقه فى «وجود» مختلف.

أما الحد الثانى من نظرية «الثالثية» والخاص بالشرق، فقد انطلق فيه «الحبابى» من فكرة أساسية وهى أن التكوين البنيوى للمجتمع العربى ليس به استعداد طبيعى لأن يسلك نفس سبيل الغرب، ناهيك عن أن الغرب ـ الذى نريد أن نطوى المراحل التى مر بها تاريخه ــ وثب حالياً وثبات وقفزات تكنولوجية وإعلامية عملاقة ونوعية، تجعل ماضيه، الذى لا يزال بالنسبة لنا هو المستقبل، ماضياً عديم القيمة والفائدة.

همشتنا الحضارة.. يا إلهى!

وحول هذه النقطة تحديداً يقول الحبابى: «لقد همشتنا حضارة التصنيع وأبعدتنا عن دائرة الضوء من المسيرة التاريخية والحضارية. ومما يؤسفنى أننا لم نفطن بعد

إلى ذلك، وظللنا غارقين في تقليد الغرب. وعلى الرغم من فشلنا المتكرر، إلا أننا لانزال نعمل كالقرود: نحاكي النموذج، ولا نفعل ما يفعل!..

لقد ظهرت عيوب حضارة التصنيع، وأخذ مفكرو الغرب ينتقدونها ويطالبون بتجاوزها، ونحن لا نزال نلهث في البحث عن طريق تؤدي بنا إلى حضارة محكوم عليها بالاندثار. سنبدأ غداً حضارة ما بعد التصنيع، ونحن مازلنا نمد أعناقنا متعلقين بأهداب حضارة التصنيع التي لم نحققها ولن نحققها أبداً.. والسؤال هو: ما مصيرنا عندما يعيش الغرب حضارة ما بعد التصنيع؟ إن المسافة بيننا وبين الغرب تتسع، ونحن نتغنى بركب الحمار والجمل ونسينا أنهم يركبون البوينج والكونكورد! الغرب يبني الغد ونحن نتشبث بأوضاع فاتها الركب!».

إن أسئلة «الحبابي» لاتزال حيّة حتى الآن، بل تزداد إلحاحاً كلما نظرنا إلى آفاق القرن الحادي والعشرين. وفي كتابه «من الحرية إلى التحرر» يطالب «الحبابي» بأن يكون المثقف الثالثي أكثر التصاقاً بواقعه لأن لحريته أو تحرره أسساً مادية لصيقة بجذوره، ومن ثم يجب أن يكون في حالة عناق دائم مع قضاياه.

وبعد أن يطالب "الحبابي" بضرورة تحليل الأفكار والتعبيرات التي يستعملها الفكر العربي المعاصر لأنها على حد قوله، مفاهيم مبهمة، يستعملها العرب ليواجهوا بها مصيراً مبهماً.. يعود ويسأل: «من المسئول عن الإبهام في الفكر العربي المعاصر؟».

ويجيب: «إنهم المثقفون، لأنهم لم يحُسنوا اللعبة سياسياً، ولم يوفقوا بعد في النقد عموماً، وفي النقد الذاتي على الأخص. ولم يصلوا إلى بلورة معُطيات الوضع المُعاش وجعله واعياً عند الشعب.. إن الجمهور العربي غير مسئول عن أوضاعه، لأنه لا يعيها».

لقد ظلت فكرة أو «نظرية الثالثية» هي هاجس «الحبابي» طوال مشواره الفكري،

وإن بدت هامشاً ضيقاً فى مذهبه الخاص بالشخصانية الواقعية، إلا أنها امتدت لتشغل كل المساحة تقريباً فى فلسفة «الغدية».

أية نهضة؟

لا يمكن فصل هذه الرؤية السابقة عن جزء منها حيّ ومثير للجدل حول النهضة العربية التى يقال: إن فجرها قد بزغ فى نهاية القرن الماضى وبداية القرن العشرين.. فالحبابى يتحفظ حول مقولة «النهضة» قائلا: «أرجو أن تعتقد أننا لم نعش بعد هذه النهضة، لأن الأمر قد اختلط على الكثيرين، حتى ظن بعضهم أن مجرد استعمال لفظة «نهضة» يعنى فى النهاية أننا نعيش بالفعل فى عصر النهضة! وكأنى بهم قد نسوا أن الحكم الصحيح على النهضة لا يكون إلا من خلال النتائج .. وهنا يجب أن نطرح سؤالاً جريئاً، ولكنه من الضرورة بمكان: هذه النهضة المزعومة.. فى أى ميدان يمكن أن نلمسها؟ ماذا حققنا؟ وهل تغيرت الأوضاع حقاً فى عالمنا العربى؟

..إذا سألتنى عن رأيى فسأقول: إنه باستثناء بعض التطور فى حركة الصحافة و "شيء ما" فى عالم المسرح وصناعة الأفلام، فإن شيئاً آخر لم يحدث! فاستغلال الطبقة المحرومة كان موجوداً قبل هذه النهضة، وما زال موجوداً حتى اليوم، بل ربما فى صورة أكثر بؤساً وزراية. والأمية كانت منتشرة فى العالم العربى قبل النهضة ومازالت منتشرة إلى اليوم. أما العدالة فقد كانت مضعضعة فى عالمنا، ومازالت مريضة وكسيحة حتى اليوم فأى عنصر من عناصر النهضة ـ الحق، يمكننا أن نحتج به، ونقول: هكذا تغلبنا على تخلفنا؟!».

وحين راجعته: إذا لم يكن فجر النهضة العربية قد بزغ حتى الآن، فماذا فعل هؤلاء: الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى والأمام محمد عبده، وطه حسين، وآخرون؟

فأجاب: «لم يفعل الطهطاوى أكثر من أنه زار باريس وعلّق على ما رأى فيها

شأنه فى ذلك شأن الرحالة العربى "ابن بطوطة" وآخرين.. أما جمال الدين الأفغانى، والأمام محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، فقد قطعوا بضع خطوات فى طريق الإصلاح. لكن يجب ألا يغيب عن بالنا أنهم ليسوا أول من قام بحركة إصلاح دينى على كل حال.. فالإمام ابن تيمية قام بالحركة السلفية قبلهم وإن كان فى ظروف جد مختلفة، كذلك فعل ابن عبد الوهاب بالنسبة للحركة الوهابية. أما بالنسبة لطه حسين، فلابد أن أعترف بأنه كان كاتباً عظيماً بالنسبة إلى العرب، لكن من يقرأ طه حسين غير "النخبة" القليلة؟ ومن ثم فإن تأثيره لا يعدو كونه تأثير أسلوب سلس، جديد فقط! أما أفكاره حول الشعر الجاهلى وغير ذلك فهى أفكار راجت فى فترة ما، بين أوساط محدودة.. ثم تعدى الركبُ ـ هذه الأفكار ـ اليوم.. إن الشىء الذى يمكن أن ندين به لطه حسين ـ فى رأيى ـ هو ما قدمه من أبحاث فى مجمع اللغة العربية، وما قام به لإصلاح التعليم فى مصر، وجهاده بالجامعة المصرية، وهى بلاشك أعمال جمة تسير على طريق النهضة، لكنها ليست أبداً "النهضة"!

..أما العقاد ـ والحديث لعزيز الحبابى ـ لم يكن سوى خزانة متنقلة للمعلومات أو دائرة معارف حية. لكنه على مستوى الفكر التجديدى لم يقدم شيئاً بالمقارنة لآخرين أحدثوا ضجة بكتاباتهم مثل قاسم أمين فى "قضية المرأة" أو حسين هيكل فى رواية "زينب". العقاد على كل حال كان مثقفاً مبهراً ومرجعاً فى العلوم لكنه لم يُحدث أى ضجة فى دنيا الفكر! لكن تبقى ترجماته وشروحاته للكتب الأوروبية الجديدة هى أهم ما أضافه على طريق النهضة. كل ما قام به هؤلاء الأعلام فى دنيا الأدب والفكر، إذا أضفنا إليه إنتاج أحمد حسن الزيات، وأحمد أمين، والمازنى، وغيرهم، يمثل بالنسبة لنا "حركة" تدفع إلى النهضة، وتهيئ الجو».

قلت: قد يرجع الخلط بين «النهضة ـ اللفظ» و «النهضة ـ الواقع» إلى أننا لم نحاول أن نحدد مفهوم النهضة بعد، أليس كذلك؟

فقال د. الحبابى: «هذا صحيح، فالحق إن مفهوم لفظة "نهضة" فى حاجة إلى

تعريف دقيق، قبل مناقشته. وما دمنا لم نتفق على هذا التعريف سنبقى مختلفين دائماً، لأن كل واحد منا يتصور النهضة على شكل مخالف للآخرين. وبالنسبة لي فإن لفظة النهضة هي من "نهض" ينهض، النائم من نومه، والجالس إذا وقف وسار يمشي.. أي إنها فعل يفيد تحولاً ما، قد يُفضي ذلك التحول إلى انقلابات حضارية أو إلى مجرد خلق جو صالح للانقلاب، أو إلى إحداث فعالات في الأذهان، وفي الوعي القومي، وتخلق لغة جديدة لتكيف الذهن، وتسهم في سير التاريخ. لكن البعض - في المقابل - قد يعتبر النهضة مجرد شكليات تُضاف إلى ما كان أو تحذف مما كان. لذلك يجب علينا أن نُحدد العتبة الفوقية، والتحتية للنهضة كي نتفق على محتواها، ونستطيع أن نزن بميزان القسط نتائجها. ثم علينا أخيراً أن ننظر إلى عيوبنا بنظرة فاحصة، ونكف عن لعبة إخفائها.. تلك اللعبة التي مارسناها طويلاً.. طويلاً».

الفصل الخامس

صفحات مجهولة في تاريخ الفكر العربى الحديث..

- محمد عبده
- أمين الخولى
- زكى مبارك
- محمد فريد
- روزفلت وحافظ إبراهيم

ـ ١ ـ

محمد عبده.. أضواء على الرحلة

فى حياة الإمام "محمد عبده" صفحات مجهولة عديدة، منها منفاه الأول فى «بيروت»،فى ديسمبر عام ١٨٨٢. ولم تكن بيروت تمثل منفًى عادياً للإمام، مقارنة بما تعنيه وضعية منافى أخرى لقادة وزعماء مصريين. على أية حال لم تكن «بيروت» محمد عبده، هى "سيشل" سعد زغلول أو "سيلان" أحمد عرابى. إنما كانت إحدى محطاته الفكرية والثقافية الحيّة فى حياته.

وقد كان سبب نفى الإمام المباشر، مشاركته فى الثورة العرابية وموقفه المعلن معها، مما أغضب الخديو الذى وجه إليه اتهاماً بإفتائه عزل الخديو من الحكم. إذن نفى الإمام كان فى إطار الأحكام العامة التى شملت تشريد ونفى عدد من الزعماء والمفكرين المصريين، والقادة الذين شاركوا فى الثورة العرابية خاصة بعد إجهاضها، وعدم تحقيقها ما هدفت إليه، وقامت من أجله.

فى "بيروت":

استقبل «محيي الدين حمادة» رئيس بلدية «بيروت»، آنذاك، الإمام محمد عبده، استقبالاً رائعاً، ووفّر له مكاناً للسكن قريباً من بيته الخاص بحى «زقاق البلاط». وما

إن مرت أسابيع قليلة على إقامة الإمام فى «بيروت»، إلا وتحوّل منزله إلى مقرٍّ علمى وثقافي يفد إليه عدد غير قليل من طلاب المعرفة، في أعمار مختلفة. وكان الإمام يأخذ من وجودهم حوله فرصة للقراءة والتثقيف، فمثلاً يقرأ عليهم أجزاءً من «السيرة النبوية» فى شهر رمضان، ويحدثهم عن حياة الرسول (ﷺ) صحابة. ويتطرق كثيراً إلى قضايا العلم والفلسفة، فيناقش معهم «المنطق» وبعض رؤاه، وكذلك «علم الكلام» والفلسفة العربية.

فى تلك الفترة، كانت تيارات فكرية عربية ناهضة تسير جنباً إلى جنب وتحفز جهود الإمام محمد عبده فى لبنان، كذلك فى تركيا كان «مدحت باشا» يقود نهضة علمية تمتد بآثارها إلى بلاد الشام. تلك الجهود، التى بلورت، مجتمعةً، حركة فكرية ثقافية نشطة فى بيروت أواخر القرن التاسع عشر.

استمر الحال فكرياً وثقافياً على ما هو عليه من تأجج ونشاط دءوب لا يكل فيه الإمام "محمد عبده"، ولا يبخل عليه بجهده. إلى أن تلقى رسالة من باريس، أرسلها إليه "جمال الدين الأفغانى"، يحثه فيها على السفر العاجل إليه واللحاق به هناك، حتى يتعاونا سوياً فى إصدار «العروة الوثقى». تلك الجريدة (صدر منها ١٨ عدداً) التى كان لها كبير الأثر والصدى فى أرجاء العالم العربى والإسلامى آنذاك.

العروة الوثقى:

بعد وصول الإمام إلى باريس بعدة أيام، صدر العدد الأول من «العروة الوثقى» خارجاً من المنزل رقم ٦ شارع «مارتيل»، برئاسة تحرير السيد "جمال الدين الحسينى الأفغانى"، و"محمد عبده" كمحرر أوّل. وقد ضمت هيئة تحريرها فارسياً، هو "ميرزا باقر" كان يقوم بمهمة الترجمة وتحرير الأخبار الصحفية.

أثارت "العروة الوثقى" قضية «المسألة المصرية» ووضعية مصر تحت الاحتلال، وناقشت قضايا التحرر الوطنى والاستقلال فى مواجهة الاستعمار الأوروبى العسكرى لبلاد الشرق. وعُرفت قضية مصر فى ذلك الوقت، فى أدبيات مفكرى

"العروة الوثقى" بقضية "الأمة": ماضيها وحاضرها. أيضاً ركزت المجلة أيضاً على الإسلام وقضاياه، ودافعت عنه بوجه عام، ذلك الدفاع الذى جعلها تناشد "تركيا" (دولة الخلافة وقتئذ) صاحبة السيادة الشرعية على مصر، لتقوم بواجبها. وفى هذا الإطار كانت الجريدة ترى الدول الأوروبية المستعمرة ذئاباً مفترسة، وتعمل دائماً على فضح جرائمها، وأطماعها التوسعية والاستعمارية فى حق شعوب الشرق.

لم يكن من السهل على الاحتلال الإنجليزى بصفة خاصة ودول أوروبا بصفة عامة أن تتقبل صدور "العروة الوثقى"أو توافق على تداولها الطبيعى بين قرائها المعنيين، فى مصر خاصة. فقامت سلطات الاحتلال بوضع العراقيل والصعوبات أمام دخول الجريدة إلى البلاد المصرية. إلى درجة بلغت حد فرض غرامة على كل من يثبت عليه قراءتها، أو أنه يتصل فعلاً بأحد كتّابها.

هناك، إلى جانب ذلك، حدث خلاف فكرى يتعلق بأفق النضال وخططه المرحلية، والمستقبلية بين قطبى الجريدة "الأفغانى" و"محمد عبده". فالأول يرى ضرورة الاستمرار فى النضال السياسى المباشر، واستخدام العنف والمواجهة ما أمكن. والثانى يرى أن الثورة لا تؤتى ثمارها دون التربية عليها، وأن التمرد الفاعل لا ينفصل عن وعى المتمردين به، وأهمية "التثقيف" فى ذلك أهمية قصوى، من وجهة نظر الإمام "محمد عبده"؛ وقد دعته فكرته وحماسته لها أن يقترح على الأفغانى ترك العمل السياسى المباشر، واعتزاله، والذهاب إلى مناطق بعيدة ومختلفة يلقنان الناس فيها علمهما. حيث إن العمر الإنسانى محدود بطبيعة الحال. ولقد ظل "محمد عبده" يرى طوال حياته أن الضمانة الوحيدة لعدم ضياع الأفكار، هو تربية النفوس عليها وغرسها فى عقول النشء.

"بيروت"... مرة أخرى:

لقد كان هدف الخديو كما أشرنا هو إبعاد "محمد عبده" عن مصر، وعن الاتصال برفاق الفكر والطريق، وأن يعزله بعيداً عن تلاميذه، لذلك تركه يتحرك من

بيروت إلى فرنسا. وعاد مرة أخرى إلى "بيروت" بعد أن عرف هو و"الأفغاني"، أن لكل منهما طريقاً مختلفاً في الوصول إلى غاية التحرر والنهضة. وفي طريق العودة إلى "بيروت" مر الإمام ضيفاً على "تونس" لدى أحد وزرائها "خليل بو حاجب" زوج الأميرة "نازلي".. وفي تونس شعر بشوق شديد لمصر وشغف للاطلاع على أمورها. فزارها سراً، وأقام عند "على بك رفاعة" نجل "رفاعة بك الطهطاوي". وبعد أن أطمئن قلبه واستراح وجدانه برؤية التلاميذ والأصدقاء عاد إلى "بيروت".

وهناك، في شق الرحلة الثاني، ترجم "محمد عبده" رد "جمال الدين الأفغاني"، على الدهريين، من الفارسية إلى العربية. وخصص لتفسير القرآن ثلاث ليال أسبوعياً في مسجد "الباشورة".. ومن بعد، في عصاري رمضان الكريم في "المسجد العُمري" الكبير. ويذكر الأمير "شكيب أرسلان" أن هذا المسجد كان يعج بالسامعين، الذين احتووا في وسطهم عدداً من أبناء ديانات أخرى، بدأوا بالوقوف على الباب للاستماع، قبل أن يجربوا الانخراط بين جمهور السامعين من المسلمين بالداخل.

ولقد ظل التعليم (وقضاياه) يشغل حيزاً مهماً في ذهن الإمام "محمد عبده"، فراح يوليه الاهتمام عملياً، بأن قضى حياته يدرسُ ويعلّم أهلياً على طريقته. ونظرياً تبلورت رؤيته في التعليم في لائحتين وقعهما معه وجهاء "بيروت" ومفكروها قبل إرسالهما إلى "شيخ الإسلام" في "اسطانبول" (منصب ديني يوازي مفتي الديار الإسلامية)، بغرض وضع خطة لتنظيم التعليم والعملية التربوية في "بيروت" فالثابت أن التعليم لم يكن منفصلاً، من وجهة نظره، عن إصلاح حال الأمة، إذا ما رغبت في غد أفضل.

وعلى أية حال لم يكن الأستاذ الأمام "عيداً" عما يجري في مصر من أحداث، فقد كان "سعد زغلول"، المحامي الأول في مصر آنذاك، وتلميذ الإمام "محمد عبده"، يرسل إليه من مصر بالأخبار، وكافة ما يحدث، ويقوم الإمام بالتعليق على الأحداث وتحليلها في مقالاته التي كان يكتبها في مجلة "ثمرات الفنون"، وقد ناقش في عدد

من هذه المقالات الوحدة الوطنية بين "عنصرى الأمة"، الأقباط والمسلمين. وضمن جهوده العلمية وتواصله الفكرى والتربوى مع جهود بيروتية أخرى، قام الإمام بتدريس "نهج البلاغة" للإمام على رضى الله عنه، ذلك الكتاب الذى يعده المؤرخون ذا أثر كبير فى شخصية الإمام "محمد عبده" وتمتعه بصفات التراحم والعطف، والتكافل، واتساع الأفق.

العفو عن الشيخ:

بعد أن توسطت الأميرة "نازلى" لدى الخديو، وافق على عودة الإمام إلى مصر، ويقول الخديو فى هذا الأمر:«ماعفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار إلا هذا الشيخ». رغم أن الخديو لم يكفل للإمام "وظيفة" محددة تُعينه على الحياة، بعد عودته إلى مصر!!

حيث درَّس التفسير، وعلوم الدين بجوار أحد أساطين الأزهر، مؤمناً بأن "العلم هو ما ينفع الناس". وفى تعريفه العلمَ لأحد تلاميذه يقول "محمد عبده": «لست بعالم إن لم ينتفع الناس بعلمك. انفعْ بعلمك، تكن عالماً».

وبعد فترة شغل "محمد عبده" منصب قاضٍ شرعى، يقوم بالفصل فى النزاعات والقضايا بالعدل بين الجميع. وقد عرف عنه ذلك إبان توليه القضاء. وفى هذا الأمر له نوادر عديدة، منها أنه كانت تلازمه عادة أن يدفع بعمامته إلى الأمام، فتغطى جزءاً من جبهته حتى حاجبيه، ذلك قبل النطق بالحكم إذا كان يتضمن غرامة أو سجناً أو غير ذلك مما ليس فى صالح المتهم.. ولا يفعل هذه العادة إنما كان الحكم: براءة مثلاً.. وجرياً على تلك العادة التى اشتهرت، أصبح المتهم عارفاً لمصيره قبل النطق بالحكم. وذات مرة أثناء وقوف متهم فى القفص انتظاراً لحكم القاضى بعد التداول والتدقيق والنظر، علَّق عينيه على عمامة الشيخ، الذى ـ فجأة ـ بدأبهم بوضع يده على رأسه.. فى هذه اللحظة صرخ المتهم، قبل أن يحرك الشيخ يده للأمام أو للخلف وقال: «أنا فى عرضك يا سيدنا القاضى، خلى العمة مكانها،

سأعترف بكل شيء».

ولم يكن هذا الرجل مذنباً في واقع الأمر، وأخذ حكماً بالبراءة. وأصبحت قصة «العمامة» نكته تُروى في كل الأماكن والمناسبات.

المعروف أن الأمام "محمد عبده" كان توفى في منزله الكائن بحي "عين شمس" عام ١٩٠٥، وأوسد جسده تراب مصر وسط تشييع حشد من محبيه وتلاميذه وأقربائه الذين تجمعوا من كل حدب وصوب. ولم تكن مفاجأة لأحد أن يكتشف أن الأستاذ الأمام كان يتبرع براتبه (معاشه) من هيئة القضاء، ليوزّع على الفقراء والمحتاجين، فهو أقل تصرف يتماشى مع سيرة حياة الرجل وتاريخه الذى كان فيه ملكاً للآخرين.

-٢-
أمين الخولى.. ودحض العقل الغربى

كان الدكتور "غالى شكرى" على حق عندما قطع بأن الشيخ "أمين الخولى" قد أمضى فترة من حياته مغترباً في برلين، لكننى لم أكن مُخطئاً أيضاً عندما أجزمت بأن الرجل قد تنفس مناخ الغُربة فى روما.. فالثابت أن الشيخ "أمين الخولى" قد عاش فى هاتين المدينتين منذ أواخر عام ١٩٢٣ وحتى عام ١٩٢٧، وكان يتحرك فيهما مثالاً للمثقف العربى الذى يقف على أرضية صلبة من تراث عريق، لكنه يتطلع فى نفس تواقة، وعقل متفتح لمختلف أنماط العيش والتفكير من حوله.. ولذلك اعتبره بعض الكُتّاب امتداداً طبيعياً لقُدامى المغتربين فى أوروبا مثل "رفاعة رافع الطهطاوى" فى باريس، والشيخ "محمد الطنطاوى" فى سان بطرسبورج، و"جمال الدين الأفغانى" و"محمد عبده" فى باريس ولندن، ثم الدكتور "طه حسين" فى باريس. وقد ارتبطت رحلة الشيخ "أمين الخولى" إلى برلين وروما بصدور مرسوم ملكى فصدر فى ٧ نوفمبر عام ١٩٢٣، ينص على تعيين أئمة للسفارات المصرية الأربع فى لندن وباريس، وروما وواشنطن.. ثم أُختير "أمين الخولى" إماماً للسفارة المصرية فى روما، بينما اتجه "الشيخ عبد الوهاب عزام" إلى لندن والشيخ "محمد البنا" إلى باريس، والشيخ "محمد حلمى طبارة" إلى واشنطن.

أوروبا والاستشراق:

عندما ركب "أمين الخولى" البحر ويمم وجهه شطر أوروبا، بقلب وثّاب، ورُوح طموحة، كان قد ختم فى حياته فصلاً مهماً يُعرف بفصل "مجلة القضاء الشرعى" التى أسسها، وأشرف عليها، وكانت لسان حال دعوته الإصلاحية والتجديدية، التى ناصرها عدد كبير من التلاميذ أو «الأمناء» كما كان يُطلق عليهم فى ذلك الوقت. وقد

واصلت المجلة مسيرتها تحت إشراف "محمد إبراهيم الجزايرى" الذى، كتب فى افتتاحيتها إشادة بالدور الذى قام به السافر.. "أمين الخولى"، من أجل إنهاض المجلة، فقال: «نرى حقاً أن نعترف بالصنعية لربها، وبالفضل لصاحبه. فنذكر للزميل الأول أثره الخالد فى إنهاض هذه المجلة الفتية ناشطة تترسم أحسن المثل فى خدمة قضاء الله وشريعة رسوله.. لقد كان الأستاذ "أمين الخولى" محتسباً فى سبيل المجلة بكل عزمه وصبره فما تروعه العقبات الجابهة وانها لكثيرة، ولا يعبأ بالجهود المبذولة، وإنها لمضنية».

وفى روما عاش الشيخ "أمين الخولى" حياة جديدة، لكنها ثرية من مختلف جوانبها المعرفية، فشرع يتعلم اللغة الإيطالية حتى أجادها، ويطلق لنفسه عنان القراءة والتأمل، ثم يسجل ملاحظاته، ويتابع بدقة كافة الدراسات التى تصدر عن الشرق العربى والإسلامى خصوصاً فى الدوائر الأكاديمية التابعة بمقر البابوية، فضلاً عن دوائر الاستشراق فى الجامعات المدنية. ووضع عدة دراسات مهمة، اعتمدت بالأساس على كتابات المستشرقين الإيطاليين "لويجى رينالدى" والسنيور "جلستينو سيكابارتى" اللذين اتخذهما مرجعاً لبحثه القيم عن «المدنية العربية فى صقلية»، وقد نشره بعد ذلك فى مجلة "المقتطف".

وقد روى "أمين الخولى" جانباً من حياته الاغترابية فى مجلة "الأدب" التى ارتبطت باسمه فى مصر، بعد ذلك، فكتب يقول: «حين رحلت إلى أوروبا، واستقر بى المقام أول ما استقر فى روما، أو مدينة رومية العظمى، كما كان يسميها العرب قديماً، وهى مقر البابا وعاصمة الكاثوليكية، فقصدت إلى دراسة الخطط والأساليب التى تتبع فى الدراسة اللاهوتية. كما نظرت فيما حولى من الدول الدينية القائمة فى عاصمة الدول المدنية بإيطاليا.. وطال تتبعى لهذه الدراسات اللاهوتية فى أقطار أوروبية عشت فيها بعد ذلك كألمانيا، أو أقطار زرتها مجرد زيارة».

ثم يواصل "أمين الخولى" سرد بعض الأحداث التى عاشها فى روما، فكتب عن

ذلك بضمير الغائب:«وتابع صاحبنا ماجرى ويجرى من ذلك، وجعل يتميّز منه مايمكن أن تنتفع فيه الحياة هنا بالإسلام، سواء ماكان من ذلك في روما، أو في دول غيرها، تقيم الكليات اللاهوتية لدراسة الدين. وتابع إرسال تقاريره بذلك إلى مصر في تصميم وإصرار. فكانت تلك التقارير مما هش له التطور الاجتماعي الشرقي حيناً، وإن لم يكن أثره العملي واضحاً، لكنه شيء في الجو، يُسمع ويُنصت إليه بعض الأوقات..

كان "أمين الخولي" قد استشعر جحوداً من أهله أمام كل ماقدم من أعمال، فختم مقالته بعبارة تجمع بين الأسى، والثقة بالنفس تقول:«وذاكرة الزمن من وراء هذا كله لا تنسى شيئاً، ولا تضل أبداً.».

أياً كان الأمر، نستطيع أن نقول إن "أمين الخولي"، كان طوال سنوات غربته أشبه بالمراسل الصحفي أو العلمي لعدد من المطبوعات والصحف، التي كانت تصدر في مصر في ذلك الوقت، كالهلال، والمقتطف، يكتب إليها بانتظام، ويمدُها بآخر التقارير العلمية التي يطلع عليها بعد أن يُسجل تعليقاته ومناقشاته لأهم ماتضمنت من أفكار.. وفي برلين، التي لانعرف على وجه التحديد لماذا انتقل إليها "أمين الخولي"، واصل المشوار المعرفي نفسه، فبدأ بتعلم اللغة الألمانية، ثم اقترب من حركة الاستشراق الألمانية العريقة، واتصل بعدد من رموزها، وشرع ينظم وقته لكي يتمكن من متابعة إنتاجهم، ومراجعة أفكارهم الخاصة بالقرآن، والسنّة..

أمين الخولي قنصلاً:

لكن الطريف أن "أمين الخولي" كان قد اكتسب في روما خبرة أخرى لا علاقة لها بالبحث الأكاديمي وهي خبرة العمل القنصلي، فكان قد وضع لائحة لأعمال القناصل حتى أصبح حجة في هذا الميدان، كما أشرف - بحكم إمامته الدينية، وعلمه الواسع باللغة العربية - على التحرير العربي في القنصلية المصرية.. وهي مُهمة ليست سهلة أو هيّنة على كل حال، إذا وضعنا في الاعتبار أن معظم الموظفين آنذاك

(عام ١٩٢٦) كانوا من الأتراك الذين لا يجيدون اللغة العربية.. وقد شاءت أقدار "أمين الخولى" أن يقوم بعمل الملحق القنصلى والمحرر العربى لمدة ستة أشهر، وتحديداً عندما أحيل أحد الملحقين القنصليين إلى الاستيداع فى أعقاب خلاف نشب بين هذا الملحق، وبين سكرتير القنصلية فى برلين. ظل "أمين الخولى" يجمع بين الوظيفتين «الملحق والمحرر» حتى جاءه دبلوماسى فى مقتبل عمره يُدعى "عبدالخالق حسونة"، فترك له وظيفة «المُلحق» بعد أن دربه بنفسه على جميع الأعمال القنصلية..

ولا يجب أن ننسى ترصُّد شيطان البحث والفكر للشيخ "أمين الخولى" ناهيك عن استعداده كشاب (عمره فى ذلك الوقت لا يزيد على الثلاثين عاماً) لخوض معارك فكرية، يختبر فيها تحمله، وجلده فضلاً عن سعة علمه، ورجاحة عقله، وقوة حجته..

وفى هذا الصدد نذكر واقعتين، **الأولى هى**: إقدامه على نشر بحث بعنوان «شخصية مصر فى التاريخ» فى مجلة «دويتش مجازين»، التى كانت تصدر فى ثلاث لغات هى الألمانية والإنجليزية، والأسبانية، وقد أثار هذا البحث جدلاً واسعاً فى أوساط المستشرقين، لأنه يُعتبر صرخة عميقة فى وجه القائلين بأن مصر كانت مستعْبَدَة طوال تاريخها منذ سقطت دول الفراعنة..

وقد علقت تلميذته وزوجته الدكتورة "بنت الشاطئ" على هذا البحث الذى أشرفت على ترجمته إلى العربية، قائلة:«لقد ظل أمين الخولى طوال حياته يجاهد لإبراء تلاميذه ومواطنيه من عقدة النقص التى رسخها الاستعمار فى نفوسنا تجاه الغربيين. وكان الرجل فى رحلاته إلى أوروبا يتعامل مع الأوروبيين وهو يفرض عليهم كبرياء مصرى عريق، عمره فى التاريخ أكثر من سبعة آلاف سنة..».

ولعل الدكتورة "بنت الشاطىء" تعنى بذلك مواقفه من كتابات المستشرقين الذين عايشهم فى غربته التى امتدت نحو أربع سنوات فى إيطاليا، وألمانيا، أو الذين ناقشهم فى واحد من أكبر مؤتمرات الاستشراق، التى كان ممثلاً عن الأزهر فيها..

أما الواقعة الثانية: فقد دارت رحاها على صفحات مجلة «المُقتطف» في مصر، وهو مايعني أن "آمين الخولي" لم يكن رغم البعاد والغُربة، مقطوع الصلة بحركة الفكر في بلده مصر.. فقد حمل عدد فبراير عام ١٩٢٦ من مجلة «المُقتطف» مقالاً لإسماعيل مظهر بعنوان: «إسلوب الفكر العلمي في مصر. خلال نصف قرن».. انطلق فيه الكاتب من مقولة أو رأى شهير لعالم إنجليزى يدعى **مرتز**يقول فيه: «إن الحياة الكامنة في الأمم تتكون من مجموع الآمال الغامضة المُبهمة التي تجيش في صدور الآلاف من بني آدم، وهم عاجزون عن إقناع شهوتها أو التعبير عن حقيقتها والسقطات والهزائم التي تمر في عالم الحياة من غير أن يعرفها أحد أو يهتم بها إنسان. والرغبات التي تعيش في صدور الناس مُمتدة في سلسلة من التواصل والتتابع غير متناهية، أو تتشكل في صورة ما من صور حياتهم. والمحاولات التي يتشبث بها الناس ابتغاء الوصول إلى حل المشكلات العلمية التي يُمليها الطمع عليهم أو تبعث بها الحاجة في النفوس، وتلك الساعات الطويلة التي يُنفقها محبو العلم سُدى!! طمعاً في الوقوف على أسرار الطبيعة ـ جماع هذه المجهودات المخبوءة وراء أستار الحياة، هي التي تكوّن ذلك الهيكل الذي نسميه "فكر الأمة" ولا يطفو منه ظاهراً على سطح الحياة إلا جزء ضئيل بارز في صور الأدب أو العلم أو الشعر أو المنتجات المادية..».

ثم يواصل "إسماعيل مظهر" شرح فكرة الأستاذ **مرتز** فيقول على لسانه: «وقد اختصت بعض عصور التاريخ بقيام حركات فاصلة وحوادث عظيمة امتصت كل القوى العاملة النشيطة. واندمجت فيها كل العناصر العقلية والتخييلية وحتى أنك تجد تلك الحركات قد مضت مُستبدة بأمرها، إما لتُخضع كل القوى المنبعة في عصر ما. للعمل في سبيل إبراز غرض مُعين أو تثبيت فكرة بذاتها، وإما أن تلغيها وقد جرفت أمامها كل شيء إلى جو من التنازع والجلاد، يُوجِّه ـ بكل ما فيه من مختلف الصور والقوى ـ إلى تزكية الحادث الرئيسي الذي تلتف من حوله قوة الفكر، والعناصر».

وبعد أن يُورد "إسماعيل مظهر" في مقالته هذا النص من كلام "مرتز" ينطلق في عرض وجهة نظره التي لم تكن في مجملها سوى هجوم على الفكر المصري.. فيستهل حديثه، قائلاً:« لم يترك فتح نابليون من أثر بيِّن في تغير أساليب الفكر. ثم يتخذ من الأفغاني سبيلاً للنيل من الثقافة العربية، ذاكراً أنه تعلم الأساليب العلمية العتيقة التي عكف عليها العرب منذ القرون الوسطى. وهو بنزعته السياسية أشبه الأشياء في عصره بالهياكل الحفرية التي تعيش بيننا بجثمانها، وإن رجعت في تاريخها إلى أبعد العصور إيغالاً في أحشاء الزمن».

ولما كانت الثورة العُرابية مُرتبطة بالحركة الفكرية التي كان "الأفغاني" من مشاعلها، كما يقول الدكتور "كامل سعفان"، فقد خصَّ إسماعيل مظهر هذه الثورة بانتقادات عنيفة، فقال: «إن نظرة واحدة في الثورة العرابية كافية أن تُثبت لنا أن هذه الثورة كثورة سنة ١٩١٩ لم تمس من الحياة الكامنة في الأمة شيئاً. وأنها لم تتناول إلا ظاهر الحياة بآثار سريعة الزوال، كتلك الآثار التي تخطها يد الصبية فوق الرمال على شاطئ البحر، يكفي للذهاب بآثارها مدُّ موجة واحدة من موجاته».

وانتهى "إسماعيل مظهر" إلى نتيجة حتمية من وجهة نظره، تقول: «وإذا كانت الثورتان (١٩١٩، والعُرابية) تعبيراً عن فكر الأمة، وفكر الأمة في مصر نتاج الفكر العربي، فلابد من إهدار دم هذا الفكر الذي تعتبر المؤلفات الفلسفية والعلمية فيه مترجمات لا مُبتكرات...!».

رد من برلين:

وقد عرض د. "كامل سعفان" رد الشيخ "أمين الخولي" الذي أرسله من برلين، ونشرته «المُقتطف» في عدد إبريل عام ١٩٢٦، فقال: «إن مجمل ما ذكره أمين الخولي في دحض اتهام العقلية العربية الممثلة في "جمال الدين الأفغاني" جاء كالتالي: «إن هذه العقلية قد ورثها جمال الدين لتلميذه الأستاذ الإمام المرحوم الذي

كتب منذ حوالى ربع قرن عن حديث السنن الكونية ما كتب، حين تفضل بمناقشة صاحب كتاب فلسفة ابن رشد فى دعوى كهذه.. ولا يزال ما كتبه فى حكمته ومتانته خير صورة لأسلوب الفكر العلمى. ثم أحاله إلى ما قاله كُتّاب ومفكرون ــ مثل "سيديو"، و"لوبون"، وبعض أساتذة الجامعات الحديثة ــ عن العقلية العربية، مُشيراً إلى أنهم وضعوا قاعدة (جرب واحكم).. وبين له أن دراسى آثار العقل العربى يشكون مرّ الشكوى من إمعان القوم فى الأفكار وتقليب الفروض والمطالبة بالبرهان، حتى ينتهى الأمر إلى بديهته، ويرتكز على المشاهدة أو المسلمات العقلية، ولا تزال قواعد القوم فى البحث «أسلم منطقية وأمتن مما نرى الآن ونسمع».

وعرض "أمين الخولى" فى رده لدعوى اللاهوت فى الإسلام بأن "الإسلام إصلاح عملى حيوى لا يقدس شخصاً، ولا يتقيد بشىء، ويحض على نظر ما فى السماوات والأرض، ويجعل استعمال العقل شكراً لمانحه". وكشف "أمين الخولى" عن المؤلفات العلمية والفنية العربية التى اتُخذت أساساً لنهضة أوروبا، ولا يزال الكثير منها يُدرَس فى جامعاتها.

وختم "أمين الخولى" رده قائلا: «أمل أن ينقل الكاتب الفاضل ما قدمت بروح الحب للحقيقة وطلبها حيث كانت».

ويسجل مؤرخو هذه المعركة، أن "إسماعيل مظهر" كتب تعليقاً عنيفاً جاء فيه: «مهما كان يقينى فيما كتبت ثابتاً، ومهما كان اعتقادى فى صحة ما أرى فى أسلوب الفكر العلمى عند العرب راسخاً، فإننى لا أتوقع مطلقاً أن أُقنع به رجالاً عكفوا على أساليب المدرسة القديمة». وليس خافياً أن "إسماعيل مظهر" يقصد "أمين الخولى" كواحد، من هؤلاء، بعينه.

يبقى أخيراً أن أسجل انبهارى بالشيخ "أمين الخولى" الذى رسم طريقهُ الفكرى والإصلاحى والتجديدى فى وقت مبكر، ثم جاءت حياته بعد ذلك لتسير فى الطريق نفسها دون تردد أو تراجع.

ومما قرأته عن "أمين الخولى"، ولا أعتقد أنه سيبرح خيالى أو ذهنى فى يوم من الأيام، أنه فى حديث مع أحد أصدقائه حول قيمة "وجود" الإنسان فى الحياة، وضرورة فعاليته، تعاهد الصديقان على أنه إذا جاوز أحدهما الثلاثين، ولم يكن له عمل نافع وجب على الآخر أن يقتله!!

تُرى، لو طبق الأصدقاء بينهم تلك القاعدة التى تدل على ضرورة تحمل المسئولية والإيمان بقيمة الوجود، فكم من الملايين سيُقتل؟!.

ـ ٢ ـ
زكى مبارك .. مأساة عصامى تتكرر

يقولون: إن "زكى مبارك" قد لخّص سر مأساته، حين قال: «إن بنى آدم خائنون: تؤلّفُ خمسة وأربعين كتاباً، منها اثنان بالفرنسية. وتنشر ألف مقالة فى (البلاغ) وتصير دكاترة، ومع هذا تبقى مفتشاً بوزارة المعارف؟». وأقول: كلا، فهذا القول لا ينهض كسبب، من وجهة نظرى لتفسير مأساة هذا الكاتب الفحل! لأن السرّ الحقيقى ـ لمن شاء أن يعرف ـ يكمن فى طبيعة شخصيته القروية التى جُبلت على العصامية، والحساسية المفرطة لقيمة الكرامة كما يعرفها أبناء الريف فى مصر.

والحق أننا نظلم ذكاء "زكى مبارك" كثيراً إذا قلنا إن يده لم تقع على مفتاح الشهرة الرخيصة.. فما كان أسهلها فى ذلك الوقت على مثله ممن يعرفون بسعة الأفق، وغزارة العلم، وقوة البيان، لكنه رفض بإباء وعناد. إذ لم تكن يوماً المناصب الكبرى هى تلك الأمنية التى تشغل تفكيره، وتسلب لُبه.. فها هو يأبى أن يهنئ "طه حسين" بمنصبه فى وزارة المعارف بينما لم يتردد فى تهنئته عند صدور كتابه «الحب الضائع»، لأن حصاد الفكر ـ فى نظره ـ هو الأبقى، يقول: «أبيتُ أن أهنئ الدكتور "طه حسين" بمنصبه الجديد فى وزارة المعارف (منصب المستشار) لأنى كرهت أن يقاس الفوز بمقياس الوظائف، ثم سارعت فهنأته بكتاب "الحب الضائع"، لأغريه بالمضى فى هذه الطريقة من طرائق التأليف، ولأفهمه أنى لا أقيم وزناً لغير محصول الأقلام الجياد».

الشعور بالظلم:

إن ارتفاع "زكى مبارك" بقيمة العمل أو الإنتاج الفكرى إلى أعلى علّيين، لا يعنى أنه لم يشعر بالغبن الذى نال من قلبه وجسده على السواء، عندما لم يحظ بأى

منصب رسمي كبير. وليس أدل على صدق ذلك من هذه السطور التى كتبها قبل رحيله بعامين: «لم أنتفع بشيء، فحتى هذه السنة عام ١٩٥٠، وأنا أحرر فى الجرائد والمجلات، وأملأ الدنيا ضجيجاً، وأنشئ المدارس (أدبية وفلسفية)، وأنظم القصائد الجياد، ثم أرانى متخلفاً فى حياتى الرسمية». ونقول نحن على الفور.. يجب ألا نفصل بين هذا الطموح الذى تحسر "زكى مبارك" على عدم بلوغه، وبين شخصيته العصامية التى لم تعرف غير الجد والاجتهاد طريقاً لتحقيق الأمانى، وبلوغ المعالى، فها هو يذكر أنه لم ينقطع عن الدرس فى يوم من أيام الدراسة والأعياد، حتى أيام البواخر فى السفر - كان يقرأ فيها ويكتب. وبعبارة أخرى، يجب أن نميز بين طموح يلتمس فيه صاحبه كل أساليب النفاق والرياء (أو المسامحات على حد تعبير "زكى مبارك" نفسه)، وبين طموح آخر يحبس صاحبه فى البيت ليحفر بسنان قلمه ثقباً، يرى من خلاله أضواء العظمة والمجد، عساه أن يقنع الجميع بأنه رجل مجتهد، يستحق أن يعيش!

"الآخرون هم الجحيم":

ولعل من البديهيات القول بأن "زكى مبارك" كان من أصحاب هذا الطموح الأخير، فقد نال درجة الدكتوراه ثلاث مرات، الأولى فى اللغة من الجامعة المصرية القديمة عن أطروحة بعنوان "الإطلاق عند الغزالى" (١٩٢٤)، والثانية فى الأدب من جامعة باريس - السوربون، عن أطروحة بعنوان "النثر الفنى" (١٩٣١)، والثالثة فى الفلسفة من الجامعة المصرية الجديدة عن أطروحة بعنوان "التصوف الإسلامى" (١٩٣٧).

ولعل ما أحزنه بحق هو تجاهل النقاد والأدباء فى ذلك الوقت لكل إنجازاته العلمية والفكرية بما حوته من آراء نقدية جريئة وجديدة فى مجال النثر الأدبى والشعر. فهذا هو الدكتور "طه حسين" يتجاهل ذكر اسمه عندما يضطر للحديث عن كتاب "النثر الفنى" فيقول فى عبارة - الله وحده أعلم كم أنت "زكى مبارك" فى ضميره ووجدانه:

«أخرج كاتب من الكُتاب (يقصد "زكي مبارك") كتاباً من الكتب (ويقصد كتاب "النثر الفني")..» إلخ من مثيل هذه الطريقة. أما العقاد فلم يكن ينى يردد في صالونه وأمام تلاميذه ومريديه أن "زكي مبارك" «كاتب بلا شخصية، ولا طابع!».

كما لم يسلم "زكي مبارك" من لسان "عبد القادر المازني"، حيث أخذ عليه حديثه الدائم عن نفسه، فيقول: «إن زكي مبارك لو كفّ عن الكتابة عن زكي مبارك لما وجد ما يكتبه لنا بعد ذلك»! وفي هذا السياق تأتي مقولات أخرى تنسب إلى "زكي مبارك"، منها: «أنا الرجل الذي أعرف صاحبي في النعيم والبؤس، والمحضر والمغيب. أنا الرجل الذي أعرف معنى الصدق، وأفهم معنى الوفاء، وأجزم بأن الله خلقني خلقة نقية لا نظير لها ولا مثيل».

والحق إن الأدباء أنفسهم هم الذين دفعوه إلى أن يُسرف في الحديث عن نفسه، مُمعناً في ثقته بموهبته كاتباً وناقداً وشاعراً.. إذ كان كل ذلك - في تقديري - نتيجة مباشرة لإحساسه بالظلم، ودفعاً لمحاولات الآخرين الدائمة للتقليل من شأنه الأدبي. ولهذا لا نتعجب حين يقول: «إن أحزاني لا تحملها الجبال، إني رجل محزون، محزون. محزون. ولو شئت لكررتها ألف مرة، ولكني من أقدر الناس على الفرار من الأحزان». ثم يقول، وكأنه يرد على ظالميه وجاحدي فضله: «قضيت دهري بلا نصير، ولا مُعين، وسأظل كذلك طول حياتي لأقيم الدليل على أن الذي يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع، وستبيد أحجار الجامعة المصرية ويبقى كتاب "النثر الفني". فقد بادت المدرسة النظامية وبقيت مؤلفات الغزالي، لأن الفكر صورة من صور الله، والله حي لا يموت».

ثم تبلغ ثورة "زكي مبارك" مداها عندما تشتد عليه وطأة الشعور بالجحود والنكران، فيكتب يوماً: «لقدا ابتدأت حياتي الأدبية بأناشيد الحب والجمال، ولو خلاني الناس وشأني، لعشتُ بلبلاً وديعاً، لا يسمعون منه غير أنغام الحنين، ولكن لؤم اللئام حولني إلى إعصار عاصف، يمحق ما يصادف من اليابس والأخضر، والطير والحيوان».

ملامح شخصية:

أياً كان الأمر فإني أزعم أننا لن يكون بوسعنا أن نرسم أبعاد هذه الشخصية القوية التي تركت بصماتها بوضوح في تاريخ أدبنا العربي ـ رغم أنف الكارهين له ـ بدون معرفة جانبين أساسيين فيها، أولهما ينصرف إلى تلقائية هذه الشخصية ووضوحها. ويحسن بنا أن نترك «محمود تيمور» يصفها لنا: «إن وقفه واحدة لك مع "زكي مبارك" خليقة أن تُطهرك على كل شيء فيه. ما علن منه واستتر، لقد كان ينفض نفسه نفضاً، ويكشف عن جليته كشفاً، فيركز لك خصائص شخصيته، ويقدمها في سهولة ويُسر دون أن يرهقك في تعرف هذه الشخصية، واستبطان أسرارها والتفطن إلى ما فيها من طرافة أو شذوذ.. إنه كشكول حي مُبعثر، بل مسرحية مختلطة، فيها مشاهد شتى من مأساة وملهاة ومهزلة. أو لكأنه برج بابل: ملتقى النظائر والأضداد...».

ويعلم الله وحده، كم ذاق "زكي مبارك" الأمرين من جراء هذا الوضوح الذي تميزت به شخصيته، تلك التي لولا بقية من ثقة في معدنها الريفي الأصيل لتمرد عليها.. فلأمر ما كان لا يكف عن ذكر جوانب نبوغه وعبقريته. كتب ذات مرة يرد على أحد الكتّاب عندما نعاه إلى القراء، ولم يكن قد مات: «أنا أموت! إنكم مخطئون. لن يذهب من الوجود غير هذا الهيكل الذي يزرع الأرض من سنتريس (وهي القرية التي ولد فيها في ٥ أغسطس عام ١٨٩١ بمحافظة المنوفية) إلى باريس. أما زكي مبارك الكاتب والشاعر فلن يذهب أبداً، وستبقى أفكاري. سأعيش ألوفاً من السنين، وسأغزو خلق الله بغير رفق، فأثير فيهم معاني الشر والإثم والطغيان. ففي رسائلي وأشعاري أقباس الهدى والضلال..!».

وإذا كان الجانب الأول يتساوى فيه "زكي مبارك" مع أهل القرية البسطاء الذين لا يحملون في قلوبهم غير الطهر والنقاء، ففي الجانب الثاني نجده يقف جنباً إلى جنب مع "سوبر مان" نيتشه الشهير، حتى أنه يتحسر على أن عمره الإنساني

المحدد لن يمهله لكي يقوم برسالته الخاصة بإسعاد البشر.. فيقول: «سآسى عليكم يا بني آدم حين أموت، فقد كان في نيّتي أن أسعى لتحقيق فكرة السوبرمان لتعيشوا في دنياكم عيشة شاعرية، ولكن ماذا أصنع وأنا كما تعلمون لا أملك فسحة الأجل ولا طول البقاء». ثم يستطرد: «سأتحسر يوم أموت على ضياع الثورة الشعرية التي تموج في قلبي ووجداني، ولن يكون لي إلا عزاء واحد هو أن الله شاء أن يحرم العالم من رجل كله قلب ووجدان، لأن العالم لا يستحق أن يحيا فيه قلبٌ مثل قلبي، ولا يستأهل أن يكون فيه رجل يملك ما أملك من عظمة النفس وقوة الروح. والعالم من بعدي هباء في هباء».

ولعل إحساس الدكاترة "زكي مبارك" بالضعف في دفع ما وقع عليه، أديباً وناقداً ومجدداً، من ظلم وجحود هو الذي جعله يتوغل في فلسفة "نيتشه" صاحب السوبرمان، ليؤمن بأن القوة وحدها هي مفتاح السعادة.. فها هو يكتب ذات يوم متحدثاً عن نفسه وأولاده، فيقول:«قد أموت.. فما هي وصيتي إلى أبنائي؟ وصيتي إليهم أن يتخلقوا بأخلاقي العملية، لقد عودت أطفالي أكل اللحم في كل يوم لينشأوا على قوة الحيوان المفترس، فإن لانت نفوسهم بعد ذلك فعلى أنفسهم جنوا، وللضعيف الضيم والهوان».

ويستطرد الرجل، فيقول:«أترونى أبكي أطفالي يوم أموت؟ هيهات.. لقد ورّثتهم خير ميراث حين ربيتهم على العنف والقسوة، وحين أفهمتهم أن العالم لايسعد فيه غير الأقوياء، فإن تسلحوا بالقوة انتفعوا، وإن استسلموا للضعف فعليهم ألف لعنة، وأنا منهم بريء».

ومما لا شك فيه أن هذه الوصية تُعتبر "وثيقة" في حياة زكي مبارك وأدبه، إذ تنم عن مدى شعوره بالوحشة والاغتراب الروحي الذي يعذبه ويضنيه.. كما تبين طبيعة روحه التي تبغض الهدوء والسكون باعتبارهما ضرباً من ضروب الموت. ولعل ذلك هو ما دفعه إلى خوض مساجلاته ومعاركه الأدبية العنيفة لإثارة الحيوية والنشاط في الحياة الأدبية.

الملاكم الأدبي:

لقد كان "زكي مبارك" عنيفاً في معاركه، حتى أن "أحمد حسن الزيات" صاحب "الرسالة" قد وصفه بـ "الملاكم الأدبي" .«الذي بُحت صفارته من طول ما أهابت به، وهو في قفازه السنتريسي (نسبة إلى قريته سنتريس) يهدر في المجال بين الحبال، دون التزام بقواعد الملاكمة الصحيحة».

ولعل المثال الصارخ لهذا العنف الذي تميزت به معاركه هو معركته مع "طه حسين" إثر فصل الأخير له من الجامعة، وجاء في مداخلته معه: «لقد ظن طه حسين أنه انتزع اللقمة من يد أطفالي. فليعلم حضرته أن أطفالي لو جاعوا لشويت "طه حسين" وأطعمتهم لحمه، ولكنهم لن يجوعوا، مادامت أرزاقهم بيد الله».

إن هذه المعركة التي سُميت، فيما بعد بمعركة "لقمة العيش" قد افقدت "زكي مبارك" الثقة في كل أصدقائه، حتى أنه كتب ينعى الصداقة والأصدقاء: «كنت أجد للدنيا طعماً قبل عشر سنوات يوم كان لي أصدقاء وأحباب، ثم مرت أحداث تبين فيها أن بني آدم لا يرعون العهد ولا يحفظون الجميل. وأصبحت وأنا موقن أني أعيش في مسغبة لا ألفة فيها ولا صفاء، ولعل الله أراد بي خيراً فأراني مصارع ما أحب من المعاني، حتى لا يبقى لي يوم الموت شيء أبكيه. ولماذا أبكي؟ لقد استرحنا من عتاب الأصدقاء، وأين الأصدقاء؟!».

المأساة تتكرر:

لاشك أن مأساة الدكاترة "زكي مبارك" قديمة حديثة، تتكرر في الواقع الثقافي والفني الذي يجعل العلاقات الشخصية المبنية على المصالح والنفعية معياراً رئيسياً في إعلاء قيمة كاتب أو مبدع أو فنان، وخفض قيمة آخر حتى وإن كان مجيداً. وتكتمل فصول مأساته إذا علمنا أن سوء حظه قد لازمه في حياته وبعد مماته. ففي حياته لم يعترفوا بفضله في دنيا الأدب والفكر كما أسلفنا، كما ضنوا عليه حتى بوظيفة كتلك التي يشغلها فارغو القلب من الحياة. وفي مماته كان سيئ الطالع، فقد

لفظ أنفاسه الأخيرة يوم (٢٣ يناير ١٩٥٢)، وبعدها بأيام معدودة، قبل أن تتأهب الأقلام لتبين مدى الخسارة التى لحقت بالأدب العربى لفقده، احترقت القاهرة يوم ٢٦ يناير من نفس العام.. وضاعت فى غمار الهول والكارثة إمكانية إنصافه، وطوى النسيان ذكراه إلا من بعض مبادرات فردية وسريعة هنا وهناك.

وعندما تنبهت وزارة الزراعة ـ كما يقول الأديب "عبد العال الحمامصى" ـ فى عام ١٩٧٧، إلى مضى ربع قرن على رحيله، قررت أن تحتفل بذكراه فى قريته "سنتريس" إلا أن أحداث ١٨ و ١٩ يناير حالت دون ذلك.. وكما شبت الحرائق بعد رحيله، شبت قبل الاحتفال بذكراه.

إن مأساة هذا الرجل لا ينهض لتفسيرها غير سر واحد هو كرهه للنفاق، حيث أدرك أنه أخطبوط يمد أذرعه إلى كل مكان وفى كل شىء، حتى فى دنيا الأدب والفن والفكر! وكان عسيراً على نفسه الرقيقة، وهو شاعر الحب والجمال، أن تقبل هذا المنطق الأعوج فأصابته أزمة عقلية وصفها قائلاً: «ساءت أحوالنا منذ اليوم الذى تأكدنا فيه أن الرياء هو سيد الأخلاق. فمن يبيعنى مثقالاً واحداً من الرياء، ويأخذ من أموالى ما يشاء؟! أنا فى أزمة عقلية لو سلطت على جبل راسخ لحولته إلى رماد تذروه الرياح. وأكاد أصعق من الخوف، كلما توهمت أنى قد أنهزم فى محاربة الرياء والنفاق».

وبعد أن يصرح "زكى مبارك" بأن قولة الحق لم تبق له صديقاً، لخص معاناته الضخمة فى عبارة، أعتقد أنها تحمل كثيراً من فلسفته فى الحياة، فضلاً عن كونها مفتاحاً لسر مأساته.. ألا وهى «إن الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق فهو يعلن فى كل وقت أنه من الضالين المضلين».. وكان يرى دائماً أنه لو كشف الإنسان عن سريرته كما يكشف الشيطان عنها، لأصبحنا جميعاً من الملائكة. رحم الله "زكى مبارك" رحمة واسعة.

ـ ٤ ـ
محمد فريد.. الجثمان الحائر

نحن المُغتربين نعيشُ هموماً كثيرة من بينها هموم حالات الوفاة التي قد تحدث لبعضنا ـ فالموت مُدركنا ولو كنا في بروج مُشيدة ـ ونواجه مع كل حالة، عقبة نقل الجثمان إلى أرض الوطن. وبينما كنت أتأمل الغربة وهمومها، وجدتني شديد التعاطف مع حادث يفصلنا عنه اليوم ثمانون عاماً، وهو حادث وفاة الزعيم المصرى "محمد فريد" في ١٥ نوفمبر ١٩١٩.. داخل مصحة الدكتور "ستوكمان" الواقعة في شارع مارتن بمدينة "برلين" في ألمانيا. حيث تعرض جثمان الزعيم إلى كل ما يتعرض له جثمان مصرى يموت في الغربة بعيداً عن الأهل والوطن من إهمال، إذ ظل محفوظاً في تابوت بإحدى الكنائس القريبة من مقابر المسلمين في برلين طوال سبعة أشهر، دون أن تتحرك هيئة رسمية من هيئات الدولة المصرية في ذلك الوقت لإعادة الجثمان، وإعطائه ما يستحق من تكريم جزاء ما قدم لمصر وشعبها من نضال أنفق فيه كل عمره وما يملك!!

والغريب العجيب أن «التحرك» لم يأت إلا من قبل تاجر مصرى يعيش في مدينة الزقازيق بمحافظة الشرقية، يُدعى الحاج "خليل عفيفي"، تحرك الرجل بعد أن علم أن الوفد المصرى لم يستجب لدعوة الكثيرين حين طالبوه بأن ينهض بأعباء إعادة جثمان هذا الوطني المصرى الصميم ـ محمد فريد ـ إلى أرض الكنانة. وكان الأمل أن يعتني الوفد بحالة "محمد فريد"، مثلما اعتنى بنقل برفات اثنى عشر طالباً مصرياً توفوا في حادث اصطدام القطار الذى كان يقلهم على الحدود الإيطالية ـ النمساوية في مارس من عام ١٩٢٠.

"خليل عفيفي": أمة في فرد:

يروى "عبد الرحمن الرافعي" هذه الواقعة مستنكراً، فيقول: «قد يأخذك الدهش

من أن يقوم بهذا الواجب عن الأمة بأسرها فرد ليس من الزعماء، ولا من الرؤساء والكبراء. وكيف لم يتسابق هؤلاء إلى القيام بهذا العمل، وهم أجدر به من سواهم. ولكن هكذا قدر أن يكون الحاج "خليل عفيفى" هو الذى يضطلع بهذه المهمة السامية الجليلة، فبرهن على أنه كبير فى نفسه، كبير فى وطنيته. وقد تطوع إليها من تلقاء نفسه غير متأثر بإيعاز أحد أو ملبياً دعوة أحد، بل لبى دعوة ضميره، ورأى أنه لا يليق أن يبقى جثمان الزعيم العظيم بعيداً عن مصر».

المؤسف أن هذا الموقف المخجل من جانب مصر والمصريين فى ألمانيا إزاء جثمان الزعيم "محمد فريد" لا يزال يتكرر مع حالات الوفاة فى الخارج التى تحدث فى أيامنا هذه رغم مرور أكثر من ثلاثة أرباع قرن على تلك الوفاة والعجيب هو استمرار السلوك المهين نفسه.. ففى كل مرة، تصعد روح أحدنا إلى بارئها، نجد أنفسنا نحن أبناء الجالية المصرية فى باريس "فى حيص بيص" لا ندرى ماذا نفعل، ولا أى طريق نسلك، اللهم إلا مد اليد طلباً أو بالأحرى استجداءً للعون والمساعدة!! ولا تعرف المؤسسات الرسمية المختصة بهذه الأمور أن سلوكيات من هذا النوع تراكمت تاريخياً، لتساهم فى إفراغ صورة المصرى من أى معنى حضارى ومن أية قيمة. لقد صورت هذه السلوكيات المصرى بلا كرامة، وقللت من شأنه فى نظر أبناء البلاد الأخرى.

وقد يقول قائل: إن الزعيم "محمد فريد" كان محظوظاً لأن تاجراً بسيطاً مثل الحاج "خليل عفيفى" كان لايزال يحتفظ فى صدره بقيم الشهامة والنبل.. تلك القيم التى خلت منها صدور الكثيرين وأرواحهم فى أيامنا هذه. فانطلق هذا المصرى البسيط يلبى نداءً وطنياً صادراً من أعماقه، فينهض بمسئولية أمة بكاملها. وهو غير عابئ بالجهد أو المال الذى سيتكلفه.

وهذا القول السابق، صحيح إلى حد كبير، سيما إذا علمنا أن أغنياء المصريين كانوا يملأون أوروبا فى ذلك الوقت، سواء فى نزهات أو زيارات عمل، وكان بعضهم

يلتقى بالزعيم "محمد فريد" على نحو ما يروى هو نفسه فى "مذكراته فى الهجرة"..
لكنه عندما سقط، دخل كل هؤلاء الأغنياء إلى الجحور! ولم نجد سوى "ابن الزقازيق" البار الذى مسح عن الأمة الحزينة دمعتها، وحمل رفات زعيمها من وراء البحار لينام فى أرضها، مطمئن النفس بعد أن هدّه الفراق، وأعياه الجحود، ونال من روحه الرقيقة النكران!

مهمة شاقة:

والحق أن مهمة "الحاج خليل" لم تكن سهلة، لأن أحداً لم يساعده إلا بشق الأنفس، وبعد طول عذاب.. فحصل كخطوة أولى على ترخيص من الحكومة المصرية يسمح له بنقل الرفات إلى مصر، ثم أبحر من "الإسكندرية" يوم الجمعة ٥ مارس عام ١٩٢٠ قاصداً "برلين" عن طريق فرنسا. وما كاد أن يصل باريس، حتى علم بنشوب ثورة تعرف بثورة الدكتور (فون كاب) ببرلين، فأقام بباريس نحو خمسين يوماً حتى استقرت الأحوال فى العاصمة الألمانية. ثم سافر إليها فوصلها يوم ٢٨ أبريل.. وهناك واجهته عقبات جديدة، منها أن الحكومة الألمانية أصدرت قانوناً قبل عدة أسابيع من وصوله يقضى بعدم جواز نقل جثث المتوفين من ألمانيا إلى بلاد أخرى. فسعى الحاج خليل لدى الحكومة الألمانية آملاً أن تأذن له بتحقيق أمنيته.

ويذكر "عبد الرحمن الرافعى" أن الدكتور "عبد العزيز عمران"، و "إسماعيل بك لبيب"، وكانا من أصدقاء الزعيم "محمد فريد"، ورافقاه طوال رحلة العلاج، لم يترددا فى مساعدة الحاج خليل إلى جانب تاجر مصرى آخر كان يقيم فى برلين فى ذلك الوقت، ويدعى "محمد افندى سليمان". لكن من المصادفات التى تحدث فى الحياة فتختصر الطريق والجهد، ما حدث خلال إقامة الحاج خليل فى برلين من أن الحكومة الفرنسية طلبت من ألمانيا الترخيص لها بنقل جثمان ضابط فرنسى مات مؤخراً بها. فأذنت لها الحكومة الإلمانية بنقله على سبيل الاستثناء. فاستند الحاج

خليل إلى هذه «السابقة» وكرر رجاءه وسعيه للحكومة الألمانية أملاً أن تأذن له بنقل جثمان "محمد فريد" أسوة بالفرنسي المتوفى.. ثم تشاء الأقدار أن ينجح «الرجل الطيب» في مسعاه. ويصدر له الإذن بذلك.

هل انتهت العقبات؟ كلا. إذ كان لابد أن يستصدر إذناً من حكومة النمسا بالسماح له بمرور الرفات من أراضيها. وكذلك الحال مع الحكومة الإيطالية لكي يبحر الرفات من ثغر "تريستا".. وبعد صبر جميل. تم للرجل ما أراد، واتفق المصريون المقيمون في برلين ـ حسبما تروى وثائق هذه المرحلة ـ على الاحتفال بتشييع الزعيم إلى محطة برلين. وقد نُقل الرفات بالفعل يوم الجمعة ٢١ مايو عام ١٩٢٠ إلى المحطة في جنازة سار فيها جميع المصريين المقيمين بها. ووضع في عربة خاصة بالقطار. فسار به إلى "تريستا" حيث أقلته الباخرة "حلوان" التي أبحرت يوم ٣ يونيو ١٩٢٠ قاصدة الإسكندرية، فوصلتها صباح يوم ٨ يونيو من نفس العام.

وكان "الحاج خليل عفيفي" قد أبرق إلى الصحف المصرية بنبأ قيام الباخرة، فاستعدت الأمة لاستقبال جثمان الزعيم "محمد فريد" وتشييع جنازته في الإسكندرية والقاهرة، وتألفت بالإسكندرية لجنة برعاية الأمير "عمر طوسون" للاحتفال بالجنازة عند وصول الجثمان.

رسالة الوداع:

وبذلك يكون "الحاج خليل" قد حقق أمنية عزيزة على أمة بأكملها، تقاعس عنها كبراؤها، لكنه في ذات الوقت حقق أمنية للفقيد الذي كان ـ قبيل وفاته بقليل ـ على حافة المجاعة بعد أن أنفق كل ما يملك، وتنكر له من توسم فيهم النخوة والشهامة من أغنياء مصر الذين كان يظنهم "رفقاء الطريق"!.. والأمنية هي أن يُدفن في تراب مصر.. إذ تروى الوثائق أن "محمد فريد" عندما لمح الموت يقترب منه، قال لمن حوله: «إنني أنا، وأولادي وكل عزيز لديَّ فداء لمصر، لقد قضيت بعيداً عن مصر سبع

سنوات. فإذا مُت فضعوني في صندوق واحفظوني في مكان أمين، حتى تُتاح الفرصة لنقل جثتي إلى وطني العزيز، الذي أفارقه وكنت أود أن أراه..» وكأني بهذا الرجل العظيم كان يعرف أن أجله المحتوم سوف يوافيه بعيداً عن وطنه. فكتب قبل شهرين من وفاته رسالة، يحلو للمؤرخين أن يطلقوا عليها اسم «رسالة الوداع» يصوغ فيها من أوجاعه ومعاناته كلمات حب وعشق كبيرين لمصر، منها: «إخواني المصريين الأعزاء.. إن الصوت الذي يناجيكم اليوم لصوت منعته الظروف عن الارتفاع في صحف مصر من نحو سبع سنوات.. ولكن منعه عن الارتفاع على ضفاف وادي النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية في عواصم أوروبا سواء قبل هذه الحرب وإبانها أو بعدها..

إن صوت هذا الضعيف لم يخفت يوماً واحداً ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين، بل كان يزداد قوة ونشاطاً، كلما تراكمت أمامه الموانع وتكدست العقبات. ويختم رسالته التي كتبها على سرير المرض بمدينة "تريتيه" بسويسرا، حيث كان يعالج في ١٤ سبتمبر ١٩١٩، قائلاً: «سلام عليك أيها الوطن المفدى! سلام على النيل وواديه. سلام على الأهرام وبانيه. سلام على خدام مصر المخلصين.. سلام على شهداء الحرية..».

ثم توقفت الحياة في قلب الزعيم "محمد فريد" في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم السبت ١٥ نوفمبر عام ١٩١٩.. وهذه - على كل حال - صفحة مهمشة ومجهولة من تاريخه، أنقلها لدلالتها القوية، وإشاراتها الملفتة.

-٥-

روز فلت يتهم..
وحافظ إبراهيم يتهكم!

يُذكرني اسم «فرانكلين روز فلت» الذى تحمله محطة المترو الباريسى التى يقع بالقرب منها مكتب «الأهرام» - بحادثة أثارت كثيراً من اللغط الوطنى فى مصر قبل نحو خمسة وثمانين عاماً.. وهى أن الكولونيل "تيودور روز فلت" (وليس فرانكلين روز فلت) كان قد زار مصر عن طريق السودان، فى مارس عام ١٩١٠ وألقى كلمتين، أو على حد التعبير الشائع فى ذلك الزمان ألقى خطبتين سياسيتين الأولى بمدينة الخرطوم تعرض فيها للاحتلال البريطانى لمصر والسودان، فأثنى على فكرة الاحتلال ذاتها، ومجّد القوات البريطانية الموجودة على أراضى الدولتين، ودعا الشعبين المصرى والسودانى إلى الخضوع لهذا الاحتلال..

أما الخطبة الثانية، فقد ألقاها بالجامعة المصرية، ونال عليها لقب دكتور.. منحته إياه - كذباً ونفاقاً - إدارة هذه الجامعة فى ذلك الوقت وتحدث فيها عن حركة المطالبة بالدستور التى كانت على أشدها فى مصر آنذاك.. وتذكر وثائق هذه الفترة أن "روز فلت" قال بالحرف الواحد: «لا يمكن تربية الفرد تربية حقيقية بتلقينه بعض العلوم، كما أنه لا يمكن إعداد شعب للحكم الذاتى بإعطائه دستوراً على ورق، لأن تربية الأمة.. ليست مسألة عشرة أعوام أو عشرين، بل هى مسألة أجيال متتابعة».

واسترسل يقول: «إن بعض الجهلاء يعتقدون أن منح الأمة دستوراً على الورق، وبخاصة إذا كان مُفتتحاً بعبارات ضخمة، من شأنه أن يمنح الأمة قوة الحكم الذاتى مع أن شيئاً من ذلك لا يكون مطلقاً».

وفى مذكراته يروى الخديو "عباس حلمى" الثانى، الذى حدثت هذه الواقعة فى

عهده أنه همّ بالرد وتوجيه اللوم إلى "روز فلت" إلا أنه فوجئ بأن جوقة النفاق وكانت تضم عدداً من الشخصيات ـ الرموز في مصر، قد ارتفع صوتها عالياً، فأخذ بعضهم يردد بإعجاب شديد ما قاله "روز فلت". فطعنوا ـ دونما خجل ـ في صلاحية أمتهم ـ الأمة المصرية ـ لأن تحكم نفسها بنفسها، وقالوا: إن الحرية الحقيقية هي حرية البحث عن الرزق!

لكن، على الجانب الآخر، تجمع عدد كبير من شباب مصر، وكتبوا عريضة باسم "الحزب الوطني" في ٢٩ مارس من العام نفسه (١٩١٠) تضمنت استياءهم الشديد من عبارات روز فلت التي أراد بها تثبيط همم الشعب المصري، والتشكيك في قدرته على مواصلة النضال من أجل الحصول على الدستور.. وتم إرسال صورة من هذا الاحتجاج إلى عدد من الصحف الأوروبية الكبرى.. ثم قاد الزعيم "محمد فريد" مظاهرة، يرفرف عليها العلم المصري ـ على حد تعبير "عبد الرحمن الرافعي" ـ واتجه الجميع إلى فندق "شبرد" الذي كان يقيم فيه الكولونيل "تيودور روز فلت"، وهتفوا بسقوطه ونادوا بحياة مصر، والاستقلال، والدستور..

روزفلت يكره مصر

هذا ما كنت أعرفه عن حادث "روز فلت" في مصر، لكن لأن عيني تقع على اسم روز فلت صباحاً ومساء أثناء مروري كل يوم من محطة المترو، وجدتني أطرح على نفسي عدة أسئلة حول حقيقة موقف هذا الرجل ـ أقصد الكولونيل تيودور روز فلت ـ من مصر، وهل كان هذا الموقف المحابي لإنجلترا، هو مجرد مجاملة، من جانبه كأمريكي.. أم أنه موقف متأصل في نفسه.. وما هي أسباب ذلك؟

وأمام إلحاح هذه الأسئلة، شرعت أقلب في بعض وثائق هذه المرحلة المبكرة من تاريخ مصر المعاصر، فتبين لي أن "تيودور روز فلت" كان يصر على موقفه الذي يعتبر فيه الشعوب الأخرى، ومنها الشعب المصري ـ لم يبلغ الرشد بعد، ولذلك فهو

فى حاجة إلى شعب آخر أكثر حنكة ودراية. يتولى أمره، ويسوسه.. فها هو "روز فلت" ـ حسبما ذكرت صحيفة «المقطم» الصادرة فى ١٠ يونيو عام ١٩٠١ ـ يزور إنجلترا، ويلقى خطاباً فى مبنى بلدية لندن يُشدد فيه على ما سبق أن قاله فى مصر.. فيقول مُخاطباً الإنجليز: «لستم فقط خفراء على مصالحكم فى مصر، بل خفراء على مصلحة المدنية عامة. فقدمتم لمصر أفضل حكومة رأتها منذ ألفى عام، وربما أفضل حكومة رأتها منذ بدء التاريخ. لأن التاريخ لم يذكر مطلقاً أن الفلاح المصرى كان يُعامل بمثل ما عُومل به منذ الاحتلال الإنجليزى من العدل والرحمة، تحت حكومة خلت من كل فساد وهمجية»! ولم ينس "روز فلت" أن يشهّر بمصر وشعبها، مُستغلاً فى ذلك حادث اغتيال "بطرس باشا غالى" على أيدى شاب وفدى متحمس، فيستطرد فى خطابه قائلاً:

«غير أن الحوادث الأخيرة ولاسيما حادثة مقتل "بطرس باشا غالى" بما تَقَدَّمها ورافقها، وجاء بعدها من حركات ونزعات تدل دلالة واضحة على أنكم أخطأتم فى بعض نقاط حيوية بحيث تصنعون حسناً إذا أصلحتموها. وما كان هذا الخطأ لأنكم أفدتم المصريين قليلاً، بل لأنكم أفدتموهم كثيراً. ولكن مصلحة المدنية تقضى ـ لسوء الحظ ـ علينا جميعاً أن نعامل الشعوب غير المتمدينة، ولا سيما الشعوب المتعصبة معاملة غير مألوفة عندنا، متذكرين على الدوام بأن معاملة الرفق واللين والضعف فى مركز كمركزكم فى مصر يضر بأكثر مما تضر معاملة الشدة والظلم. وليس بين العصا المرضوضة التى يتوكأ عليها العدل والحق، ما هو أضعف ولا أسهل كسراً من عصا اللين!».

وختم "روز فلت" خطابه قائلاً للإنجليز: «إنكم مُقيمون بمصر لعدة أغراض من أعظمها خير الأمة المصرية. وقد أنقذتموها من الخراب بدخولكم إلى بلادهم فإذا لم تحكمها أمة من خارج بلادها عادت تتمرغ فى حمأة الفوضى. فلا بد لأمة من أن تحكم مصر. وأملى واعتقادى أن رأيكم يقر على أنه يجب عليكم أن تكونوا تلك الأمة».

لا.. للعصا الغليظة:

وهذا الخطاب يكشف إلى أى مدى كانت عقلية هذا الرجل "تيودور روز فلت" عقلية استعمارية، استعلائية، متعصبة، ولعله كان من رواد النزعة العنصرية التى ترى أحقية جنس من الأجناس فى العيش، والسيطرة، بينما الأجناس الأخرى، ليس لها سوى الإذعان والخنوع والذلة.. وهذا هو ما ألح عليه عندما طلب إلى الإنجليز فى (الخرطوم والقاهرة، ولندن) أن يُحكموا سيطرتهم على شعب مصر، وأن يستبدلوا سياسة الرفق واللين بسياسة الغَلظة والوحشية، وألا يستشعروا ندماً أو ذنباً فى ذلك، "لأن الشعب المصرى لا تُجدى معه سوى العصا الغليظة!".

وتذكر وثائق هذه المرحلة أن أقوال "روز فلت" كانت كالزيت الذى أضيف إلى النار (الوطنية) فزادها اشتعالاً. فانبرت الأقلام المصرية تكتب، كما شعر شباب مصر بالإهانة، فقابله بعضهم فى محطة الرمل بمدينة الإسكندرية، وهو فى طريقه ليستقل الباخرة، بالهتاف، والاحتجاج.. كما تحمس بعض شباب المحامين، فكتبوا رسالة باللغة الفرنسية، نشرتها صحيفة "الشعب" بعد تعريبها فى عدد أول أبريل عام ١٩٠١. جاء فيها «إن الرأى العام المصرى قد استاء من ترهات "روز فلت"، الذى حكم حُكماً قاسياً على كفاءة مصر الدستورية دون أن تسبق له معرفة بصفاتها، ولم يزرها إلا بضعة أيام لم يختلط فيها إلا بأعداء الحركة الوطنية». وتُشير الرسالة إلى أن مصر كانت تتمتع «بالمجلس النيابى» حتى وقعت حوادث الاحتلال المُحزنة فى عام ١٨٨٢ فقضى عليه.. وهو ما يعنى أن مصر دولة دستورية من قديم الزمن. ثم تذكر الرسالة أن الحرية حق يستمد وجوده من الفطرة، وكل أمة فى الوجود تستحق أن تتمتع بها، فما بالك ـ يا سيد "روز فلت" ـ بأمة كانت فى طليعة أمم الشرق، تمتعاً بالدستور، أمة أعطت للشرق مثال الجهاد للحرية، هل أصبحت الآن غير كفء للدستور، لأن دولة ظالمة قوية، احتلت بلادها، وقضت على حريتها واستقلالها؟

حافظ إبراهيم يتهكم:

وعلى محطة "روز فلت" وبينما كنت في جوف إحدى الليالي الباريسية، بانتظار المترو، أخذت أحملق في حروف اسم "روز فلت" المذَّهبَة فارتسمت أمام عيني أبيات بديعة يتهكم فيها "حافظ إبراهيم" ابن الشعب، وشاعر النيل علي "روز فلت" ، ويتعجب من موقفه الكاره لمصر وشعبها، والمطالب بأن تظل أبداً مُحتلة من قبل الانجليز، مذكراً إياه بأن النيل (في مصر) عظيم كالمسيسبي (في البرازيل).. فكيف يعطى ويمنح "الثاني" بينما يحبس ويمنع عن "الأول".. ويوجه حافظ إبراهيم حديثه لروزفلت في أبياته التي تقول:

قِفْ وعدِّدْ مآثرَ العلمِ واذكُرْ	نعم الله ذِكْرَ عبدٍ شكورِ
وإذا ما ذكَرْتَ أَنْعُمَهُ الكُبرى	فلا تنسَ نعمةَ الدستورِ
إنما النيلُ والمسيسبي صنْوانْ	هما حليتان للمعمورِ
وعجيبٌ، يفوزُ بإطلاقٍ	وهذا في ذلك المأسورِ

الفصل السادس

ذكريات مصرية..

- سلامة موسى: مفكر بدرجة " ضيف" !!
- فرح أنطون: « لا بأس أن أموت هنا »..
- الشيخ رشيد رضا: لم كل هذا الجحود؟!
- صلاح عبد الصبور: نموذج المثقف..
- زكى نجيب محمود: الرسالة تقول: ما أنت بأعمى
- سمير أمين: لسنا منكم ولستم منا!

سلامة موسى: مفكر بدرجة "ضيف"؟!

في بداية الثمانينيات، وتحديداً عندما كنت أُعدُ أطروحة للدكتوراه بجامعة باريس (السوربون)، حضرت نقاشاً حول المفكر الكبير "سلامة موسى".. ومازلت أذكر ما دار فيه على الرغم من أنه كان نقاشاً قصيراً وسريعاً لكنه لا يخلو من دلالة، وكان طرفه الأول زميل لبناني اختار فكر "سلامة موسى" موضوعاً لأطروحته، وخصوصاً ما أسماه فكرة "التقليد" عند سلامة موسى.. حيث يرى أنه كان مُولعاً بفكرة "تقليد" أي شيء يراه في الغرب، ويتحمس لنقل الأفكار في سرعة البرق وتطبيقها على الأوضاع الاجتماعية في مصر والشرق عموماً. بدءاً بأفكار النشوء والارتقاء وانتهاء بأفكار الفابيين والاشتراكيين مروراً بكل التقليعات الغربية في الفكر والحياة. أما الطرف الثاني فكان أحد الأساتذة المعروفين في السوربون، وهو من أصول مشرقية هو الآخر، يرى أن "سلامة موسى" لم يتحقق لفكره النبوغ والانتشار من وجهة نظره؛ لأنه لم يكن تلميذاً في المدرسة الفكرية للأستاذ الإمام محمد عبده مثل "طه حسين"، وبقية الرعيل المصري الرائد في دنيا الفكر والحركة الإصلاحية على وجه التحديد.. وهذا حكم له مبرراته إذا صح التعبير.

لكن ماأدهشني وآلمني في الوقت نفسه، أن أجد "سلامة موسى" الذي أفنى عمره محباً للثقافة، واهباً حياته وكل مايملك من أجلها، راغباً في تحقيق الرفعة لوطنه وأبناء شعبه، لم تكن نظرة الناس في مصر له أحسن حالاً من نظرة الشوام.. فالرجل، حسب شهادة من بينهم ابنه الدكتور «رءوف»، كان يشعر بالظلم الواقع عليه من بعض زملائه والحاقدين عليه، أو من بعض كبار الشخصيات المؤثرة في المجتمع وقتئذ. ورغم

ذلك كان يواصل حياته بابتسامة عريضة مقتنعاً بأنه خُلق لكى يكتب وينير الطريق أمام مصر، شأن كل الكُتّاب أصحاب الرسالات الكبرى. وقد استغرقت هذه المهمة كل حياة "سلامة موسى" حتى صغرت - كما يقول هو - همومه الشخصية إلى جانب اهتماماته العامة. وأصبحت الثقافة حرفته، التى ضاعفت وجدانه بالدنيا، فأصبح يحس أكثر، ويرى أبعد.

عداوات مجانية:

والحق أنه لا يختلف عاقلان على أن «سلامة موسى» كان أحد مشاعل الفكر التى تسير جنباً إلى جنب مع "طه حسين" و"عباس العقاد"، و"محمد حسين هيكل"، و"أحمد لطفى السيد"، وبقية النخبة الفكرية التى قادت حركة الثقافة والتنوير فى مصر.

ثم إنه كان نسيجاً وحده فى عدة خطوط، أبرزها ولعه بالثقافة إلى حد جعله يبيع ممتلكاته - ليجعل من نفسه مؤسسة صحفية - بل مؤسسات تنقل الفكر سهلاً يسيراً إلى الناس.. لكن يبدو أن كل هذه «الموهبة»، وكل هذا الجهد الذى يتجاوز حدود «الكفاح والنضال» لم يشفع للمفكر الكبير "سلامة موسى" عند كثيرين.. فأدهشنى مثلاً أنه - فى آخريات أيامه وعندما عمل بصحيفة «أخبار اليوم» - لم تكن له حجرة من بين عشرات الحجرات فى مبنى الصحيفة، ولا حتى مكتب خاص به!! إنما كان عليه أن يجلس فى ساعتى الصباح اللتين يزور فيهما الجريدة على مكتب يستخدمه عدد من صغار المحررين فيها، ولم يكن هذا يسيئه بقدر ماكان يثير تعجب زملائه وزواره معاً.

يروى "إسماعيل يونس" فى "يومياته" هذه الواقعة - المأساة، فيقول: «اكتشفت أن لى شريكاً فى المكتب الصغير.. رجلاً يبدو عجوزاً طيب الملامح، كان يأتى إلى الجريدة فى السابعة صباحاً ويحتل المكتب حتى التاسعة صباحاً.. ثم أتسلمه أنا بعد ذلك.. وكدت أصاب بالفزع عندما عرفت شخصية شريكى العجوز فى المكتب.. كان الكاتب المفكر العظيم المثقف "سلامة موسى"..!».

ويقول "إسماعيل يونس": «سألت سلامة موسى مرة: لماذا تقبل الجلوس إلى هذا

المكتب المتواضع؟ فقال ضاحكاً: ليس مهماً أين تجلس عندما تكتب لكن القيمة الحقيقية.. في ماتكتبه للناس.. الحجم الحقيقي لمقعدك في أذهان الناس.. هنا. ويشير إلى رأسه.. أصحاب الدار أتاحوا لي فرصة الاتصال بالناس.. ويضحك. بينما أمعن أنا من داخلي مستنكراً ألا يكون لهذا الرجل العظيم غرفة فاخرة»..

.. وأدهشني أيضاً أن الكاتب والشاعر المعروف "كامل الشناوي" كان يناصبه العداء جهاراً نهاراً، ويدس له سراً وعلانية، ويحول دون أن ينشر سلامة كتاباته في الصحف، أو أن ينشر مؤلفاته. وقد ساعدته في ذلك علاقاته الحميمة التي قوامها السهر والضحك مع كثيرين من مختلف الأوساط الصحفية وغير الصحفية. وعندما مات "سلامة موسى"، كتب "كامل الشناوي"، كذباً: «لم يشترك في جنازة "سلامة موسى" غير خمسة من الأدباء والصحفيين!!».

قالوا لي: ماذا تركت للثورة؟!

والمؤلم أن هذا العقوق الذي كان من حظ "سلامة موسى" في أخريات أيامه، شارك فيه كثيرون من بينهم «الرقيب» الذي كان يتحكم في كل كلمة وكل سطر من كتاباته، قبل أن يرى النور على صفحات الجرائد.. ويروى أن كتابه الذي يتناول فيه نشأته وفكره، «تربية سلامة موسى»، وهو أبدع وأصفى ماسطر بقلمه وعقله، كان هذا الكتاب يطبع في ذلك الوقت بعد الثورة، ولكن الرقيب الحكومي أغار على بعض صفحاته بالشطب، وقد تألم "سلامة موسى" لمسلك الرقيب «الثوري»!! إلى جانب الرقابة المفروضة عليه من صاحب «أخبار اليوم». وذهب "سلامة موسى" إلى "علي صبري" أكثر من مرة في ذلك الوقت للشكوى مما يلقاه، ولكن في المرة الأخيرة، في أوائل عام ١٩٥٨، اعتذر "علي صبري" عن رؤيته، وخرج "سلامة موسى" من عنده حزيناً أسفاً وهو يردد، كما يقول ابنه "رءوف": «الولد ده، مش عايز يشوفني؟!».

ويروي "رءوف سلامة موسى": «إنهم عندما فكروا في نشر كتاب "انتصارات إنسان" في عام ١٩٦٠ شاملاً الدعوات التي نادى بها "سلامة موسى" في حياته، ثم

تحققت بعد ذلك مما عددناه انتصاراً له، مثل الاشتراكية والتصنيع، والأخذ بالعلوم، وارتباط الثقافة والأدب بالحياة، وجعل التعليم مجانياً، وإيجاد نقابات العمال، والتأمين الاجتماعي ودفع المعاشات للعاطلين عن العمل وغير القادرين، وتمثيل العمال في المجالس النيابية، وفرض الضرائب التصاعدية وتحديد الإيجارات الزراعية، وتأميم البترول وقناة السويس.. حذف الرقيب الحكومي حوالي نصف محتويات الكتاب!! وذكر لي شخصياً عندما ذهبت أحتج لديه: "إنك لم تترك شيئاً للثورة ولجمال عبدالناصر". وقد أجبته: إن الأمانة والخير يفرضان أن نعزي الفضل لأصحابه. وقد تركته وأبرقت لجمال عبدالناصر بما حدث، ظاناً أنه سيسمح لنا بإصدار الكتاب كاملاً. ولكنه لم يأبه بالرد. وأصرت الرقابة على موقفها!».

وضمن حلقات الظلم التي عاشها "سلامة موسى" بقلب كبير، وصبر لا محدود أنه عندما عمل بدار الهلال، لم يكن يتجاوز راتبه الشهري عشرين جنيهاً، يضاف إلى هذا أن صاحب "دار الهلال" لم يسمح له بوضع اسمه صراحة فوق المجلتين اللتين كان يتولى رئاسة تحريرهما وهما «الهلال» و«كل شيء».. ثم التحق بالعمل شخصان آخران هما: "كريم ثابت"، و"فكري أباظة". وما أحزن "سلامة موسى" أن راتب الواحد منهما كان ضعف راتبه.. وبدون مبرر!!

ومن المؤلم أن هذه الظروف القاسية والمحبطة التي كان "سلامة موسى" يتنفس مناخها ليل نهار أَوْرثته عقدة الخوف من تجريده من جنسيته المصرية.. والمرة الوحيدة التي ترك فيها مصر بعد عودته من أوروبا عام ١٩١٣، كانت لنحو شهرين، للمشاركة في مناقشة حول مصر.. وكان الدكتور "محمد صلاح الدين" وزير الخارجية وقتها في باريس، يقوم بأعماله في مصر "إبراهيم فرج بك" ففاتح سلامة في ضرورة سفره بنفسه إلى باريس للرد على النشرات والكتابات التي كانت تسيء لمصر وتتهمها باضطهاد الأقلية.. ويقول "سلامة موسى": «خشيت أن أترك مصر فتجردني الحكومة المصرية من جنسيتي مثلما فعلت في عام ١٩٢٢ مع صديقي

محمود حسني العرابي".. وقد لازم هذا الواقع المؤلم "سلامة موسى" حتى بعد وفاته في ٥ أغسطس عام ١٩٥٨. فأبلغت إدارة «أخبار اليوم» أسرته أنهم لا يستحقون معاشاً أو مكافأة، لأنه قد التحق بالدار في عام ١٩٥٢ وعمره يتجاوز ٦٠ عاماً، ولكنهم تقديراً منهم له، ولمكانته، ولخدماته لـ «أخبار اليوم»، سيطبعون له كتاباً وجدوه في مكتبه بـ «أخبار اليوم» عن الصحافة.. ثم تبين أن جزءاً كبيراً من مادة هذا الكتاب لا علاقة لها بسلامة موسى.. وقد أثار الكتاب عدة مشكلات بعد ذلك. وكانت النتيجة أن كل ماحصلت عليه أسرة "سلامة موسى" بعد وفاته هو معاش نقابة الصحفيين وهو أربعة جنيهات، زيدت بعد ذلك إلى اثنى عشر جنيهاً.

"هيكل" و"عكاشة".. مجرد وعود:

ويروى "رءوف سلامة موسى" قائلاً: «قد نصحنا الناصحون أن نتقدم بطلب تقرير معاش استثنائي لوالدتي. وقالوا إن المعاشات الاستثنائية تقرر للألوف في كل عام. فتقدمنا بطلب إلى جمال عبدالناصر، وزرنا "محمد حسنين هيكل" في جريدة «الأهرام» لمساعدتنا. وقد وعدنا، ولكنه لم يفعل شيئاً.. وزرنا وزير الثقافة "ثروت عكاشة" في ذلك الوقت، ولكنه لم يفعل شيئاً هو الآخر. وزار صديق لسلامة هو "حليم متري" الدكتور "طه حسين" في منزله، وطلب إليه أن يوصي على طلبنا ويذكّيه، ولكن "طه حسين" أجابه: «إن سلامة قد هاجمني في السنوات الأخيرة». وذكّره حليم متري: «لكنه قد كتب عنك ومدحك كثيراً، منذ كنت شيخاً معمماً في عام ١٩١٤، ثم فتح لك صدر مجلاته وعاونك في مجلاتك. وحقيقي أنه هاجمك أخيراً، ولكنك تعرف سلامة جيداً، وقد هاجم أفكار الكثيرين في حياته، ولكنه أبداً لم يهاجم شخصك، لأنه كان يحبك ويقدرك». ولكن وجه "طه حسين" تجهم، وتمتم في بطء: «ها هو يدفع الثمن!!».

ثم نصحنا آخرون في عام ١٩٦٢ أن نلجأ إلى بعض صغار موظفي وزارة الثقافة، وقد نجح هذا المسعى وتقرر لوالدتي حتى وفاتها في عام ١٩٦٩ معاشاً استثنائياً قدره ثلاثون جنيهاً شهرياً.

أحزان سلامة:

وهكذا، كما يقول نجل سلامة موسى: «لقد تجاهل الكثيرون سلامة بعد وفاته، فلم يحصل على أي نوع من أنواع التكريم.. أو النياشين التي كانت تلقى على صدور من لا يستحقون». يبقى أن نذكر أن "سلامة موسى" كان يأسف لأشياء كثيرة تمر بحياته، لكنه حاول أن يحصر أحزانه ذات يوم في قائمة أبرزها تسعة أحزان هي: أنه لم يؤلف للأطفال الصغار، وأن وزارة المعارف لم تشترك في "المجلة الجديدة"، ولم تشتر مؤلفاته، وأنه لم يقدم أي برامج إذاعية بالإذاعة المصرية مثل غيره من الكُتّاب.. وأن الأزهر الشريف لم يدعُه إلى الاحتفال الذي دعا إليه المفكرين بمرور ١٠٠٠ عام على تأسيسه.. وأن "طلعت حرب" لم يدعه للاحتفال بافتتاح "شركة بيع المصنوعات المصرية" التي قدم إليها شيكاً بألف جنيه تطوعاً.. ثم ألف - يقصد "طلعت حرب" - كتاباً ضد "قاسم أمين".

ويواصل "سلامة موسى" ذكر أحزانه، فيقول: «لقد وظفت "يوسف جرجس" في "المقطم" ثم كتب عني تقريراً كان سبباً في اعتقالي ٥٠ يوماً، منها عشرة أيام على الإسفلت. ثم دسائس "كامل الشناوي"، وأن رسالة "غالي شكري" بالجامعة لم تُقبل. وأخيراً: أن الرقابة على الصحف والكتب حرمتني التفكير المجدي والخدمة الأمينة لبلادي».

أياً كان أمر اتفاقنا أو اختلافنا مع "سلامة موسى"، فقد كان مفكراً كبيراً ومن طراز فريد، وقائد فكر مؤثر، ولايزال عشقه للثقافة والفكر والتنوير يعتبر شمعة تضيء نفوس الشباب والباحثين على مر الدهر.. وكلنا يعرف أنه كان صادقاً في دعوته وكفاحه الثقافي في مصر، فلم يكف عن تأليف الكتب المقلقة، التي يعتبرها ضمائر صغيرة، يبعثها - كما يقول - كي يزعزع التقاليد السوداء، ويحرق العفن في العقول المطموسة. ومن مسرات حياته أن يجد مؤلفاته تسري في الجسم الاجتماعي على مهل، وفي غير عنف.. وما أحوجنا يا قوم إلى "سلامة موسى" وأفكاره وصفاته، في هذا الزمان.

"فرح أنطون" : لا بأس أن أموت هنا

.. هو نموذج لمثقف عربى نادراً مايوجد فى هذا الزمان، أو بعبارة أكثر دقة: هو نموذج لمثقف عربى لا يمكن أن يوجد في زماننا، لأنه كان يضع روحه على كفه فى كل وقت يدافع عن أفكاره باستماتة، ومبدأه أن الهلاك فى الحرب أفضل ألف مرة من التسليم. إنه المفكر اللبنانى الرائد "فرح أنطون" الذى يُقال إنه «تخصص فى "مصادرة" المجلات والمطبوعات الصحفية» لأن نقده كان لاذعاً، ودعواته تصيب ذوى النفوذ والسلطان فى مقتل.

ضاق به "لبنان"، فهاجر إلى "مصر" ليخوض معركته على أرضها. وعندما ضاقت به مصر، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لينشئ العديد من المجلات التى تحمل أفكاره.. ثم عاد إلى مصر ثانية، وعندما بلغه نبأ الانقلاب العثمانى، قال: «لقد حان وقت العمل، إن الأمم الشرقية قد آن أوانها لتستيقظ من سبات نومها العميق». بدأ حياته بمهنة التعليم هرباً من تجارة الأخشاب التى اشتغل فيها وقتاً قصيراً مع والده، لكنه سرعان ماهجرها لعدم اتفاقها مع ذوقه، ولأن الأخلاق اللازمة للتجارة ليست فيه، ولأن نفسه أخيراً، كانت تميل إلى الأعمال العقلية.

وقد بدأ حياته فى دنيا الفكر بمقالة نشرها فى صحيفة «الأهرام» بعنوان «دائرة الحق». أما لماذا هاجر مع رفاق آخرين إلى مصر، فذلك لسببين:

الأول : هو أن صناعة القلم فى عهد "السلطان عبدالحميد" كانت مقيدة بقيود من حديد.

والثانى: هو أن مصر كانت المنبر الأوسع آنذاك والمركز الأوسط لجميع أقطار الوطن العربى، إذ منه تنتشر الثقافة الوطنية انتشار الأشعة إلى كل الجهات.

رسالة المثقف:

أسس "فرح أنطون" مجلة «الجامعة» التى كانت الأولى من نوعها المتخصصة فى قضايا الأدب، وحققت ذيوعاً أثار غيرة وحقد الكثيرين. وكانت رسالتها هى البحث

في أسباب الفوضى الأدبية والاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك الزمان. وقد تأثر الكثيرون بخط «الجامعة» الفكري، حتى قيل عنها: «إنها أوجدت حزباً كبيراً في مصر يسمى بـ "حزب العصر"». وقد وضع "فرح انطون" نصب عينيه لذة الكتابة التي ملكت عليه أمره. فهو يكتب اجتلاباً للذة، ويدافع عن حرية الفكر والنشر، ويؤكد ـ في صلابة المناضلين ـ أن حياة الكاتب إذا خلت من لذة الكتابة فما يبقى فيها بعد ذلك، لا يساوي العناء المبذول فيها. وأن رسالة الأديب هي رسالة اجتماعية تربوية بالأساس، فيقول: «أنا لا أفهم كيف يجوز للكاتب أن يشتغل بالصحو والمطر والنبات والحيوان، والصين والفليبين، وتاريخ الأمم الغابرة، ويترك أهم شيء يجب الاهتمام به، لأنه ألصق الأشياء، وهو النظر إلى الأعماق في أساس الهيئة الاجتماعية لمحاربة الفساد الذي فيها، وإصلاح وتربية الأذواق الأدبية، وتكوين الضمائر الحيّة التي بدونها لا يكون الإنسان إنساناً. فإن هذا أفضل ماتحتاج إليه الآن بلادنا الشرقية ـ وهو اهتمام مقدم على كل اهتمام».

ويؤكد "فرح أنطون" أن الكتابة إذا خلت من الصدق لم تعد تساوي الحبر الذي تُكتب به، وكذلك الكاتب. إذا حاد عن الصدق يصبح عديم القيمة، ولا يبقى منه سوى جثته التي يتساوى فيها مع الحيوانات والحشرات. والحق أن "فرح أنطون" كان شعلة متوقدة دائماً بالحماس والأفكار الجريئة التي كانت كصخرةٍ هبطت من علٍ في بركة ماء الفكر الراكدة، فجعلتها تموج بكل قديم وجديد، ووارد وموروث.

وعلى الرغم من الطعنات التي تلقاها، والصدمات التي واجهها، والعداء الذي أحاط به من الأنصار والخصوم على السواء، إلا أنه ظل مرفوع الرأس والهامة، مؤمناً شديد الإيمان بمبادئه ويجلوي مايدعو إليه، ولذلك لم يُخطئ "مصطفى صادق الرافعي" عندما وصفه بأنه: «لم يكن فرداً، وإنما كان جيلاً بأكمله». وقال عنه "عباس العقاد" بأنه «طليعة مبكرة من طلائع النهضة العربية».

العودة إلى الزراعة:

أما هو فكان ينظر إلى نفسه في تواضع شديد، ويقول: «إنني من مُحبي البحث عن الحقيقة، ومُسيَّر إلى هذه الغاية ولستُ مخيَّراً فيها..» ظنه البعض مُلحداً لحماسته الشديدة للفكر الاشتراكي، وإعجابه الشديد بكارل ماركس. إذ كان من أوائل من كتبوا عنه في اللغة العربية، لكن المتابع لتطور حياته الفكرية سيجد هَمّ النهضة والتحديث والتطور، يشغل بال "فرح أنطون" دائماً. كما أنه اهتم بقيم العدالة والحرية وهي لاتعني بالضرورة الإلحاد.. إنما هي فكرة تروجها المؤسسات عند قليلي الوعي والثقافة إذا ماأرادت ضرب «فكرة» أو قذف مفكر «متمرد» خارج القطار. ومماىؤكد، سعيه الدائم للبحث عن الحقيقة مناجاته الأكثر من رائعة، للكون وللخالق عندما خرَ ساجداً لله أمام شلالات نياجرا في أمريكا.. مُسبِّحاً بعظمة المبدع التي تجلت في هذه الطبيعة التي تحمل لحجج الماء من أعلى عليين لتهبط بها في جلال وروعة.. ولعل أجمل مايُؤثر عن هذا الرائد الكبير هو دعوته التي أثارت سخرية الكثيرين في حينها، وهي "العودة إلى الزراعة".

يُذكر أنه عندما هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كثَّف نشاطه لدعوة المغتربين العرب هناك إلى الاتجاه نحو الزراعة والاشتغال بها، وحثّهم على مطالبة الحكومة الأمريكية لإعطائهم أراضٍ واسعة، يقومون بزراعتها، والانتفاع بما تنتجه من أشجار وثمار.

أما ما لايمكن أن ينساه إنسان، بالنسبة لفرح أنطون، فهو إصراره أن يموت على مكتبه بمقر المجلة (الجامعة) التي أسسها في القاهرة، وكان يُشرف عليها.. فيُقال إنه عندما شعر بأن الموت يتربص به، وأنه أصبح على بعد قوسين أو أدنى منه، أمر أصدقاءه أن يحملوه إلى مكتبه ليلفظ أنفاسه هناك وهو ممسك بالقلم، شاخصاً ببصره إلى الأوراق، وكانت آخر كلمة نطق بها، وهو مبتسم راض، هي: «لا بأس أن أموت هنا»!

الشيخ رشيد رضا: لم كل هذا الجحود؟!

.. للكاتب الإسلامي المعروف "فهمي هويدي" مقالة كتبها قبل عدة سنوات، ونشرها في مجلة "الدوحة" الثقافية (كانت تصدر في "قطر") التي يرأس تحريرها في ذلك الوقت الناقد الكبير "رجاء النقاش".. المقالة تدور في مجملها حول الإمام "محمد عبده".. وما لفت نظري إليها أن "فهمي هويدي" وهو يستعرض الكتب التي تناولت بالتأريخ حياة الإمام "محمد عبده". (ذكر تقريباً كل الكتب، وعلى رأسها الأعمال الكاملة لمحمد عمارة، وكتاب العقاد «الإمام محمد عبده ـ عبقري الإصلاح والتعليم» وكتاب لعبد الحليم الجندي، وآخر لطاهر الطناحي..) ولم يذكر "هويدي" لا من قريب ولا من بعيد اسم الشيخ "محمد رشيد رضا" الذي يعتبر أشهر من أرّخ للإمام، فضلاً عن صداقته الطويلة له، واقترابه منه في كثير من الأفكار.

ولما كنت مهتماً بالإمام "محمد عبده" في إطار اهتمامي بتاريخ الفكر العربي المعاصر، مددت يدي ذات يوم إلى مكتبي وأحضرت الكتب الثلاثة: (كتاب العقاد، وكتاب عبد الحليم الجندي، وكتاب طاهر الطناحي..) وأدهشني أن كتاب "عبد الحليم الجندي" وهو بصدد الحديث عن تلاميذ "محمد عبده"، لم يذكر لا من قريب ولا من بعيد ـ أيضاًـ اسم الشيخ "محمد رشيد رضا"!! واكتفى بذكر "سعد زغلول"، و"الشيخ المراغي" و"الشيخ مصطفى عبد الرازق" وآخرين.. فأعدت قراءة الكتاب لعلي أجد ما يشير إلى تلمذة "رشيد رضا" على أيدي الإمام، أو حتى تأثره بمنهجه في التربية والإصلاح، فلم أجد!

أما الكتاب الثاني الذي يدور في معظمه حول سيرة حياة الإمام، وقدم له "طاهر الطناحي" بدراسة طويلة، فقد وجدت فيه عجباً.. مثل أن "رشيد رضا" وهو يؤرخ لحياة الإمام خلط أفكاره بأفكار الإمام، وحاول أن يظهر نفسه بمظهر القريب جداً منه، مدَّعياً ـ أي "رشيد رضا" ـ أنه خليفته في المنهج التربوي والإصلاحي.. فآلمني

هذا الأمر كثيراً، خصوصاً عندما قرأت سطوراً فى نفس المقدمة لطاهر الطناحى، تقول بأن «رشيد رضا قد وضع أبياتاً شعرية، ونسبها للإمام محمد عبده تذْكُر أنه قد اختاره لكى يكون امتداداً له ومرشداً رشيداً للإصلاح الدينى من بعده..».

وعندما أخذت أبحث فى كتاب "العقاد" لعلِّى أجد ما يُطيِّب خاطرى بعد تجنى "طاهر الطناحى" على "رشيد رضا"، وإغفال "عبد الحليم الجندى" لاسمه.. وجدت أن "العقاد" نفسه، وإن اعترف بفضل "رشيد رضا" كأحد المؤرخين البارزين لحياة الإمام، إلا أنه وهو يتحدث عن المتأثرين به لم يذكر اسم "رشيد رضا"..

باختصار، اكتشفت أن هناك تياراً ـ مع احترامنا لكبار الكتّاب الذين ينخرطون فيه ـ يحاول أن يجحد فضل "رشيد رضا"، وينكر عليه تلمذته للإمام، و تأثره به بشكل أو بآخر فى التيار التربوى الإصلاحى.

وقد وجدت أنه من المهم بل من الأمانة والاعتراف بالفضل، أن نثير هذه القضية.. ونطرحها للنقاش، وهى: إلى أى حدٍ يعتبر رشيد رضا بالفعل تلميذاً وفياً للإمام "محمد عبده"، ومدى ما يستحقه الرجل من تقدير؟

وإذا كان البعض يرى أنه ليس وفياً، ولا حتى تلميذاً، فنرجو أن يمدونا بما يستندون إليه لتأكيد هذا الزعم. أما نحن، فنختلف معهم جميعاً ونرى أن الشيخ "رشيد رضا" ليس فقط أحد تلاميذ الإمام، لكنه التلميذ الأول بلا منازع الذى سار على خطه الإصلاحى بصدق وأمانه لا مثيل لهما، فهو يرى أن «الإصلاح والنهوض إنما يتم بالتعليم الدينى والتربوى الصحيح».

ويقول أيضاً: «إن الإصلاح الحقيقى مستحيل من دون دمج الإصلاح الدينى فى الإصلاح الاجتماعى».

"منهج" فى التجديد:

وليس خافياً على الدارسين والمهتمين بفكر الإمام "محمد عبده" أن هذه المعانى هى ذاتها التى كرّس لها الإمام كل حياته.. بل ودخل فى سبيلها معارك كثيرة كان

من نتيجتها الاضطهاد والنفى. ولعل أكبر دليل على وفاء "رشيد رضا" لأستاذه الإمام، أنه عندما سار على منهجه الإصلاحى، لم يعط للسياسة مساحة، واعتبر الإصلاح السياسى هدفاً يأتى كنتيجة للإصلاح الدينى والاجتماعى. فالإمام "محمد عبده" كما نعرف جميعاً، كان قد استقر رأيه فى أخريات أيامه على الإصلاح الدينى والاجتماعى واللغوى من دون السياسة وكل مشتقات فعل «ساس».

ومن الشواهد التى تؤكد اهتمام "رشيد رضا" بالإصلاح على طريق محمد عبده، أنه عندما أسس مجلة "المنار" كان يهدف إلى إحياء تعاليم "العروة الوثقى"، وهو ما يعنى التزام "المنار" بتعاليمها الاجتماعية، وقواعدها التى وضعتها الوحدة الإسلامية، ثم البحث فى جزئيات البدع، وتفصيل القول فى التعاليم الفاسدة، والعقائد الزائفة، والتربية المفيدة.

ومن أفكار "رشيد رضا" فى هذا الاتجاه، أنه لا يقصد أى نوع من إعادة النظر فى الإسلام كدين، وإنما الذى يقصده هو ما يؤدى إلى المحافظة على الدين والعمل به وجمع المسلمين عليه. أما فكرته عن التجديد، فهى أنه لا تجديد فى "الأصل"، أى فى الوحى أو الدين، وإنما هو تجديد فى عقول البشر لكى يتمكنوا من العودة إليه، وفهمه الفهم الصحيح.. أو كما يقول "رشيد رضا" بالحرف الواحد هو: «تجديد لما أبلى الناس من لباس الدين، وهدموا من بنيان العدل بين الناس».

معنى هذا أن مقياس التجديد عند "رشيد رضا" هو ردم الهوة التى أبعدت الناس عن الأصل، وهو وصل ما انقطع بين الإنسان والأصل الدينى (الكتاب والسنة). ومن الشواهد الأخرى التى تجعل "رشيد رضا" امتداداً لمدرسة الإمام "محمد عبده" الإصلاحية، أنه يؤمن ـ كما كان الحال مع الإمام ـ بأن إصلاح الأمم لا يتم إلا بواسطة رجال فاقوا شعوبهم ببُعد النظر، وصحة الفكر، وعلوّ الهمة، وقوة العزيمة والإرادة. وهى الفكرة نفسها التى كان الإمام "محمد عبده" يُلحّ عليها، وكانت سبباً فى خلافه مع أستاذه وصديقه "جمال الدين الأفغانى"، وهى فكرة

«الغرس» وزرع الأفكار التنويرية في نفوس التلاميذ، حتى يكونوا مؤهلين بعد ذلك لحمل راية الإصلاح في كل الميادين.

تبقى كلمة في هذه العُجالة، نهمس بها على استحياء شديد في آذان كل من تصدى للكتابة والتأريخ عن الإمام "محمد عبده"، وأغفل الشيخ "رشيد رضا"، أو الإشارة إليه بما يستحق من تقدير، وما يحتل من مكانة في تاريخ الفكر العربي المعاصر. ونقول لهم جميعاً: لمصلحة من - أيها السادة - كل هذا التجاهل والجحود للقيمة التي يمثلها الفكر بعيداً عن شخص الرجل نفسه؟

صلاح عبد الصبور.. نموذج المثقف

إلى عشاق تاريخ الأفكار، أقدم هذه الصورة، وهي عبارة عن صفحة من صفحات الشاعر الكبير "صلاح عبد الصبور" التي كتبها نثراً، ويتحدث فيها عن الصداقة، فيقول: «كان الأصدقاء في ذلك الزمان البعيد، قلة بقيت صداقتها مع الزمن تكبر ولا تشيخ. وكنا في الجامعة نتحلق حول شيخنا وأستاذنا المرحوم "أمين الخولي". حتى إذا انقضت دروسنا نتجمع في إحدى مقاهي "حي عابدين". وكانت جلستنا موزعة بين قراءة كل منا لأصحابه ما أفاض الله عليه به من القول، شعراً أو قصة أو نقداً، وبين لعب النرد. ثم طلب الطعام من عربة يد كانت تقف وراء المقهى، وتقدم للطاعمين صنفاً من الطعام لا أدرى له اسماً. وهو مزيج من الخضر والبصل ورائحة اللحم. حتى إذا أغلق المقهى أبوابه، تحولنا إلى حي "سيدنا الحسين"، لنجلس في مقهاه القديم، "مقهى الفيشاوى". وكان صاحبه "الحاج فهمي" مازال حياً، يتصدر واجهة المقهى بوجهه الفاتر وجسمه السمين. وكان المقهى كأنه معرض شامل، فيه من المرايا القديمة المكسورة والأثاث البالى الرث، والوجوه التي كأنها تنبعث من كاريكاتور الرسام "دومييه". فإذا أهلّ شهر رمضان زارته بعض النسوة اللائى بُعثن من لوحات الفنان "تولوز لوتريك"، ثم هناك على الحوائط بعض الحيوانات المُحنطة والأعمدة الخشبية التي تذكرك بالعبث الفنى العظيم الذى يصفه "سلفادور دالي"...».

أكاذيب بيضاء:

ويستطرد "صلاح عبد الصبور" في سرد تلك الذكريات الحميمة، قائلاً: «لا تسألنا: متى كنا نستذكر دروسنا؟ وقد كنا طلاب علم، إذ إننا كنا قد طلبنا من العلم الفرع الذى نحبه، فكنا ندرس اللغة أو الفلسفة، وهنا تهون الأمور فيما عدا دراسة

اللغات المساعدة. وقد كانت عادتى أن آلم بالمنهج فى بضع ليال قبل الامتحان. ولكن هب أن ذلك كان جائزاً فى درس الأدب العباسى، أو الأموى، فقد كان عسيراً كل العسر فى درس اللاتينية أو الفارسية أو التركية، وهى اللغات المساعدة.. وأذكر عندئذ أن اختبار اللغة الفارسية فى السنة الأخيرة، كان تحريرياً وشفوياً. حفظت ما عُرض علينا من قطع شعرية للترجمة عن ظهر قلب. ولكنى فى الاختبار الشفوى فاجأت الأستاذ الممتحن، وكان الدكتور "يحيى الخشاب" بسوء نطقى للغة، فقد كنت أمِيلُ للتفخيم من العربية، ومنها من الحروف ما له شكل الحرف العربى دون نطقه.. ودهش الدكتور الخشاب لهذا التناقض الغريب بين إتقانى الترجمة وخيبتى فى النطق. فزعمت له كاذباً ـ وليسامحنى الله ـ أننى أعمل موظفاً فى النهار بحيث لا أستطيع حضور دروسه، وأننى أفنى ليالىّ البيضاء فى الحفظ والتحصيل، وأفنى ساعات نهارى كاتباً فى مصنع. وواقع الأمر أن ساعات نهارى كانت معظمها تسكعاً فى مكتبة الجامعة، أو جلوساً على درجاتها التى حولناها إلى رواق للمناقشة الأفلاطونية أو السخرية السقراطية..

«بين ذلك كله، كنت أزور "إبراهيم ناجى" أسبوعاً بعد أسبوع. وأذكر فى سبتمبر عام ١٩٥٢، وكنت قد تخرجت فى الجامعة، وعملت مدرساً فى إحدى المدارس الإعدادية، أنى زرته يوماً فى عيادته، فرأيته كسير القلب، والسبب هو أن أحد الوشاة قد وشى به للحكام الجدد ـ مجلس قيادة الثورة، كما وشى "بتوفيق الحكيم" الذى كان مديراً عاماً لدار الكتب فى ذلك الوقت. واتهموه بأنه "غير منتج"..

«وكان "ناجى" فى ذلك الوقت مديراً لمستشفى "السكة الحديد" فنزل به الحكام الجدد درجتين، بحجة أنه نال هاتين الدرجتين استثناءً ومحاباةً لصلته الحميمة بالمرحوم "الدسوقى أباظة باشا"، وكان من محبى ناجى..

«وكانت اليد التى بطشت بناجى هى نفسها اليد التى بطشت بتوفيق الحكيم، فقررت إحالته إلى المعاش، لكن من حسن حظ "توفيق الحكيم" أن "جمال عبد

الناصر" كان من قرائه المعجبين به، وتصادف أن قرأ له إحدى رواياته حديثاً،.. ولذلك رفع الظلم عن "توفيق الحكيم" وأعاده إلى منصبه، بينما ظل ناجي مظلوماً، ولم يرأف به أحد».

لم أكن مدرساً ناجحاً:

ويقول "صلاح عبد الصبور" عن علاقته بمهنة التدريس وصديقه "ناجي": «كنت عندئذ مستمتعاً محباً لشكواه، وكان لديّ ما أشكوه له، فلم أكن مدرساً ناجحاً بحال من الأحوال وكان مفتشو اللغة العربية، ومعظمهم من قدامى رجال التعليم، حين يزورونني في الفصل يضيقون بما يخالونه من إهمالي وقلة بضاعتي في العربية.. حتى أن أحدهم كتب في تقريره عني أنني لا أصلح للتدريس. فقد كنا - السادة المفتشون وأنا - ننتمي إلى مدرستين مختلفتين: هم من أبناء "كلية العلوم"، ويطلق عليهم "الدراعمة" أما أنا فكنت من أبناء كلية "الآداب". ولكل من المدرستين في اللغة والأدب تصور يختلف عن تصور الأخرى..

«وكان مما يهوّن عليّ الأمر - عندئذ - محبتي لمجموعة من مدرسي اللغة العربية والخمسة عشر معلماً، وتتراوح أعمارنا بين مشارف الستين وبدايات العشرين.. وكان حديثنا المرح ينتقل بين أفانين من القول في الطعام، والمقويات وهمّ الأطفال، ونكد الزوجات حتى ليضيق ذرع الزوج، وتقل حيلته. حتى إذا جاءت فسحة الساعة العاشرة أرسلنا في طلب صحون الفول وقراطيس الطعمية، وتلال الخبز، فما تكاد تمر دقائق حتى يختل التل، ويبدو قاع الصحون وتلقى القراطيس الفارغة في السلال، ثم يدور الشاي بعد ذلك دورة أو دورتين. كل ذلك، ويا للعجب، لا يزيد عن خمس عشرة دقيقة».

ويروي الشاعر "صلاح عبد الصبور" أنه تعرف في نادي المعلمين، في فترة لاحقة، على الأديب الكبير "محمد فريد أبو حديد"، الذي ضمه - كما يقول - "تحت جناحه الوارف"، وأصلح ما بينه وبين وزارة التربية والتعليم التي كان "أبو حديد" يعمل بها وكيلاً، ثم مستشاراً فنياً..

وتعاون مع "أحمد أمين" فى مجلة «الثقافة»، فأصبح مسئولاً عنها، يجمع مادتها، ويرتبها، ويكتب فيها، ويبيع بعض أعدادها.. ورغم ذلك خسرت مجلة «الثقافة» حتى اضطر صاحبها "أحمد أمين" أن يغلقها.. فوجد "صلاح عبد الصبور" نفسه مطروداً من مقر المجلة بحارة كرداسة بعابدين، فعاد إلى "جمعية المعلمين".

وتوطدت صلته بإبراهيم ناجى الذى كان يسهر معه فى أمسيات طويلة، أما آخر مرة رآه فيها، فهى عندما انتظرا معاً الترام أمام مبنى الإسعاف المجاور لمبنى التليفونات فى شارع رمسيس، وحين طال بهما الانتظار، تسليا بالتعليق على وجوه الملاح والقباح من عاملات التليفون الخارجات من مقر عملهن.. وعندما جاء الترام ودعه "صلاح عبد الصبور" على أمل لقاء لم يحدث، لأن "ناجى" فارق الحياة فى تلك الليلة. ومضى "إبراهيم ناجى" أعذب قيثارة فى الشعر العربى الحديث ـ مغموط الحق فى كل ميدان. وهكذا حياة الأدباء والشعراء: بذل وعطاء من جانبهم، وإنكار وجحود من الآخرين، وهو ما جعل الشاعر الراحل "صلاح عبد الصبور" يقول، هازئاً: «.. وآه يا خوفى من الناس!».

زكى نجيب محمود.. الرسالة تقول ما أنت بأعمى!

اهتم "زكى نجيب محمود" منذ البداية بدرس الفلسفة، وانشغل بتعليم «التفلسف» كقيمة ضرورية فى الحياة، وكجزء أساسى للوعى اليومى المنظم الذى يحتاجه رجل الشارع. الأمر الذى دعاه إلى أن يسقى الناس بساطة الفلسفة فى مقالاته التى دأب على نشرها بالأهرام كأن يناقش مثلاً فكرة "الظاهر" و"الباطن" من خلال الحديث عن الفاكهة، ويعطى أمثلة للبرتقال الذى حين يعطب يفسد من الخارج وهو خشن الملمس. بينما التفاح، مثلاً، اللامع الأنيق من الخارج حين يعطب يبدأ العطب من الداخل. وحسب هذه الطريقة البسيطة، والفلسفية أيضاً، يتعلم الناس - إن أرادوا ذلك - أن الحكم على الأشياء ليس حكماً صائباً إن اعتمد على "الظاهر" دون النظر إلى "الجوهر". هذا مثال لتبسيط الفلسفة وتقريبها لرجل الشارع. عند "زكى نجيب محمود".

والحق أن الرجل ظل مولعاً بالتقسيم بين "الشرق" و"الغرب" فى غالبية كتاباته الفلسفية. فى كتابه صغير الحجم - «الشرق الفنان» تظهر هذه الرؤية: "الشرق مقابله الغرب، .. الشرق الروحانى مقابل الغرب المادى:.. الشرق "الفنان" فى مواجهة الغرب "الصناعى". ويبدو أن ولع فيلسوفنا بفكرة التقسيم تلك، قد أثر فيه أثناء وضعه سيرته الذاتية، فكتبها فى قسمين أيضاً: "قصة عقل" و"قصة نفس".

ومما يذكر أن لزكى نجيب محمود اهتماماً بنقد الشعر، فصدر له فى بدايات مشواره الفكرى كتاب فى هذا الاتجاه، وكان دائماً يرى أن العصر هو الذى يختار عباقرته ومفكريه فى اتجاه معين. بمعنى أن العصر، لو كان يطغى عليه النزوع إلى العلم والتكنولوجيا، فإن معظم عباقرته سيكونون بالضرورة من المختصين فى العلم، و لو كان العصر ينزع إلى الفلسفة والفكر، فإن عباقرته كانوا سينبغون حتماً فى هذا الاتجاه.. إلخ.

ويعتبر "زكي نجيب محمود" تلميذاً نجيباً للوضعيين المناطقة بشكل عام، وللمدرسة الأمريكية في الوضعية المنطقية بشكل خاص. وقد لعب دور "الرسول" فترة الستينيات في نقل وتحليل رؤى الوضعية المنطقية في مصر. على أية حال هذه مرحلة من مراحله الفكرية. فهو بالأساس فيلسوف، يطبق أدواته الفلسفية في كل ما يحيط به، وفي كل ما يراه وقد كان «خرافة الميتافيزيقا» من أهم كتبه المؤلفة في هذه المرحلة.

هناك مرحلة أخرى. وهي مرحلة السبعينيات، وبحسب فكرته عن "العصر والاتجاه". كان الاتجاه آنذاك فكرياً يبدو ملتفتاً إلى الدين، وقضايا التراث، أكثر منه التفاتاً إلى أي شيء آخر.

وهنا اكتشف "زكي نجيب محمود" أنه غير دارس للتراث جيداً، فعكف عليه عكوف الفلاسفة بجدية ونهم ودرسه دراسة تحليلية وافية. أنتجت لنا خلاصة مرحلته تلك في ثلاثة كتب مهمة. لفتت الانتباه إليه مجدداً وبشدة. هي على التوالي: «تجديد الفكر العربي» و«المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري» و«ثقافتنا في مواجهة العصر».

وكان كتاب "زكي نجيب محمود" «مجتمع جديد أو الكارثة» يمثل الجسر الحي الواصل بين مرحلته السابقة التي تعيد النظر بجدية في قضايا التراث وتجديد الفكر العربي، وبين مرحلته الفكرية اللاحقة التي اهتمت بقضايا إجرائية وفكرية تخص "حركية" الثقافة والفكر العربي في العصر الراهن ومتغيراته. والتي كتب فيها «هموم المثقفين» و«هذا العصر وثقافته» وغيرهما.

والحق إن الرجل كان مثالاً حياً للمثقف والفيلسوف الذي يملك "مشروعاً" فكرياً متراكماً ومتناسقاً. كما كان جم التواضع وقريباً من النفس والعقل معاً.. وقد تكشف هذه "الواقعة" التي جرت بينه وبين طالبه لبنانية في أوائل الثمانينات عن بعض مما ذكرنا (أو ألمحنا).

رسالة إلى باحثة:

فى أبريل عام ١٩٨٣ـ على وجه التحديد ـ أرسلت طالبة لبنانية، هى حالياً الدكتورة "نجوى حمادة"، برسالة إلى الدكتور "زكى نجيب محمود" تسأله فيها عن بعض آرائه ومواقفه، لتستكمل معلوماتها فى الأطروحة العلمية التى كانت تعدها فى جامعة "السوربون" فى ذلك الحين حول فكره وأثره فى الفكر العربى المعاصر، فأجابها برسالة، يقول فيها:

«الباحثة الفاضلة.. تحية مباركة طيبة وبعد، سعدت بخطابك، ولو كنت ذا بصر لأفضت لك القول فيما طلبت الإجابة عنه، فلعلك تعلمين ما قد أصاب بصرى منذ حين، مما كادت تستحيل معه الكتابة. واستحالت معه القراءة استحالة تامة. لكن دار "الشروق" فى بيروت، وهى الدار التى تنشر لى كتبى منذ ١٩٧٠، يمكن أن تمدك بمعظم ما تطلبين. ومن أهم ما يعنيك كتاب (هو آخر ما صدر لى هذا العام) عنوانه «قصة عقل» ففيه تجدين خلاصة وافية بحياتى العقلية كلها، وقد أطلقت عليه هذا الاسم ليجىء مكملاً لتوأم له، سبقه إلى الظهور، بعنوان «قصة نفس» أحكى فيها عن حياتى من الداخل لا من الخارج، فأرجو الرجوع إليهما ـ وإلى قصة عقل بصفة خاصة، ومن هذا الكتاب ستعرفين فى سياق الحديث شيئاً عن جميع ما أصدرته من كتب، كل فى وقته وظروفه، فضلاً عن أن الكتاب سيقدم لك تقسيماً لحياتى العقلية واتجاهاتها الرئيسية، من وجهة نظرى على الأقل».

وبعد أن يلفت نظرها إلى أن كل ما تريد أن تعرفه عن حياته ستجده مكتوباً (فى صورة أدبية أكثر منه فى صورة تاريخية) فى كتابه «قصة نفس» إلا أنه بروح الأستاذ والمعلم، وبقلب الأب الكبير لم يبخل عليها بنبذة عن حياته رأى أنها يمكن أن تجد فيها بعض النفع، فكتب يقول:

«ولدت فى أول فبراير سنة ١٩٠٥ فى قرية "ميت الخولى عبد الله" بالقرب من مدينة "دمياط" الواقعة عند ملتقى النيل بالبحر الأبيض المتوسط. وقضيت أعوامى

الخمسة الأولى فى القرية، حيث بدأت تعليمىْ هناك، ثم انتقلت مع الأسرة إلى القاهرة، حيث التحقت بالدراسة الأولية، ولما بلغت التاسعة، نُقل أبى إلى حكومة السودان بالخرطوم، وهناك التحقت بالمدرسة الابتدائية فالمدرسة الثانوية. وكانت هاتان المرحلتان معاً يطلق عليهما اسم "كلية غردون"..

".. عدت إلى القاهرة، وحصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، وفى سنة ١٩٢٦ التحقت بمدرسة المعلمين العليا، وتخرجت منها سنة ١٩٣٠، واشتغلت بالتدريس فى التعليم العام، بادئاً بالتعليم فى المدارس الابتدائية لمدة أربع سنوات، ثم بالمدارس الثانوية.

".. خلال تلك الفترة صدرت مجلة "الرسالة" فى يناير ١٩٣٢، فأخذت أواصل الكتابة فيها. وكان معظم ما أكتبه فصولاً عن الفلاسفة والفكر الفلسفى. وفى سنة ١٩٣٤ التحقت عضواً بلجنة التأليف والترجمة والنشر. وكانت تلك اللجنة تضم ألمع الشخصيات فى الحياة الأدبية والفكرية..

".. وفى سنة ١٩٣٥ أصدرت لى اللجنة أول كتاب "قصة الفلسفة اليونانية"، وذلك بالاشتراك مع الأستاذ "أحمد أمين"، الذى كان عندئذ رئيساً للجنة التأليف والترجمة والنشر. وفى العام التالى ١٩٣٦ صدر لى بالاشتراك مع "أحمد أمين" أيضا كتاب "قصة الفلسفة الحديثة" فى جزءين كما صدر لى فى السنة نفسها ترجمة لأربع محاورات من محاورات أفلاطون".

ويسترسل الدكتور "زكى نجيب محمود" فى سرد مجمل لتفاصيل مشواره العلمى، فيقول: "فى سنة ١٩٣٧ أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر مجلة "الثقافة" أخذونى لأكتب فيها مقالات فلسفية ونقدية. وفى سنة ١٩٤٢ أصدرت اللجنة لى، بالاشتراك مع "أحمد أمين" - الجزء الأول من "قصة الأدب فى العالم" وقد تبعه خلال الأربعينات ثلاثة أجزاء أخرى.

.. فى سنة ١٩٤٤ سافرت فى بعثة دراسية إلى إنجلترا، واستطعت فى ١٩٤٥

أن أحصل على البكالوريوس الشرفية من الطبقة الأولى في الفلسفة من "جامعة لندن"، وفي ١٩٤٧ حصلت على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن كذلك، وموضوعها "الجبر الذاتي". عدت إلى مصر والتحقت بهيئة التدريس بجامعة القاهرة (قسم الفلسفة في كلية الآداب) مدرساً، فأستاذاً مساعداً، فأستاذاً إلى أن بلغت سن المعاش في عام ١٩٦٥..

«.. وفي سنة ١٩٥٣ دُعيت إلى الولايات المتحدة أستاذاً زائراً، حيث قمت بالتدريس خلال العام الجامعي ١٩٥٣/١٩٥٤ في جامعتين. وفي العام التالي طلبوا إليَّ أن أبقى مستشاراً ثقافياً في السفارة المصرية بواشنطن، وفي ١٩٥٥ عدت إلى مصر لأستأنف عملي بجامعة القاهرة.

«.. خلال الخمسينيات صدرت لي الكتب الآتية في الفلسفة: المنطق الوصفي في جزءين، و خرافة الميتافيزيقا و حياة الفكر في العالم الجديد وترجمة تاريخ الفلسفة الغربية لبرتراندرسل و فلسفة برتراندرسل و فلسفة ديفيد هيوم وترجمة كتاب جون ديوى "المنطق – نظرية البحث و نحو فلسفة علمية وعن هذا الكتاب نلت سنة ١٩٦٠ جائزة الدولة في الفلسفة.

«.. وفي أوائل الستينيات صدر لي جابر بن حيان و الشرق الفنان. ولهذا الكتاب الصغير أهمية خاصة لأنه اشتمل على فكرتي عن ثقافة الشرق العربي، وهي الفكرة التي أصبحت محور نشاطي خلال السبعينيات كلها. في ١٩٦٥ أصدرت باسم وزارة الثقافة في مصر مجلة "الفكر المعاصر وبقيت أشرف على تحريرها أربع سنوات. سافرت بعدها إلى الكويت أستاذاً للفلسفة في جامعتها، وعدت إلى مصر. ودعيت للانضمام إلى الأسرة الأدبية بجريدة "الأهرام". وفي سنة ١٩٧٥ نلت جائزة الدولة في الأدب. وابتداء من ١٩٧٠ وحتى اليوم تصدر لي الكتب تباعاً في موضوع رئيسي هو محاولة الجمع بين التراث العربي الإسلامي، وثقافة هذا العصر في صيغة واحدة. وأهم تلك الكتب: "تجديد الفكر العربي". "المعقول واللامعقول في

تراثنا الفكري"، "ثقافتنا في مواجهة العصر"، "مجتمع جديد أو الكارثة"، "هموم المثقفين"، "هذا العصر وثقافته".. إلخ».

يبقى أن نذكر أن الدكتور "زكي نجيب محمود" خشي أن تكون رسالته غير واضحة أو أن تكون سطورها مهزوزة بسبب المرض الذي كان قد أصاب عينيه في أواخر أيامه، فكتب على هامش الرسالة، وبخط مائل عبارة مؤثرة، تقول:

«الخط في الخطاب، وعلى الغلاف، خطٌّ أعمى.. فاعتذر!».

سمير أمين:
لسنا منكم ولستم منا!

قبل فترة التقيت بالمفكر المعروف د. "سمير أمين"، وعرفت منه أنه من مواليد عام ١٩٣١، وبعد أن أنهى دراسته فى المرحلة الثانوية فى مصر، جاء إلى باريس عام ١٩٤٧ ليدرس الاقتصاد، وحصل على عدد من الدبلومات المتخصصة فى فروعه المختلفة آخرها شهادة الإجريجاسيون فى عام ١٩٥٧. كما حدثنى الدكتور "سمير أمين" عن حياته وقت أن كان طالباً، وعن حجرته المتواضعة التى كان يسكن فيها بالحى اللاتينى.

لكن ما استوقفنى بحق فى حياة الرجل (الذى وضع أكثر من ثلاثين مؤلفاً فى علوم الاقتصاد، ويشغل حالياً منصب رئيس منتدى العالم الثالث ومقره داكار بالسنغال) أنه كان يعيش حياة طلابية مليئة بالحركة والنشاط والأفكار.. فذكر لى أنه كان يصدر جريدة بعنوان «جريدة الطالب المناهض للاستعمار» يشترك معه فى تحريرها أكثر من عشرة أشخاص، ينتمون إلى جنسيات مختلفة لكنهم حول ذات الأفكار والنضال من أجل الديمقراطية.

فكان يعمل فيها أشخاص من ڤيتنام، والهند، وإندونيسيا، ومالى، وغانا، والبرازيل. كما كانوا يلتقون فى أوقات محددة كل أسبوع فى المقاهى القريبة من منطقة سان ميشيل، ويقطعون الساعات الطوال فى النقاش والتشاور حول مستقبل شعوبهم، وحقهم فى تقرير مصيرها. كما كانوا يتبادلون الرؤى حول سبل مكافحة الاستعمار وتطبيق خطط التنمية فى بلادهم.. أما إذا تصادف وجاء إلى باريس أحد كبار المناضلين من أى دولة من دول العالم الثالث، فكان زملاؤه يتنادون ويتجمعون للقائه والحوار معه.

ما ذكره لى "سمير أمين" حول الأنشطة الطلابية العربية فى باريس قبل أكثر

من ثلاثين عاماً، والتي كان عضواً بارزاً فيها أصابني بالفجيعة، عندما فشلت في أن أعثر عبر ذاكرتي، أو من خلال متابعتي للأحداث العربية في باريس، على موقف متضامن واحد سجله الطلاب العرب في باريس، وهم كثر، في السنوات الأخيرة. فباريس كما نعلم مكتظة بالطلاب من كل الأقطار، وأكاد أقول إن أي شاب عربي «مخضرم» يمكن أن تقع عليه عيناك في باريس لو سألته عن سبب مجيئه إلى هذه المدينة، لأجابك على الفور أنه جاءها طالباً ودارساً في جامعاتها.

غائبون.. ومُغيَّبون

وحتى لا يتهمني أحد بالتجني أو بإصدار الأحكام الجُزافية، تعالوا معاً نتذكر الأحداث الثلاثة التالية:

* حين تفجرت أزمة المُبعدين الفلسطينيين الذين استبعدتهم إسرائيل من بلدهم جبراً وقسراً، وبتهمة أنهم أشخاص غير مرغوب فيهم!

* ثم تفجرت بشكل دامٍ في الفترة السابقة مشكلة أحداث البوسنة، وما يتعرض له أهلها من إبادة عرقية، واعتداءات واغتصابات، وقتل ومازال المسلسل مستمراً في كوسوفو..

* وحين اجتاحت الدبابات الإسرائيلية الجنوب اللبناني وأمطرته بوابل نيرانها، وشردت مئات الأسر، وهدمت قرى بكاملها..

السؤال الآن: ماذافعل الطلاب والدارسون العرب الذين تجدهم تحت كل حجر في باريس؟ هل سمعنا يوماً عن ورقة إدانة تحمل إمضاءات ولو وهمية ـ تتحدث باسم هؤلاء الدارسين؟ وهل فكرت رابطة طلابية واحدة من روابط الطلاب العرب في باريس أن تنظم مسيرة احتجاج واحدة ـ وهو حق يكفله القانون الفرنسي لأية جماعة على كل حال ـ تعبر فيها عن تألمها، وهذا هو أضعف الإيمان ـ لما يحدث للمبعدين الفلسطينيين أو لإخوانهم في الدين من أبناء البوسنة، أو لأبناء الشعب اللبناني في الجنوب؟

المؤسف أن شيئاً من هذا لم يحدث! وأعود لما قاله الدكتور "سمير أمين" وأتحسر، عندما ذكر لي أن الطلاب العرب من أبناء جيله كانوا لا يعرفون الفصل بين مصري وسوري أو مغربي أو سوداني.. فالكل عرب، وبالتالي فالقضايا التي تؤرقهم هي قضايا عربية بالأساس وليست قضايا إقليمية، كما هو حادث اليوم. كما أنهم كانوا يدافعون عن حق الشعوب في أفريقيا السوداء وفي آسيا وأمريكا اللاتينية في تقرير مصيرها، بالدرجة نفسها من الحماس التي يدافعون بها عن حقوق شعوبهم العربية في مشرق العالم العربي ومغربه.

ماذا حدث لهؤلاء:

ويتساءل الدكتور "سمير أمين" في حسرة، ويقول: «ماذا حدث لهؤلاء الطلاب. بل ماذا حدث للعرب؟ فالإخفاقات أصبحت هي النتيجة الطبيعية لكل طريق يسلكونه.. صدقني إنني أشعر بالحزن يكاد يفتك بعقلي وروحي، فكل المبادئ العظيمة التي عشنا لها. ودافعنا عنها.. أصبحت رمالاً تذروها الرياح.إنني أبحث عن أثر واحد لمؤلفاتي الثلاثين في أي ركن من أركان منطقتنا العربية الممتدة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. فلا أجد. فالمحقق أننا نعيش عصر الأزمات الكبرى. أزمة في الاقتصاد، وأخرى في السياسة. وثالثة في الثقافة، ورابعة في الأخلاق وخامسة. وسادسة.. إلخ».

وعندما سألت الدكتور "سمير أمين" ــ الذي بدا مُلتاعاً بحق ـ عن طريق الخلاص من كل هذه الأزمات، صمت لحظة طويلة، وقال في صوت مُشبع بالألم والأوجاع: «التاريخ يا فتى لا يعرف السرعة، ولذلك فنحن في حاجة إلى عشرين أو ثلاثين عاماً لكي تتبدل الأحوال. ويبزغ لنا في الأفق أمل جديد».

وقبل أن ينهض الرجل اقترب مني وهمس في أذني، وقال: «نخطئ كثيراً إذا اعتقدنا أن الطلاب العرب اليوم هم أبناء طلاب الأمس. فنحن نؤمن بالمبادئ ونحترم

المثل ونضحى من أجل تحقيقها، ونفخر إذا سقط منا فى الطريق واحد أو عشرة..
أما طلاب اليوم، فهم غائبون أو مغيبون سواء داخل بلادنا العربية أو خارجها». ثم
شد الرجل على يدى مودعاً، وقال فى إحباط بالغ قبل أن يغادر المكان: «لسنا منكم
يا فتى، ولستم منا!».

الفصل السابع

ذكريات باريسية..

- "زينب" هيكل فى باريس..
- لطفى الخولى: عبدالناصر سكب الزيت على النار!
- أنور عبدالملك: فى حياتى هؤلاء.
- "مدرسة المشاغبين" المصريين فى ليون.
- عبدالرحمن بدوى.. إسلاميات "الثراء أم الأحباط"؟

"زينب" هيكل.. فى باريس

إن قصة تأليف الدكتور "محمد حسين هيكل" لروايته الشهيرة "زينب" هى قصة لا تخلو من طرافة. فالدكتور "هيكل" سافر إلى باريس مبعوثاً من قبل والده ـ وليس من قبل مؤسسة ـ لإتمام دراسته العليا فى جامعة "السوربون"، ووصلها بالفعل فى ١٣ يوليو عام ١٩٠٩ عشية الاحتفال بعيد الحرية فى فرنسا، الذى يخرج فيه الناس بعد أن "يتحرروا من كل القيود"، ويرقصون فى الشوارع حتى الصباح.. ويُقبِّل بعضهم بعضاً رجالاً ونساءً، ابتهاجاً بيوم الحرية وسقوط الاستبداد فى عام ١٧٨٩ ذكرى الثورة الفرنسية.

ويصف الدكتور هيكل هذه الاحتفالات فيقول: «كان لهذا المنظر أبلغ الأثر فى نفسى، لأننى رأيت حرية الأفراد، وحرية الوطن مُجسمتين أمام عينيَّ على نحو لم آلفه فى وطن قط!». ثم اختار هيكل موضوعاً للدكتوراه بعنوان: «دَيْنُ مصر العام». وقد كان "هيكل" يود أن يبحث موضوعاً آخر يتعلق بالتشريع المصرى للعمل والعمال، لكنه وجدهموضوعاً "مجدباً" حسبما يروى فى مذكراته.

هيكل والأدب الفرنسى:

بين ساعات البحث والتحصيل فى القانون، كانت القراءة فى الأدب هى الواحة

التى يأوى إليها مُستريحاً من عناء الأحكام، وصرامتها. فأقبل على دراسة الآداب الفرنسية التى أعجب بها كثيراً، ووجد فيها جزالة وطلاوة لم يجدهما من قبل فى الأدبين العربى والإنجليزى. يذكر فى يومياته أنه قرأ كتاب "الحكومة النيابية" لجون ستيورات مل فى ترجمته الفرنسية، وقرأ لفيكتور هوجو، وحفظ له قصيدة «الفقراء»، وقرأ كتاب أرفج الأمريكى عن تاريخ سيدنا محمد، ورواية "النبى الأبيض" لهول كين. وأعلن فى يومياته أيضاً إعجابه برواية "أندروماك" كما قرأ لكُتّاب كثيرين من بينهم أرنست رينان، وموليير، وحضر عروض بعض روايات الأخير على المسرح. فقد كان يقضى وقت فراغه فى القراءة، فإذا ملها وأراد الترويح عن نفسه ذهب إلى المسارح الباريسية.، كما أننا نعرف، ولع الدكتور هيكل بالفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسى "جان جاك روسو" الذى قرأه بعناية شديدة، كما قرأ أهم ما كتبه النقاد عنه. وقد أهدى كتابه عن "روسو" إلى مصر الحرة، وإلى القلوب الخفاقة بمعانى الحرية والعدالة والإخاء. وقال: «هذا الكتاب صورة لأب من آباء الحرية والمساواة، وقديس من قديسى العدالة الاجتماعية الصحيحة».. وفى زخم هذه القراءات والتأملات كان الدكتور هيكل يعانى حنيناً جارفاً لبلده مصر، التى لم تبرح خياله لحظة واحدة، وكانت تلح على خاطره فى كل خطوة يخطوها. وكثيراً ما كان يُقارن بين ما يرى فى ربوع فرنسا، وما رآه وعاشه فى قرى مصر.

ويذكر هيكل أن قراءاته الكثيرة فى الأدب الفرنسى، وما رآه فيه من سلاسة وسهولة إلى جانب الدقة فى التعبير والوصف، والبساطة فى العبارة.. اختلط فى نفسه ولعه بهذا الأدب الجديد مع حنينه العظيم إلى وطنه .. فقام بتصوير ما فى خاطره من ذكرياته لأماكن وحوادث وصور مصرية.. يقول:

«بعد محاولات غير كثيرة انطلقت أكتب "زينب" وبدأتها وأنا أحسب أنى سأقف منها عند أقصوصة صغيرة كغيرها من الأقاصيص التى كتبت يومئذ. لكنى رأيت نفسى انْفَسحَ أمامها مجالُها، ورأيت مصر تُطْوَى وتُنْشَر أمام خيالى مناظرُها.

ورأيتني أشعر بلذة دونها كل لذة، كلما سطرت صورة من صور هذا الوطن الذى أحن إليه. ثم راجعتها فرأيتها تترجم عن الحقيقة المُرتسمة فى نفسى. ولم تمض أسابيع على بدئى الرواية حتى رأيتنى اعتزمت إتمامها كما تمت: لأصور فيها حياة الريف المصرى أصدق تصوير كنت أستطيعه».

الحنين إلى الوطن:

الحنين إلى مصر كان الدافع الأول لكتابة أو، إن شئنا الدقة، فلنقل لولادة هذه الرواية. هذا ما يؤكده الدكتور هيكل عندما يقول فى مقدمته للراوية: «لولا هذا الحنين ما خط قلمى فيها حرفاً، ولا رأت هى نور الوجود. فلقد كنت فى باريس طالب علم، يوم بدأت أكتبها. وكنت ما أفتأ أعيد أمام نفسى ذكرى ما خلفت فى مصر مما لا تقع عينىّ هناك على مثله. فيعاودنى للوطن حنينٌ فيه عذوبة لذّاعة لا تخلو من حنان، ولا تخلو من لوعة».

وقد استغرقت كتابة هذه الرواية ما يقرب من عام، فقد بدأ هيكل كتابتها فى إبريل عام ١٩١٠ وفرغ منها فى مارس عام ١٩١١، لكنه لم ينشرها إلا فى عام ١٩١٤ أى بعد أن عاد إلى مصر، واشتغل بالمحاماة.. وكان قد كتب بعض فصول منها فى لندن، وأخرى فى جنيف أثناء عطلة الجامعة فى أشهر الصيف. يذكر أنه حين كان فى سويسرا، كثيراً ما كان يبهره منظر من مناظرها الساحرة، فيسرع إلى كراسة «زينب» لينسى إلى جانبها منظر الجبل والبحيرة والأشجار، حيث تتسرب من خلال أوراقها وغصونها أشعة الشمس أو القمر، لتتلاعب بموج الماء وتداعبه. ويستعيد مناظر الريف المصرى، وجمال خضرته الناضرة، التى كانت مرتسمة أمام ناظره، وإذا به يسطر ما يمليه عليه خياله قبل أن يكتب شيئاً عما رآه، وكان له فى نفسه وفى مشاعره الأثر البالغ.

أما أطرف ما يرويه الدكتور "هيكل" عن ولادة روايته «زينب» ومتى وكيف كان يكتب فصولها فى باريس؟ أنه كان يشعر على حد تعبيره «بشهوة» تتملكه فى

ساعات الصبح الأولى، فتوقظه من نومه وتجذبه إلى الورق والقلم، وكأنه مُسَيَر لا إرادة له في ذلك.. ليجد أحداث قصة «زينب» تتوافد بقوة واندفاع إلى رأسه، وما عليه فقط سوى أن يسجلها بقلمه.. وكثيراً ما كان يذكرنى حالة برأى شهير للشاعر إن ذلك الحال يذكرنى تماماً بمقولة الشاعر الفنلندى المعاصر "بانتي هولابا" يقول فيه: «الأفكار تسبح في الهواء، والصدفة وحدها هي التي تُقرر عند مَنْ تسَجَل».

ومن الأشياء الطريفه التي يذكرها الدكتور "هيكل" أنه قبل أن يبدأ الكتابة كان يُسدل أستار نوافذ الحجرة التي يجلس فيها، ليحجب ضوء النهار، ثم يضيء مصابيح الكهرباء. كأنما يريد أن ينقطع عن حياة باريس، ليرى في وحدته وانقطاعه حياة مصر في ذاكرته وخياله.

زينب الحلوة السنيورة!:

ويعترف "هيكل" أخيراً بأن «زينب» التي اكتملت ولادتها في مارس عام ١٩١١ «هي "مناظر وأخلاق ريفية" صورها قلم مُقيم في باريس مملوء - مع حنينه لمصر - إعجاباً بباريس وبالأدب الفرنسي. وهي ثمرة الصبا بما للصبا وللشباب من قوة وضعف، وتوثب واندفاع، وشعور سامٍ لا يحدَه مدى، ومخاوف وآمال لا تزال تخالطها آثار السنين الناعمة الأولى».

وكان هيكل قد اكتفى في الطبعة الأولى لرواية «زينب» بوضع كلمتى «فلاح مصرى» بدلاً من اسمه.. أما لماذا هذا الاختيار.. فيجيب: «لقد دفعنى لاختيار هاتين الكلمتين شعور شباب لا يخلو من غرابة، وهو هذا الشعور الذى جعلنى أقدم كلمة "مصرى" حتى لا تكون صفة للفلاح إذا هي أُخرت فصارت "فلاح مصرى". ذلك أنى، إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ـ كنت أحس كما يحس غيرى من المصريين، ومن الفلاحين بصفة خاصة، بأن أبناء الذوات وغيرهم ـ ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر - ينظرون إلينا جماعة المصريين، وجماعة الفلاحين بغير مايجب من الاحترام. فأردت أن أستظهر على غلاف الرواية التى قدمتها للجمهور يومئذ، والتى قصصت

فيها صوراً لمناظر ريف مصر وأخلاق أهله، أن المصرى الفلاح يشعر فى أعماق نفسه بمكانته، وبما هو أهل له من الاحترام، وأنه لا يأنف أن يجعل المصرية والفلاحة شعاراً له يتقدم به للجمهور، يتيه به ويطالب الغير بإجلاله واحترامه».

وفى النهاية، وحتى قبيل وفاته، كان المؤلف (الدكتور هيكل) يرى أن ابنته «زينب» تمثل شبابه تمثيلاً صحيحاً، وأن فيها كثيراً مما يحب، سواء لأنها تمس عالم الذكرى أو لأنها تمثل أحلام الشباب وخيالاته.. ولذلك كان يحن إليها ولأحداثها، كما يحن القلب إلى مثوى محبوب ذهب ولن يعود..

لطفى الخولى:
"عبد الناصر" سكب الزيت على النار!

كان الجو يتظاهر بالصحيان، فتشرق شمسه حيناً، ثم تلفه الغيوم أحياناً عديدة، عندما اختار المفكر الراحل "لطفى الخولى" أن يجلس على "تراس" إحدى مقاهى الحى الخامس عشر فى باريس القريب من مبنى هيئة اليونسكو، حيث كان يشارك فى أحد مؤتمراتها. وعلى "أنفاس" سيجاره الشهير، ورائحة القهوة الباريسية التى يشربها عادة بدون سكر، ويتلذذ برشفها ببطء وتكاسل.. تقاطرت الذكريات على رأسه، وبدأت بباريس التى جاءها لأول مرة عام ١٩٥٦ بدعوة من "الحزب الشيوعى الفرنسى" للمشاركة فى الاحتفال بصحيفة "الأومانيتيه" .. يقول:

«كان احتفالاً مهيباً أشبه بالمهرجان، لأنه كان يشمل مناقشات وندوات، وعروضاً مسرحية. وأغانى، وأذكر أنى استمعت فيه لإيف مونتان والمغنى الفرنسى الشهير الذى رحل عن دنيانا .. والتقيت برئيس تحرير "الأومانيتيه"، وتحاورت مع عدد من قادة الحزب، والمكتب السياسى، كما التقيت بعدد من الزعماء الأفارقة ومنهم سيكتورى. ثم توالت زياراتى لهذه المدينة التى وقعت من قلبى موقعاً طيباً، لأنها ذات وجوه متعددة. فهى مدينة كبار المفكرين من طراز سارتر وسيمون دى بوفوار ودافيد روسيه الذين التقيت بهم جميعاً، وامتدت حواراتى معهم لساعات طويلة.. كما أنها مدينة فرانسوا ميتران (الرئيس الفرنسى الإشتراكى السابق) الذى التقيت به فى وقت مبكر، ودعوناه إلى مصر عام ١٩٧٤ وناقشه رفاقنا من المثقفين المصريين فى عدد من القضايا السياسية المطروحة وقتئذ. ولا أنسى لقائى الأول بميشيل روكار (أحد أشهر رؤساء الحكومة الفرنسية فى زمن الرئيس ميتران)، وأذكر آنذاك أنه كان شاباً متحمساً للفكر الاشتراكى ولا يخفى مشاعره المتعاطفة مع العرب والفلسطينيين. وإذا لم تخنى الذاكرة، أعتقد أنه كان يرأس وقتئذ ما يسمى بالحزب

"الاشتراكي الموحد".. ثم هناك المقاهي الشهيرة في باريس، والتى يعاودني الحنين إليها دائماً، وكذلك الأزياء التى أبدع فيها إيمانويل أونجرو الذى كنت أعرفه جيداً، وهو صاحب فلسفة "أن اللباس لا يجب أن يتحول إلى سجن".

سيجار.. وأفكار:

يخلو "الطفى الخولى" لحظة قصيرة إلى سيجاره، ثم يعود فيقول:

«ما أزال أذكر أن استقبال الشخصيات السياسة الفرنسية التى رأيتها عند زيارتى لباريس فى عام ١٩٥٦، كان استقبالاً حاراً، وكانوا يكثرون من طرح الأسئلة حول مصر، والعالم الثالث، وحركة عدم الانحياز، لأن العصر فى ذلك الوقت كان يعرف بعصر "باندونج" نسبة إلى "مؤتمر عدم الانحياز" الذى قامت فيه مصر بدور محورى، وأصبحت من بعدها جزءاً من حركة قيادة العالم الثالث، وأحد مراكز صنع القرار فى العالم أجمع. وكان اسم الرئيس "جمال عبد الناصر" يدوى فى الآفاق، كأحد الظواهر السياسية الجديدة..

«لقد كانت مرحلة ذهبية بالنسبة لمصر، ولدورها الحضارى فى المنطقة. كما كان السياسيون الرجعيون فى فرنسا لا يذكرون اسم "عبد الناصر" إلا مسبوقاً بكلمة "كولونيل". أما الاشتراكيون والتقدميون فكانوا يطلقون عليه اسم "ناصر ـ مصر". وأعتقد أن حفاوة الفرنسيين فى ذلك الوقت، جاءت من شعورهم بأهمية مصر، التى أحدثت هزة تاريخية لا مثيل لها فى العالم، بقرار تأميمها لواحد من أضخم مشاريع الشركات العملاقة متعددة الجنسية، وهو مشروع "قناة السويس" وبتحديها للتحالف العسكرى والسياسى والاقتصادى لبريطانيا وفرنسا وإسرائيل..

«.. أما الولايات المتحدة الأمريكية، فقد استوعبت الدرس سريعاً، وشعرت أن تأميم قناة السويس هو بداية عالم جديد، بدأ يتشكل فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. ولذلك تحفظت تجاه حملة السويس.. وكانت هذه الرؤية صحيحة فى اعتقادى، لأن قيادات العالم بما فيها قيادات العالم الثالث مثل "عبد الناصر" فى

مـصـر، "وشـوان لاى" فى الصـين، "وتيـتـو" فـى يوغـوسـلافـيـا، و "سـوكـارنو" فى أندونيسيا، و "نهرو" فى الهند. وبالإضافة إلى هذه التراكمات الثورية من جانب دول العالم الثالث، سكب "عبد الناصر" الزيت على النار، عندما كسر الاحتكار الغربى للسلاح بالصفقة التى عقدها مع الاتحاد السوفييتى والصين من ناحية، وقيامه بالدور الرئيسى فى تكوين الكتلة الثالثة، كتلة العالم الثالث التى لم يكن أحد يتوقعها، من ناحية أخرى.. ومع اشتعال الثورات فى إفريقيا وأمريكا اللاتينية، بدا أن الإنسانية مقبلة على صياغات جديدة أكثر حرية، وعدالة باتجاه السلام».

غياب الرؤية:

عند هذا الحد من الحديث، بدأت ذكريات لطفى الخولى تنهمر (لا تتقاطر فحسب)، بعد أن أضاف إليها تحليله ورؤيته النقدية الخاصة بسير الأحداث فى ذلك الوقت، واستطرد يقول: «لقد غابت عن رءوسنا حقيقة مهمة، هى أن اللحظة التاريخية التى تنفسنا هواءها بعيد مؤتمر باندونج، عبارة عن زواج بين الذاتيات القيادية مثل "ناصر" و "نهرو"، وبين الظروف الموضوعية التى كانت تسير حتماً باتجاه انتهاء الاستعمار التقليدى، ثم بداية امتلاك الشعوب لمواردها وحقها فى تقرير مصيرها.

«. وعندما أتأمل هذه الظروف اليوم، يتبين لى أن هذه الحركات التحررية فى العالم الثالث لم يكن لها سوى مدها وقوتها الشعبية والعاطفية، ولم تتبلور عن نظرية للنهضة، اللهم إلا بعض القوانين الإنسانية العامة للتغيير والحركة والثورة، وهى غير كافية فى الواقع لصياغة نهضة اجتماعية واقتصادية وثقافية. لقد كان ينقصنا إعمال الفكر فى إطار واقعنا الاجتماعى والسياسى والاقتصادى الذى يختلف بطبيعة الحال، عن واقع البلاد المتقدمة، سواء الاشتراكية أو الرأسمالية. وهو ما كان سيقودنا بالضرورة إلى ما أسميه "بالقوانين الوطنية للحركة والتغيير" فى إطار القوانين العامة. للأسف لم نستطع أن نتوصل إلى هذه القناعات، واستغرقنا العمل

السياسى النضالى أكثر من العمل الفكرى. ولقد شغلتنا هذه القضية كثيراً، ففكرنا ـ مجموعة من الرفاق وأنا ـ فى سدّ هذا الفراغ الفكرى، فأصدرنا ـ بدعم من "أهرام هيكل" ـ مجلة "الطليعة": لتكون مجلة فكرية تقدمية ذات نهج اشتراكى. وبعد مرحلة من الصراع ذقنا فيها مرارة السجن، والطرد من العمل، بدأت المصالحة مع النظام الناصرى فى إطار مصالحة تاريخية كبرى، شملت المثقفين الاشتراكيين والليبراليين والديمقراطيين، وقام بالدور الأساسى فيها "محمد حسنين هيكل" رئيس تحرير الأهرام وقتذاك...».

معركتان مؤثرتان:

يضيف "لطفى الخولى": «وبعد خروجى من السجن مباشرة، بفضل جهود الرئيس الجزائرى "بن بلا" الذى كانت تربطنى به، وبالثورة الجزائرية علاقة طيبة، عهد إلى بالإشراف على ما سمّى بصفحة الرأى فى «الأهرام». وبدأتها بنشر سلسلة مقالات عن أزمة المثقفين فى مصر والعالم العربى، فأتت أُكُلها على الفور، لأن الأرض كانت ـ حسبما يبدو لى ـ عطشى لمثل هذه المقالات، ففتحت مجالاً عريضاً للنقاش، وكتب محمد حسنين هيكل عدة مقالات يُناقش فيها الأفكار التى طرحتها..

«.. وأذكر أن قضية الحوار بين مختلف فئات وطوائف المجتمع المصرى بدأت تتجسد بصورة أثارت خوف البعض، وحفيظة البعض الآخر، فاتهمنا "الإخوان المسلمون" وعدد من الرفاق الماركسيين بأننا أصبحنا لسان حال النظام، والمتحدثين باسمه، وزعموا أن صفحة الرأى ليست إلا مصيدة لكل من سيكتب فيها، بدعوى أن المناظرات التى تدور عليها هى بالأساس حوارات وأفكار لحسنين هيكل، ولعبد الناصر..

«.. كنا أشبه بمن وقع بين المطرقة والسندان، فالرفاق الماركسيون يتشددون فى الحكم ضدنا، ويعتقدون أن النظام قد استوعبنا، بينما قادة الاتحاد الاشتراكى

يتهموننا بالشيوعية الإلحادية، يتصورون أننا نريد الاستيلاء على النظام. ومن ثم بدأوا يضيّقون الخناق علينا، ويصطادوننا فى دوائرهم، مرة بالترهيب، وأخرى بالترويع، وثالثة بالطرد من العمل.. لكن من حسنات هذه المعركة أنها فتحت حوارات فى المجتمع بين جماعة المثقفين المهتمين بالمسائل العامة..

« ..وكان يشاركنى فى صفحة الرأى زملاء أفاضل أذكر منهم "د. محمد الخفيف". و"د. مجدى وهبة" و"د. عبد الرازق حسن"، و"د. عبد الملك عودة"، و"ميشيل كامل"، و"د. لويس عوض"، و"د. إسماعيل صبرى عبد الله"، و"أبو سيف يوسف"، و"د. إبراهيم سعد الدين" و"د. جمال العطيفى". ثم من الشباب "حسين شعلان"، و"خيرى عزيز"، وكنا جميعاً من خريجى السجون فيما عدا "جمال العطيفى"، و"مجدى وهبة" و"عبد الملك عودة". وقد جاءت أصداء المعركة مطمئنة لنا، لأن جميع التيارات الفكرية شاركت فى الحوار، وكان أول مفكر نشرنا له تعليقات وردود وقتئذ هو أستاذنا الدكتور "زكى نجيب محمود".

« .. **أما أهم المعارك** التى خاضنها ، فكانت معركة حول تصفية السجون والإفراج عن المعتقلين السياسيين، وقد أخذت شكل المواجهة الحادة والمباشرة مع أجهزة الأمن، والاتحاد الاشتراكى، وكنا نستخدم صفحة "الرأى" فى إرسال رسائل لزملائنا المساجين فى سطور أشبه بالشفرة.. ونجحنا فى تحقيق الإفراج الكلى عن المساجين، مما أعطى صفحة الرأى مصداقية، وانتشرت حتى بين من كانوا يناصبوننا العداء.

..أما المعركة الثانية، فكانت حول ما سُمى بالاشتراكية العربية، وذكرنا أنه لا توجد اشتراكية عربية، وإنما توجد قوانين اشتراكية وإنسانية عامة، لكن الذى يختلف ويتمايز هو أساليب بناء الاشتراكية طبقاً لظروف كل مجتمع.. ولذلك فالأصوب أن نقول إنه يوجد طريق عربى للاشتراكية.. وفى هذا الإطار ظهرت كتابات أكاديمية لعدد من الأساتذة، مثل "رفعت المحجوب" و"يحيى الجمل".. وعندما انحاز الرئيس "جمال عبد

الناصر" إلى وجهة نظرنا أسقط في يد الجميع، فشهروا في وجوهنا الاتهام، وقالوا: إن اليساريين والاشتراكيين هم الذين يسيطرون على الإعلام.. لكن الحقيقة التي يعلمها الجميع هي أننا كنا بالفعل أقلية، لكن تأثير "صفحة الرأي" كان أقوى، مما أذهل الجميع، خصوصاً أننا فتحنا الحوار مع كافة الاتجاهات. وكنا ننتقد كل الأفكار، حتى الأفكار السوفيتية ذاتها. كما ساهمنا بدورنا في صياغة أفكار "الميثاق الوطني" التي كان "عبد الناصر" قد توصل إليها في ذلك الوقت».

«.. **ومن المعارك** التي خضناها أيضاً بنجاح معركة الإفراج عن الدكتور "عبد المنعم الشرقاوي" أستاذ القانون المعروف. والحكاية أن الرجل كان قد التقى أثناء زيارته لإحدى الدول الأوروبية بشخص من الأخوان المسلمين. الذي توسل إليه أن يحمل معه رسالة خطية إلى زوجته وأولاده، فرقّ قلب الرجل (د. الشرقاوي)، لحاله، وحمل الرسالة. لكن فور عودته قُبض عليه في مطار القاهرة وأودع السجن، ومورست عليه صنوف وألوان من التعذيب. وعندما أخبرني شقيقه "عبد الرحمن الشرقاوي" بالواقعة، فتحنا النيران في صفحة الفكر وتناولنا القضية من زاوية حرية المثقف إزاء أجهزة الأمن التي استشرت في البلاد. وأصبحنا «بُعبعاً» مخيفاً. وعرف هيكل بالتفاصيل. وكذلك الرئيس "عبد الناصر" الذي أوصى بعمل تحقيق فوري.. وتم الإفراج عن الدكتور "عبد المنعم الشرقاوي"، واحتفلنا بخروجه من السجن في مكتب الأستاذ "هيكل" بالأهرام..

«.. وكانت لنا تجربة سابقة لصفحة الرأي بالأهرام. وهي تجربة "جريدة المساء" التي أسسها "خالد محيي الدين" بعد عودته من منفاه في سويسرا. وكانت النية مُنعقدة أن يتولى الاشتراكيون الكتابة فيها. ولا أنكر أن العمل مع "خالد محيي الدين" كان مُريحاً، فهو رجل متواضع، واسع الأفق، ويمتاز برجاحة عقل، ورحابة صدر قل أن تجد مثلهما في هذا الزمان».

الحرية تُنتزع:

يصمت "لطفي الخولي" طويلاً، وكأنه يتذكر شيئاً ما بعيداً. فسألته عن مشاعره بعد أن أصبح يفصله عن هذه الأحداث أكثر من ثلاثين عاماً، فأجاب يقول: «إنني أؤمن بأن الحرية لا تتحقق لإنسان دون أن يطلبها ويعاني في سبيلها. ويخطئ من يعتقد أن الحرية تسير وحدها وتتجه إلى الأبواب تطرقها، وتقول لمن يرد عليها: خذني أنا الحرية! وقديماً سخر "كرومر" في مذكراته من الفلاح المصري الذي يجلس في خمول تحت شجرة التوت، ويغني قائلاً: هاتوا لي حبيبي. وغاب من باله أن حبيبه لن يأتي إلا إذا ذهب هو إليه يطلبه. وهكذا حال الحرية لا يمكن أن تمارس على طريقة "هاتوا لي حبيبي". كما أنني لست ممن يقولون إن الحرية شرط مسبق للإبداع والنضال والديمقراطية، لأن النضال والإبداع بشجاعة وقناعة ورؤية تاريخية صحيحة، هو الذي يحقق الحرية. بكلمة أخرى: الحرية تُكتسب لا تُمنح، لأن المانح يمكن أن يكون مانعاً أيضاً».

سألت في نهاية اللقاء "لطفي الخولي" عن قناعاته في الحياة، فأجابني: «قناعاتي هي أن الجغرافية لا تصبح تاريخاً وحياة إلا إذا خصبها الإنسان بعمله وعقله».

فقلت: هل صدمك انهيار الشيوعية؟

قال: «كانت صدمتي لا حد لها. لكن لا تنسَ أنني كنت على يقين من هذه النهاية، لأن الشيوعية كان لابد لها أن تنهار سواء، جاء "جورباتشوف" أو لم يجئ. وأنا حالياً أعيش مرحلة مراجعة شاملة لتجربتي الفكرية»..

قلت: أما زلتَ ماركسياً؟

قال: «نعم. لا أنكر أن الماركسية جزء من تكويني الفكري، وبخاصة قوانين الجدل الأربعة في النظرية الماركسية، لكنها لم تعد المصدر الوحيد للفكر الاشتراكي، إذ أن الحياة طرحت أشياء جديدة، لم يكن يعرفها "ماركس" أو "لينين"..».

أنور عبد الملك: فى حياتى.. هؤلاء

.. كنا نقطع الطريق ـ المفكر المصرى الدكتور "أنور عبد الملك" وأنا ـ بين محطة "جار دى ليست" والحى الثالث عشر المعروف بالحى الصينى فى باريس، عندما أشار "أنور عبد الملك" من خلف زجاج سيارته ناحية بيوتات الحى اللاتينى بالقرب من نافورة ميدان "سان ميشيل"، وقال لى فى نبرة مشبعة بأوجاع الذكريات الدفينة:

«هنا، وتحديداً فى المنزل رقم ١٢، كان يسكن واحد من أعز، وأخلص أصدقائى، إنه الفنان دينو عابدين، حفيد "عابدين باشا" الذى كان ضابطاً برتبة اليوزباشى، وجاء مع قائده الشاب "محمد على" لحماية مصر من الفرنجة عام ١٨٠١. فكان أن أطلق "محمد على" اسم "عابدين" على القصر الذى كان يعرف فى ذلك الوقت بقصر الوالى، ثم لاحقاً بقصر الملك، وحالياً بالقصر الرئاسى..». واستطرد الدكتور "أنور عبد الملك" يحدثنى عن صديقه الفنان الذى غادر دنيانا..قبل سنوات.. فيقول:

«تعرفت عليه من خلال صديقة مشتركة لنا هى الفنانة "إنجى افلاطون" عام ١٩٦١، فانجذبت إليه، وارتبطت به وبفنه، وأصبح مرسمه الباريسى ملتقى لرجال الفكر والعلم والشخصيات السياسية العالمية. وبفضله. وإلى جواره، تفتحت أمامى عوالم الفن، وخاصة التصوير العالمى، من أوسع الأبواب. ولا أنسى ما حييت ذلك اللقاء الذى جمعنى فى منزل صديقى "دينو عابدين" بالشاعر التركى الكبير "ناظم حكمت"، الذى أنشد ذات مساء قصيدة "بورسعيد" فانبريت أعبر له عن صدى هذه القصيدة فى الوجدان المصرى.. فكان أن طلب إلىَّ أن أقدم بعض الأمثلة، فأنشدت قصيدة زميل النضال الشاعر الثورى الكبير "كمال عبد الحليم"، الذى يقول فيها:

هذه أرضى أنا وأبى مات هنا

وأبى قال لنا مزّقوا أعداءنا».

غرق الدكتور "أنور عبد الملك" فى لحظة صامتة، لم أشأ أن أفسدها عليه، بينما

كانت سيارته التى يقودها بمهارة، تنهب الطريق الفسيح أمامنا. وعندما توقفنا فى إشارة مرور حمراء، التفت المفكر المصرى الكبير إلى يساره، فوقعت عيناه على لائحة مكتوب عليها: «بنك بكين الشعبى»، فعاد يتدفق حديثه حلواً، ندياً. وهو يقول: «كان الرئيس الفرنسى "جاك شيراك" هو أول من سمح بافتتاح هذا البنك، عندما كان عمدة لباريس.. وهى خطوة تعكس بوضوح إلى أى حد كان هذا الرجل يُدرك أهمية الانفتاح على آسيا، وتحديداً الصين.. فالزيارة التى يقوم بها حالياً (كان الرئيس شيراك يقوم فى ذلك الوقت بزيارة للصين واليابان وسنغافورة، على هامش مشاركته فى مؤتمر القمة الآسيوية الأوروبية المنعقد فى بانكوك) هى تتويجه لفكرة طالما راودته عندما كان بعيداً عن كرسى الرئاسة فى قصر الإليزية.. ولاشك أنها خطوة جريئة وبارعة فى الاتجاه الصحيح، لأننى أعتقد منذ أكثر من ثلاثين عاماً أن آسيا ستكون هى مركز العالم فى المرحلة المقبلة..».

"ماو" علّمنى:

وفى نبرة حزينة بعض الشىء، استطرد الدكتور "أنور عبد الملك" يقول: «لقد كتبت منذ خمسة وثلاثين عاماً، بحثاً أكاديمياً، أنصح فيه زملائى من المفكرين الفرنسيين بأهمية الالتفات إلى آسيا، فأعرضوا عما أقول!! ولعلهم تصوروني أهزى، أو أقول ما لا أعى، لأن الفكرة التى كانت تسيطر على الأذهان فى ذلك الوقت هى فكرة أوروبا، ثم الطوفان بعد ذلك.. واليوم يتبين أن ما كنت أقوله هو الصواب عينه، أما هم فكانوا واهمين!».

وبحكم متابعتى لأبرز محطات الفكر فى حياة الدكتور "أنور عبد الملك"، فقد كنت أعرف أنه مهتم بالصين ودول النمور السبع، وقارة آسيا بالإجمال. وأن هذا الاهتمام يرجع فى جذوره إلى أسباب فكرية، من بينها افتتانه الفكرى بالزعيم الصينى الراحل "ماو تسى تونج" الذى كتب عنه الدكتور "أنور عبد الملك" فى مذكراته، يقول: «تعلمنا من "ماو تسى تونج" أن التناقض هو جوهر الوجود، وأن

الجبهة الوطنية المتحدة تعلو على أى اعتبار حزبى ضيق، وأن الخط الجماهيرى العام والمسيرة الطويلة دون سيادة التكتيك وانتهاز الفرص هو التوجه الوحيد الجدير بصياغة العالم الجديد، وأن الفلسفة هي المحور الرئيسي لتحريك السياسة، وأن السياسة تنطلق من الكفاح المسلح التحريرى، وأن الشعر والجمال والحب معان ثابتة يجب الاعتزاز بها».

ثم يسترسل قائلاً: «فوق هذا وذاك إن من يسعى إلى التقدم يجب أن يتعلم كيف يناضل لكى لا ينحنى. ذلك كان جوهر خطبته التاريخية فى ميدان "تين آن مين" أول أكتوبر ١٩٤٩ معلناً تحرير الصين وتأسيس "جمهورية الصين الشعبية". وهذا على كل حال هو الفكر التحريرى الذى تبناه "شهدى عطية الشافعى" وشهداء معركة "التل الكبير"، و"محمد فريد" و"عبد الرحمن فهمى"، و"سعد زغلول"، و"جمال عبد الناصر"...».

ويختم الدكتور "أنور عبد الملك" هذه الخاطرة حول "ماو تسى تونج" والتى سجلها فى مرحلة مهمة من مراحل تكوينه الفكرى.. بقوله: «انطلق "ماو تسى تونج" من تعاليم أستاذه "صن تزو"، الذى استطاع من خلال مؤلفه "فن الحرب" أن يهدى أمراء الصين إلى طريق وحدة الإمبراطورية. وقد قرأت فيه عبارة هزتنى بعنف، وظللت أرددها مرات ومرات بإعجاب وافتتان بالغين.. العبارة تقول: "ليس أعلى مقام فى المهارة أن تقهر قوات العدو مائة مرة فى مائة معركة، وإنما قمة المهارة تكمن فى أن تقهر استراتيجية العدو"».

اللقاء الأول فى كازينو "بديعة":

كان الطريق سهلاً ممهداً وشبه خال أمام سيارة الدكتور "أنور عبد الملك" لأن معظم سكان باريس قد غادروها فى الإجازة الشتوية إلى حيث أماكن معروفة يزاولون فيها بعشق رياضة التزلج على الجليد.. وما إن اقتربنا من فندق "لوتوسيا" الشهير، الذى يقيم فيه الفيلسوف المصرى الدكتور "عبد الرحمن بدوى"، والذى أعلم

أن الدكتور "أنور" من أبرز تلامذته والمعجبين المتيّمين به.. حتى تفتحت شهيته فجأة لحديث يفيض حباً، ووفاءً واعترافاً بالجميل..

يقول: «أنا مدين لأستاذي الجليل د. "عبد الرحمن بدوي" في منهجي وخطتي الفكرية منذ بدأت أدرس على يديه علوم الفلسفة والمنطق، وحتى اليوم.. أعترف أنني لم أكن أدرك آنذاك هذا المنهج على نحو ما تم فيما بعد، عندما لبيت دعوته الأولى للعشاء في "كازينو بديعة" على شاطئ النيل في يوليو ١٩٥٤، قابلته بعد تخرج أولى دفعات قسم الفلسفة بجامعة "عين شمس"، وذلك لعرض موضوع دراسة الماچستير. كنت آنذاك أتجه إلى فلسفة التاريخ عند "هيجل"، فإذا به يرفض ويناقشني بعنف، متسائلاً عما في وسعي أن أضيفه إلى سيل المؤلفات حول "هيجل" وفلسفة التاريخ لديه؟! وخاصة أنني كنت آنذاك لا أعرف اللغة الألمانية. قال لي د. "بدوي" حينئذ، أنه سيتشكك في جدوى مثل هذه الدراسة بالنسبة لشباب المفكرين المصريين، مؤكداً بإصرار بالغ أن الواجب يقضي بأن ينكب هذا الجيل الجديد من مفكري مصر على دراسة الفكر المصري في إطاره الحضاري المتخصص، وإلا فمن الذي يقوم بهذه المهمة!!

ويسترسل "أنور عبد الملك" قائلاً: «كان من جراء هذه السهرة والصدام بين رؤيتين، أنني بدأت أراجع نفسي. فرأيت أولاً أن أنكب على دراسة الفكر المصري المعاصر، واتفقنا على تأجيل الموضوع. وبعد مجموعة من الظروف المتشابكة التي عشتها في صدر شبابي، تخللتها فترة صدامية قادتني إلى المعتقل.. عدت إلى تعاليم أستاذي "عبد الرحمن بدوي" وتساءلت: أفلا يكون التوجه واجباً نحو التنقيب عن الجذور الفكرية في مختلف قطاعات المجتمع المصري وحركتنا الوطنية؟ أفلا يكون من اللازم علينا أن ندرس الصياغة التاريخية بمختلف مدارس الفكر والعمل في

مرحلة نهضة مصر منذ انتخاب "محمد على" والياً على مصر (١٨٠٥)؟..

مدرستان فى الفكر والعمل:

« .. لقد كان عند النخبة إدراك بأن ثمة تبايناً فى المناخ الفكرى للقوى السياسية المختلفة. ولكن الشعور باختلاف المناخ شىء، والتنقيب العلمى عن أسباب ونوعية ذلك التنوع شىء آخر. من هنا كان قرارى ـ عملاً بتوجيه أستاذى ـ بدراسة الفكر المصرى. وقمت بتكريس جهودى، فى سنوات البحث العلمى، (بعد المعتقل) لدراسة صياغة الفكر المصرى المعاصر. فكانت رسالة الدكتوراه الأولى فى علم الاجتماع "الفكر السياسى العربى المعاصر" من (باريس ـ "السوربون" ١٩٦٤) ثم رسالة دكتوراه الدولة فى الآداب عن "تكوّن الأيدلوجية فى نهضة مصر القومية ـ ١٨٠٥ ـ ١٨٩٢" (الجامعة نفسها ١٩٦٩) وهو المؤلف الذى صدر بعد ذلك بعنوان "نهضة مصر ..".

ويضيف: «هكذا أمكن التوصل إلى جذور المدرستين الرئيسيتين للفكر والعمل: مدرسة التحديث الليبرالى ابتداء من رفاعة الطهطاوى. ثم وبعد بداية توغل الليبرالية، مدرسة الأصولية الإسلامية حول "محمد عبده"».

وأنهى الدكتور "أنور عبد الملك" هذه الذكريات "العميقة" حول أستاذه ـ وأستاذنا ـ الدكتور "عبد الرحمن بدوى" قائلاً: «لقد كنت أحرص على لقائه فى باريس، حيث كان يطيب له أن يجلس فى مقهى «لو دبيار» المطل على نهر السين، وكنت ألحق به فى وقت الإفطار صباح كل يوم أحد.. لأستمع إليه فى هذه الجلسات الدافئة، وهو يحدثنى عن الوجود والزمان، ومصر دائماً فى البداية والنهاية..

« .. والآن، قد حالت أسباب كثيرة منها أسفارى المتعددة، دون رؤيته أو التحدث معه وإليه. لكننى أعلم أنه يسير على خطة واحدة لا يحيد عنها منذ زمن.. فهو يُقلع من غرفته فى الفندق كل صباح فى السابعة والنصف حتى نهاية اليوم يعمل فى المقعد المخصص له منذ سنوات فى "دار الكتب الأهلية" بباريس..».

وعندما اخترقت السيارة الشارع الذى يسكن فيه الدكتور أنور عبد الملك، فاذا به يشير إلى الطابق الذى كانت تقع فيه شقته الأولى في شىء من حنين موجع ويقول: «لقد كانت أشبه بالمقهى الثقافى والفكرى، حيث يؤمها رجال الفكر وكل المشتغلين بالفلسفة من فرنسيين وعرب، إلى جانب الطلاب من كل حدب وصوب.. وكنا نسهر حتى وقت متأخر من الليل فى نقاش ساخن يخبو أواره حيناً ويحمى وطيسه أحياناً، كما كان مفتاح هذه الشقة ملكاً للأصدقاء. وكم من صديق أمضى فيها أياماً وشهوراً، حيث كان يأتى كثيرون منهم إلى باريس إما للبحث والتزود بالمعارف وزيارة المكتبات واقتناء الكتب أو للنقاهة والاسترخاء.. وتحضرنى الآن ذكرى طيبة وهى أن الصديق "محمد سيد أحمد" الكاتب المعروف بالأهرام، أمضى فى هذه الشقة أياماً لا أحسب أنها ستمحى من ذاكرته.. لأنها كانت أيام "شهر العسل" مع عروسه عندما كان شاباً يافعاً يفيض حماسة وحيوية...».

وكان طبيعياً أن تنتهى بنا جولة رائعة كهذه، فى المكان والزمان والأفكار والبشر، إلى ركن هادئ فى مطعم صينى بالضرورة، فالحى الثالث عشر مكتظ بمثل هذه المطاعم.. وبين «مهارة» الدكتور "أنور عبد الملك" و محاولاتى الفاشلة» فى استعمال العصى الخشبية الصينية الشهيرة فى تناول الطعام.. طلبت إليه أن يسمح لى بكتابة بعض صفحات من تاريخ شقته الباريسية، فوعدنى وعداً غير قاطع، وهو يهز رأسه قائلاً: «دعنى أولاً أستريح».

"مدرسة المشاغبين" المصريين فى ليون!

أدهشنى أن أكتشف أن مدينة «ليون» الفرنسية كانت فى بدايات هذا القرن محط أنظار الطلبة المصريين، حتى لِيقال إن طلبة الحقوق المصريين الذين كانوا يدرسون فيها بلغ عددهم فى عام ١٩٠٨ أكثر من خمسين طالباً.. ثم تزايدوا حتى بلغوا فى أقل من عامين نحو ثلاثمائة طالب فى جميع كليات الجامعة ومدرسة التجارة العليا، وبقية المعاهد، ومنها "المعهد الشرقى" الذى تأسس على أيدى الأستاذ "لامبير" خصيصاً لدراسة العلوم العربية والشريعة الإسلامية، وانتظم للدراسة فيه عدد من الطلبة المصريين أشهرهم "محمد لطفى جمعة" الذى ذهب إلى «ليون» عام ١٩٠٨، ثم الشيخ "مصطفى عبد الرازق" الذى كان يعد أطروحة للدكتوراه فى «ليون» فى الفترة من ١٩٠٩ إلى ١٩١٢، ثم عمل لفترة بالتدريس فى هذا المعهد.

وقد تبين لى من البحث فى سجلات هذه الفترة أن «ليون» كانت تعج بالطلبة المصريين من كل المشارب، خصوصاً الرافضين لممارسات الاحتلال الإنجليزى فى مصر. فأسسوا جمعية مصرية بدون رئاسة دائمة، وإنما يُنتخب رئيس فى كل جلسة كى يتدرب كل طالب على الرئاسة، ويجود كل عقل بخير ما لديه من أفكار. وكانت مهمة هذه الجمعية وطنية بالدرجة الأولى، فأعضاؤها هم مَنْ أجابوا الدعوة إلى عقد المؤتمرات الوطنية المصرية فى "جنيف" و"بروكسل" و"باريس" عام ١٩٠٩، ١٩١٠، ١٩١١ حتى وصفهم أحد الباحثين بأنهم كانوا «جيش مصر المجاهد»، الذى نهض بأعباء ثورة ١٩١٩ بعد أن غرس أفراده بذورها وتعهدوها بالسُقيا، وأنهم الذين نفخوا فى رماد الأمة فأشعلوا النار المقدسة فى قلوب أبنائها.

وهؤلاء الطلبة كانوا من أنبغ الطلاب، وجاءوا ليدرسوا القانون والأدب والتاريخ والاقتصاد والسياسة، وسائر العلوم باشتياق وإقبال حتى حازوا أعلى الدرجات. وظهر منهم نوابغ وفحول كانوا دعائم النهضة الحديثة التى بدأت فى أوائل القرن

العشرين في مصر، وأشهرهم: "مصطفى عبد الرازق"، و "قاسم أمين"، و"محمد فريد"، و"لطفي جمعة"، و"عبد الرزاق السنهوري"، و"بيرم التونسي" الذي أمضى عدة سنوات من منفاه في «ليون».

"ليون" قلعة مصرية:

ويُروى أن مدينة «ليون» وبسبب تحولها في هذه الفترة إلى قلعة من قلاع الوطنية المصرية، كان يُنظر إليها بعين السخط، وتعتبر الجالية المصرية فيها طلاباً ثائرين وكارهين للاحتلال وللحكومة الخاضعة له.. ويقال: إن بعض الآباء كانوا يحجمون عن إرسال أبنائهم لمواصلة دراستهم في «ليون» خشية أن يتعرضوا للاضطهاد بعد عودتهم إلى مصر.. ويذكر "محمد لطفي جمعة" ـ الذي كان يُعاصر أحداث هذه الفترة في «ليون» ويدرس القانون والعلوم السياسية في جامعتها تحت إشراف الأستاذ "لامبير" ـ أن جمعية "الطلبة المصريين" كانت تهتم بكل الأحداث التي تدور في مصر في ذلك الوقت، ولا تتردد لحظة في التجاوب معها سلباً أو إيجاباً.. فيقول: «عندما وصلتنا أنباء من مصر عن إعادة قانون المطبوعات الذي يسعى الإنجليز والخديو إلى تنفيذه، دعونا أبناء الوطن المقيمين في "ليون" وضواحيها. واقترحنا عليهم نشر احتجاج في صحف "ليون" وإلقاء خطاب عن حرية الصحافة.. وبالفعل زرت إدارة جريدتين، وتركت في كل منهما مقالة احتجاج. كما ألقيت خطاباً في اليوم التالي في مقر جمعية "الطلاب المصريين" هناك، في جمع حاشد من الفرنسيين حضره أربعة من كبار محرري الصحف، وبعض مندوبي جمعيات الطلاب. وقد نشرت جرائد "ليون" حينذاك ما دار في هذا الاجتماع..».

تكشف وثائق هذه الفترة من تاريخ الوجود المصري في «ليون» أن الطلاب المصريين كان لهم دور أساسي في عقد المؤتمر الوطني الأول في جنيف بسويسرا، في سبتمبر عام ١٩٠٩.. حيث سافر وفد منهم إلى هناك، والتقى بمحمد فهمي رئيس اللجنة الدائمة لشباب مصر في جنيف. كما قابل شخصاً آخر يدعى "علي

الشمسي . وسافر وفد آخر يضم "لطفي جمعة"، و"حامد العلايلي" إلى باريس، لزيارة كبريات الصحف الفرنسية، ونشر الدعوة فيها للمؤتمر. فالتقى برئيس تحرير الشئون الخاجية بجريدة "الطان"، وذكر له مهمته. ثم توجه إلى جريدة "الدبيا" والجورنال" و"الماتان" و "اكيير". وبعد أن أتم المهمة في باريس ركب البحر إلى "نيوهاتن" ومنها إلى "لندن" للدعوة إلى المؤتمر..

وهكذا، كان «مصريو ليون» نواة كل هذا النشاط الوطني، وكانوا يملأون المدينة، وأحاديثهم عن مصر، والاستقلال، والتحرر لا تنتهي.. يصفهم "مصطفى عبد الرازق" فيقول: «إذا أردت أن تلقى الطلبة المصريين، أُرشدت إلى قهوتين في أحسن مواقع المدينة، واحدة للنهار وأخرى لليل. لكن من الظلم أن تفهم أنك لا تجدهم في غير القهوتين، فإنك تجدهم في أماكن أخرى وفي الجامعة أيضاً. وليس من السهل أن تتعرف إلى أولئك الشبان من بين سائر الناس. فقد مسح عنهم طول المقام في أوروبا شعث وادي النيل فابيضت وجوههم أو كادت، وسلست شعورهم ولانت، بعدما كانت كشعورنا خشنة مجعدة..».

"نجلزة" التعليم ورسالة "لامبير":

إن أسباب إقبال المصريين على الدراسة في جامعة «ليون» ترتبط بشكل مباشر ووثيق بما سُمي في ذلك الوقت بسياسة «نجلزة التعليم»، خصوصاً عقب توقيع فرنسا وإنجلترا على اتفاق عام ١٩٠٤ عُرف باسم "الاتفاق الودي" والذي بمقتضاه وافقت فرنسا على أن تطلق إنجلترا يدها في مصر، مقابل إطلاق يد فرنسا في شمال أفريقيا.

وكان طبيعياً أن تؤدي بنود هذا الاتفاق خلال السنوات الأربع التي تلته إلى تقليص دور فرنسا في التعليم.. خصوصاً أن المدارس الفرنسية في مصر، وهي مدارس عليا في مجموعها، كانت تعمل في ذلك الوقت في خط مواز للمدارس المصرية.. لكن طبقاً لهذا الاتفاق، بدأت إنجلترا في إبعاد الموظفين الفرنسيين عن

الإدارات. ولكنها وجدت أنهم لا يتنازلون عن مناصبهم بسهولة، فعمدت إلى اتباع سياسة الحيل والمضايقات حتى يتركوا أماكنهم بأنفسهم، سيما وأن "بريطانيا العظمى" لم يكن لها الحق ـ حسب الاتفاق ـ فى أن تعين غيرهم فى أماكنهم إلا بعد بلوغهم سن تقاعدهم أو وفاتهم..

وتمكنت إنجلترا ـ بمناورات ذكية ـ أن تتخلص من أكبر المعاندين بتعويضهم عن فقدان مراكزهم بميزات مالية مغرية. لكن الأحداث آنذاك كشفت عن رجال لم يكن من السهل شراؤهم مثل الأستاذ "لامبير" مدير مدرسة الحقوق، الذى رفض أن يخضع للإنجليز، وقدم استقالته بعد أن تولى منصبه بعدة أشهر، وعاد إلى جامعته الأولى فى مدينة «ليون» واصطحب معه معظم طلابه. كما لحق به الآخرون. حتى ليُقال إن أكثر من ٢٠٠ طالب قد سافر إلى «ليون» من أصل ٤٠٠ طالب، وهو مجموع طلاب مدرسة الحقوق فى مصر. فى ذلك الوقت.

أما "الوثيقة" المهمة فى هذا الخصوص فهى الرسالة التى كتبها مسيو "إدوار لامبير" مدير المدرسة عن "تجارة التعليم" فى مصر، حيث شرح فيها أوضاع التعليم وظروفه فى ذلك الوقت، وذكر أسباب تخليه عن منصبه.. وهى وثيقة نادرة تلقى أضواء كثيفة على أوضاع مصر الثقافية والاجتماعية آنذاك وتكشف معادلة السباق بين بريطانيا وفرنسا على مصر.

لام.. يلوم.. لوماً:

يبدأ مسيو "لامبير" رسالته بعرض أسباب تخليه عن منصبه، فيقول: «تركت هذه الوظيفة والأسف يكاد يخرق فؤادى. لأن البقاء فيها لم يعد فى وسع رجل مثلى، جعل حياته وقفاً على العلم. ولأنى لم أكن بقادر على حفظ هذا المنصب ذى الراتب الضخم ما لم أرض بأن أكون آلة صماء لسياسة غير قويمة، ومكدرة لصفاء العلاقات بين المصريين والأوروبيين..

«.. إن الموظف الإنجليزى القابض فعلاً على الإدارة الحقيقية لنظارة المعارف هو

المستر "دوجلاس دنلوب"، الذي كان قبل قدومي إلى مصر بعام قد حارب ناظر مدرسة الحقوق السابق لي مسيو "جرانمولان" بثبات نادر، فغلبه على أمره، وسلب منه سلطته. ثم اغتنم تلك الفرصة التي آلت فيها هذه السلطة إلى العدم، فأخذ يثير مشاعر الطلبة بإصداره أوامر لهم متناهية في القسوة والغلظة، ولا مسوغ لها. حتى جرهم إلى الإضراب. ثم اتخذ إضرابهم ذريعة للتشفي من سلفي الذي كان حاقداً عليه. ولم يكن حظي من المعاملة بأسعد من حظ هذا السلف، إذ كثيراً ما وضعني المستشار الإنجليزي بسوء تصرفاته ـ ولا أدري إن كانت مقصودة منه، أو غير مقصودة ـ في مواقف حرجة عجزتُ عن الخروج منها، وعن توقّي نتائجها. إذ كنت مقيّداً كل التقييد بلوائح تنزع من يدي كل سلطان، حتى في المسائل الفنية الصرفة، والتي آدخلت أيضاً في اختصاص أقلام الوزارة..

«.. حارب المستر "دنلوب" تقدم التعليم الفرنسي في مدرسة الحقوق بلا تبصر. على حين أن تعليم الحقوق في هذه المدرسة لا يزال ـ ويجب أن يبقى ـ تعليماً فرنسياً، مادامت قوانين البلاد لم تتغير تغييراً كلياً. ولأنها عبارة عن ملخص لقوانيننا. ولأنه لا توجد لها شروح ومؤلفات بالعربية إلا في النادر.. وقد مثل المستر "دنلوب" رواية مضحكة للتعليم العالي في مدرسة الحقوق، فأوقف تعيين ما يحتاج إليه القسم الفرنسي من الموظفين، وحجته في ذلك أن مصير هذا القسم إلى زوال في القريب العاجل!».

وبعد أن يستطرد مسيو "لامبير" في شرح خلفيات كثيرة لعلاقته المتوترة "بدنلوب" يقول: «انتهى مستر "دنلوب" أخيراً بالتعرض لكرامتي تعرضاً مؤلماً، وذلك أنه أراد آن يجعلني رغماً عني شريكاً له في الدسائس التي يدبرها ضد وزير وطني هو "سعد زغلول" باشا.. كان يريد مني، أني ما دمت راغباً في البقاء طويلاً بجانبه، فيجب أن أتدنى إلى حد التضحية بضميري، وتعريض نفسي في كل حين للظهور بمظهر الخائن الأثيم آمام الوزير "سعد زغلول" باشا، وفي حقه. ونتج عن كل هذه

الأسباب التى شرحتها أن علاقاتى مع المستر "دنلوب" كانت دائماً ينقصها الود، ثم إنها توترت فجأة على أثر خلاف حدث بسبب تعيين بعض المدرسين.. لكن بعد أن شدد حملته علىّ كما شددها على سلفى، وبعد أن أيقنت أننى قد أصبحت عاجزاً عن حماية موظفى مدرسة الحقوق وتلاميذها من مظالم مستر "دنلوب" اضطررت للسفر إلى بلادى...».

ما اقتطفته هنا من رسالة "مسيو لامبير" يجعلنى أوقن أن قرب هذا الرجل الفرنسى من عقل ونفس الطلبة المصريين فى ذلك الوقت، وظهوره بمظهر المدافع عن حقوقهم خصوصاً دفاعه عن حق المدرسين ـ من أصل مصرى ـ فى التعيين فى مدرسة الحقوق.. فضلاً عن أن هناك سبباً آخر، وهو أن المدير الإنجليزى مستر "هيل" الذى خلف "لامبير" فى إدارة مدرسة الحقوق، لم يكن يحمل الشهادة العليا بعد، وإنما حصل عليها من جامعة "إكس إن بروفانس" فى فرنسا بعد شغله لمنصبه بعام واحد.. كلها أسباب جعلت الطلاب المصريين آنذاك يفقدون الثقة فى التعليم الإنجليزى بصورته السابقة. وكان أنْ عادوا مع أستاذهم إلى "ليون" التى بقيت إلى الآن تذكِّر بإحدى البؤر الحميمة والحية لنشاط الفكر المصرى، أوائل هذا القرن، فى فرنسا إلى جوار "مونبلييه" وغيرها من المدن الفرنسية.

عبد الرحمن بدوى:
بين إسلاميات "الثراء والإحباط"؟!

يرى البعض أن الدراس لحياة وفكر د. عبد الرحمن بدوى لابد سيكتشف بنفسه مفارقة عجيبة في تطوره الفكرى. فالرجل ارتبط اسمه في ذهن المثقف العربى بالفلسفة الوجودية منذ بواكير حياته الفكرية، وحصوله على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة في عام ١٩٤٢، حول موضوع أثار جدلاً واسعاً في حينه وهو «الزمان الوجودى» كما بات معروفاً منذ ذلك الوقت إن د. بدوى هو البوق الدعائى للفكر الوجودى في الشرق العربى، لأنه لم يترك «شاردة أو واردة» في تاريخ الفلسفة الوجودية إلا وأتى عليها بعقله الجبار، وبأسلوبه الساحر، فأخرج لنا عدداً ضخماً من المؤلفات التى بسطت للقارئ العربى أفكار هذه الفلسفة منذ كيركجورد وهيدجر .. حتى سارتر. إلا أن هذا الاهتمام الخاص من جانب د. بدوى بالفكر الوجودى لم يبعده عن دائرة الفكر الإسلامى.. وهنا كما يعتقد هذا البعض، موطن المفارقة. فكتابات بدوى الإسلامية التى تتوزع بين التأليف والتأريخ والتحقيق، تكاد تلتهم نصف إنتاجه الفكرى والفلسفى.. ناهيك عن أنه في السنوات العشر الأخيرة كاد يتفرغ تماماً للتأليف والترجمة في الحقل الإسلامى، فأصدر قبل فترة كتابين باللغة الفرنسية، الأول بعنوان «دفاع عن القرآن ضد منتقديه» والثانى بعنوان «دفاع عن حياة النبى محمد ضد الطاعنين فيها». كما انتهى د. بدوى مؤخراً من ترجمة مجلد ضخم يقع في نحو ١٤٠٠ صفحة هو كتاب «السيرة النبوية» لإسحاق بن هشام، واستغرقت ترجمته نحو عامين.

النضال على جبهتين:

وفى هذا الصدد أذكر أنى سألت د. بدوى عن تفسير لاهتمامه بهذين

الموضوعين (الفكر الوجودى، والفكر الإسلامى) فأوضح أنه يناضل منذ بداية حياته الفكرية على جبهتين، جبهة الفلسفة العامة بما فيها الفلسفة الوجودية وجبهة الفكر الإسلامى، وليس ثمة تناقض بينهما على الأقل من وجهة نظره فى مجال البحث والتأريخ للأفكار.

ونعتقد نحن، أن د. "بدوى" قد يكون مُحقاً فى هذا التفسير لعدة أسباب، منها أن مجال البحث، كموضوع، أَلْهَم كثيراً مفكراً دءوباً مثله - أقصد "عبد الرحمن بدوى"، فحسبه أن الموضوع - أى موضوع - يتعلق بتاريخ الأفكار وتطورها ليخوضه دون تردد، مُسلحاً بأدواته العلمية اللازمة وهى "المنهج".

أما السبب الثانى فهو أن "د. بدوى"، وعلى الرغم من ولعه بالفلسفة الوجودية، إلا أنه ليس بعيداً عن بؤرة الدين. فأطروحته العلمية التى حصل بها على درجة الدكتوراه تحت إشراف "طه حسين"، تعج قائمة مراجعها بأسماء كبار الفلاسفة الوجوديين المؤمنين، مثل "جابر بيل مارسيل"، و"ياسبرز"، و"كيركجورد". أى أن "بدوى" والحالة هذه محسوب على الشق الوجودى الإيمانى. وليس الإلحادى.

أما السبب الثالث، فهو أن "بدوى" نفسه يعترف بأنه قد اعتاد على أن يعمل على الجبهتين (الوجودية والإسلامية) وأن تصدر مؤلفاته تباعاً فيهما.. فلا يكاد يمر عام أو عامان حتى يصدر له إما كتاب فى الفلسفة أو كتاب فى التاريخ الإسلامى. هذا، على كل حال. ما يقوله د. "بدوى" حول اتجاهه الإسلامى فى الكتابة والتفكير، أما الدارسون لفكره فقد انقسموا شيعاً وأحزاباً.

فالبعض منهم يرى أن د. "بدوى" لم يغرق حتى أذنيه فى الكتابات الإسلامية إلا بعد أن شعر بفشل تقديم الفكر الغربى إلى أبناء العربية من خلال ترجماته العديدة، والدليل على ذلك هو الإحباط الذى يعانى منه د. بدوى نفسه، ويكاد يفصح عنه لكل من يلقاه أو يتحدث إليه، فها هو يعلن فى أكثر من مناسبة وفى حد كبيرٍ من المرارة أن «العقلية العربية لا تزال جامدة.. وأن سماء الثقافة العربية فلم يعد يسمع فيها

سوى نعيق الغربان.. وكل يوم يمر علينا يبعدنا أعواماً عن ركب الحضارة»!

أما البعض الآخر من منتقدى د. "بدوى" فيذهب إلى أنه لم يتجه بكُلّيته إلى التأليف والتحقيق والترجمة فى الفكر الإسلامى، إلا لأنه أدرك مؤخراً أن هذا الاتجاه هو الذى يعود عليه بالنفع المادى الذى يمكّنه من الانتقال والارتحال!

الطريق إلى الثراء

ولا شك أن هذا الرأى الخاص بتفسير الاتجاه الإسلامى عند د. "بدوى" هو رأى قديم، ذكره قبل نحو نصف قرن بعض ممن تصدوا لتفسير ظاهرة الكتابات الإسلامية عند كبار كتّابنا مثل "عباس العقاد"، و"طه حسين"، و"محمد حسين هيكل". وهو ما يعنى أنه اتهام شائع لكل من يكتب فى القضايا الإسلامية، ومن ثم فهو لا يحمل ـ فى نظرنا ـ أية خصوصية للدكتور بدوى، الذى طرق هذا الباب كغيره من المعاصرين.

وأياً كان أمر هذه التفسيرات الخاصة باتجاه بدوى الإسلامى، فالمحقق أن الرجل بعد أن كتب وألّف، وحقق نحو ستين كتاباً حول الإسلام، يعتبر اليوم من كبار مؤرخى الفكر الإسلامى، وعلينا أن نتعامل مع إسلامياته بمنطق علمى جاد ولا نكتفى بمجرد التعليقات أو توجيه الاتهامات الجزافية.. سيّما وأن د. بدوى نفسه يشعر بالمرارة الشديدة بسبب تجاهل الكثيرين لكتاباته الإسلامية، فأتذكر أنه قال لى ذات يوم: «لقد كرست كل جهودى فى السنوات الأخيرة للدفاع عن الإسلام، وتصديت بالتفنيد والتحليل لكل الكتابات الغربية المغرضة لكن أحداً فى عالمنا الإسلامى لا يدرى بى، أو يكاد يحفل بما أكتب! والمؤسف أنهم ـ سامحهم الله ـ لا يحفلون إلا بكتابات ساذجة تضر الإسلام أكثر مما تفيده».

وحدثنى د. "بدوى" عن حزنه الشديد؛ لأن كل من «هبَّ ودبَّ» من الغربيين ـ على حد تعبيره ـ «بات يعطى لنفسه الحق فى الحديث عن الإسلام وترجمة قرآنه المجيد». وذكر أنه تألم كثيراً لأن باحثاً يهودياً يُدعى «اندريه شوراكى» قام مؤخراً بوضع

ترجمة للقرآن الكريم يعتبرها د. بدوى عاراً على الترجمة والمترجمين فى كل زمان لأنها مليئة بالاعتداءات الصارخة على قداسة النص القرآنى، فشوراكى استوحى معانيه ومدلولاته في الترجمة من ألفاظ حسيّة، كان من نتيجتها أن امتلأ النص المترجم بتعبيرات فاضحة، فكلمة «الرحمن» ـ على سبيل المثال ـ قد اشتق هذا المترجم معناها من كلمة «رحم»، كذلك كلمة «الحمد» قد رجع بها إلى أصل فعل «الرغبة».

ويرى "د. بدوى" أن "شوراكى"، لكى يخفى جهله بمعانى القرآن وألفاظه، ودلالاته زج فى الصفحة الأولى التى قدم بها ترجمته، باسم أحد الأزهريين وهو د. "محمود العزب" استاذ اللغات السامية بجامعة الأزهر (واستاذ اللغة والحضارة الاسلامية بجامعة السوربون لاحقاً)، ليوهم القارئ بأن هذه الترجمة لم تصدر إلا بعلم وموافقة جامعة الأزهر.

يبقى أن نذكر شيئين، **الأول** هو أن "د. بدوى" بمؤلفاته الإسلامية قد بدأ مرحلة جديدة من حياته الفكرية، حيث يعتزم إنجاز عدة مشروعات أهمها عمل دراسة نقدية لكل الترجمات الفرنسية التى صدرت للقرآن الكريم فى السنوات العشر الأخيرة.

والثانى، إنه على خلاف ما يعتقد البعض من وجود تناقض بين الكتابة والبحث فى الفلسفة الوجودية من ناحية، والإسلام من ناحية أخرى، فالمحقق أن "عبد الرحمن بدوى" يجب أن يكون الاستثناء فى هذا المجال، ليس فقط لأنه يملك زمام المناهج العلمية، ويتقن عدة لغات أوروبية إجادة تامة كاللغة الفرنسية والإنجليزية والألمانية والأسبانية واليونانية واللاتينية، ولكن أيضاً لأنه أبدع فى هذين المجالين (الوجودية والإسلام) إبداعاً متميزاً، فاستحق أن يكون أحد أبرز مؤرخى الإسلام المعاصرين، فضلاً عن أنه أول فيلسوف مصرى، كما بشّرنا بذلك "طه حسين" قبل نحو نصف قرن.

◆ الفصل الثامن ◆

- الإسـلام فى فرنسـا..
- "الـذات" / "الآخـر"
- بين الاندماج والانفصال؟!

- د. محمود العزب

"الإسلام فى فرنسا"، و"إسلام فرنسا" مصطلحان مختلفان، لا يكاد يشبه أحدهما الآخر إلا فى الطباق اللفظى، أما مدلولات وتداعيات كل مصطلح فلا تكاد تشبه الأخرى "فالإسلام فى فرنسا" يعنى أن الإسلام شىء "وافد" من خارج الأرض الفرنسية، ومن ثم يجب التعامل معه كما يتعامل ابن البلد الأصيل مع «الضيف».. كما أن هذا الضيف يجب أن يراعى فى كل تصرفاته شروط الضيافة، فلا يخرج عليها ولا يزعج بطقوسه وعباداته، أبناء البلد الأصلاء، وهكذا يظل الإسلام - والحالة هذه - أجنبياً فى فرنسا، وإن طالت مدة إقامته..

أما المصطلح الثانى "إسلام فرنسا" فيعنى أن الإسلام هو ابن شرعى من أبناء فرنسا، وشىء أصيل فى نسيجها، ولا يختلف أبناؤه عن أبناء فرنسا فى قليل أو كثير، سواء فى الحقوق أو الواجبات: فهم يتكلمون لغتها، ويتعلمون فى مدارسها، ويخضعون لكل اللوائح والقوانين المنظمة للمجتمع الفرنسى.

والحق أن فرنسا ذاتها كانت تتعامل مع الإسلام طوال الأحقاب الزمنية السابقة بصفته وافداً، وليس أصيلاً، أو بصفته ظاهرة غريبة على مجتمعات دول غرب أوروبا، فعانى الإسلام والمسلمون من سياسات التهميش التى مورست ضده، أو ربما التى فرضتها طبيعته كأجنبى "قادم من بعيد".. وكان من جرائها تقوقع أبنائه على أنفسهم، ورفضهم الاندماج أو حتى الاختلاط، اللهم إلا فى الحدود التى تسمح بها

علاقة الجوار فى المسكن أو علاقة الزمالة فى العمل.. كما كان من نتائجها أيضاً أن الإسلام رغم قدمه فى الأرض الفرنسية، ورغم أنه يعتبر الديانة الثانية فى فرنسا من حيث العدد، إلا أنه ظل غريباً، أو كالغريب.

توجهُ برؤية جديدة:

اللافت للنظر أن فرنسا ـ على مايبدو ـ قد أعادت حساباتها فيما يتعلق بموقفها من الإسلام، كدين وثقافة. وشرعت تتعامل فى الفترة الأخيرة معه كواقع مُعاش على أرضها، وليس باعتباره نازحاً إليها "من بعيد". فها هو وزير داخليتها المسئول عن الديانات فيها، يؤكد فى كلمته التى ألقاها ـ بمناسبة افتتاح مسجد كبير فى مدينة «ليون» ـ على خصوصية الإسلام الفرنسى، رافضاً التعامل مع الإسلام كدين أجنبى. ولا شك أن هذا التوجه الفرنسى الجديد تجاه الإسلام والمسلمين، له مايبرره من جانب أهل الثقافة والفكر والقرار فى فرنسا. لكن مايهمنا نحن هو أن نناقش هذا التوجه، الذى يرمى فى النهاية إلى مايسمى بالاندماج، أى ذوبان المسلمين فى النسيج الاجتماعى الفرنسى، وهو ماتقشعر منه أبدان الكثيرين.

ولقد انتهزت فرصة الزيارة التى قام بها إلى باريس الصديق الدكتور "محمود العزب" أحد الأزهريين المستنيرين، وطرحت عليه فكرة ما يسمى "بإسلام فرنسا"، وسألته عن رأيه فيها، فأجاب:

«لم يعد الإسلام ديناً وافداً على أوروبا، ولا يمكن، بل لا يصح النظر إليه أو التعامل معه على أنه ظاهرة غريبة على مجتمعات دول غرب أوروبا بشكل أخص. لقد أصبح ـ وهذه حقيقة يجب الاعتراف بها، ـ مع وتنحية المكابرة ودفن الرءوس فى الرمال جانباً ـ جزءاً حياً من نسيج المجتمعات والثقافات فى غرب أوروبا.. بالأمس، كانت بلاد مثل فرنسا تحاول أن تضع بالفعل المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيها فى إطار المغترب العربى أو الأفريقى المهاجر، المنبوذ العاجز عن التأقلم والتكيف والاندماج فى حياتها الثقافية، والاجتماعية.. وقد كان هؤلاء المسلمون أنفسهم حتى

ذلك الحين، يعترفون بذلك، وربما يعلنون انتماءهم إلى البلاد العربية والإسلامية في شمال أفريقيا على وجه الخصوص. أما الآن، فالأمر يختلف. فهناك الفرنسيون المسلمون، ولا نقول المسلمون في فرنسا..».

ويستطرد الدكتور "محمود العزب" قائلاً:

«ونحن نرى أن هذا المنحى الذي يعتبر جديداً على المسلمين في غرب أوروبا، على درجة كبيرة من الأهمية، ونرى ضرورة تشجيع هذا الاستقلال الاجتماعي والثقافي عن البلاد العربية الإسلامية، إذ إن الإسلام بهذا الشكل الجديد نسبياً، سيصبح جزءاً من الحياة الاجتماعية والثقافية الغربية، وعليه أن يتكيف معها، وعليها أن تحاوره وتقبله كما يتحاور الكل مع الجزء ويتعامل معه ويقبله، حتى يصلا معاً إلى درجة من التلاحم والتكامل، والتعايش الطبيعي، كما حدث في التجارب الإنسانية القديمة في بلاد وفدت إليها ثقافات وديانات ما، فتلاحمت، وتناغمت مع أحداث الحياة وتطورها في تلك البلاد ثم أصبحت جزءاً أساسياً، لا ينفصل عن نسيج الحياة فيها..».

الخوف على "الهوية" بلا مبرر:

ويلفت "الدكتور العزب" الأنظار إلى أن درجة كبيرة من الاندماج والتفاعل يرضاها الإسلام ويقبلها، بل ويحبذها.. يقول: «لقد كان من أهم الخصائص الحضارية للإسلام أنه تعايش واندمج وتعانق مع الثقافات والحضارات السابقة عليه في البلاد التي دخلها. وأنتج هذا التزاوج حضارة وفكراً إنسانياً شهد له التاريخ. وهكذا لن تستطيع فرنسا ولا غيرها حصار الإسلام ولا الادعاء بأنه غريب يهدد كيانها ويعتدي على تقاليدها. ولكن تقوقع المسلمين وانعزالهم وعزوفهم عن الانصهار في حركة الحياة والفكر، هو الذي يدفع الآخرين إلى رفض الإسلام ومحاصرته، والنأي به عن الإسهام الفعال في الحياة الفرنسية».

وفيما يتعلق بخوف بعض المسلمين من مسألة الاندماج، أو الذوبان وضياع

الهوية، فهو خوف لا مبرر له في نظر الدكتور "محمود العزب". فاليهود قد عاشوا ـ كما يقول ـ هذا الاندماج بدرجة ما تحت شعار "كن يهودياً في بيتك ومواطناً في الشارع" فهل ضاع اليهود أو انسلخوا من يهوديتهم عشية حوارهم الطويل والعنيد مع المجتمعات والثقافات الغربية؟

«..إن الجواب البديهي في رأينا، هو أن اليهود خرجوا من هذه التجارب أقوى يهوديةً وأشد استفادة من أطروحات الثقافة الغربية. وكانوا يلائمون بين انصارهم في بوائق النضال السياسي والاجتماعي الغربي، وبين تميزهم الثقافي والديني..».

إن فرنسا والغرب الأوروبي يؤكدان اليوم على وجود أزمة حقيقية في مجتمعاتهم، هي أزمة الحوار مع الإسلام والمسلمين.. وأياً كانت دواعي هذا الحوار لدى الغرب، فلا يجدر بنا نحن المسلمين أن نرفضه. وإن كان أكثرنا يتوجس منه. وأرى أن هذا التوجس لا مبرر له أيضاً خصوصاً على المستوى الثقافي والحضاري. لأننا شعوب قديمة تمتد بجذور عميقة في أرض التاريخ، وتكونت تكويناً صلباً لا يخشى عليه من الذوبان ولا من الضياع! صحيح، قد نشعر بضرورة الدفاع عن أنفسنا في عالم يموج بالقلق، وتسيطر عليه قوانين الحضارة المادية: لأنه ضعيف وخائف من ذاته ومن حضارته ومن منتجها المادي الساحق الذي أصبح يستعبد الإنسان ذاته.

ويقول "الدكتور العزب": «إننا نؤمن بالتعددية وبالتمايز، وبأنهما يثريان الفكر الإنساني ويمدانه بزخم من القوة ويدفعانه إلى الأمام. فحضارتنا تقوم على الحوار والاستيعاب، وتتكون ثقافتنا من طبقات چيولوچية ترسبت عبر التاريخ من جذور أصيلة هضمت ماورد إليها. وتمثلته وأصبح من مكوناتها.. وعلى أية حال فالإسلام لا يرفض الحوار بل هو جزء من صلبه وأساسه، إذ يقرر الوحدانية من جانب: "قل هو الله أحد". ثم يؤكد في جانب آخر على حرية العقيدة: "لا إكراه في الدين"..

.. وأعتقد أخيراً، أن الإسلام لا يهرب من ساحة الحوار، وإنما يهرب مسلمون

غير مستكملين لأدوات المعرفة بثقافتهم وبتاريخها وبثقافات العالم وتاريخه، ولا يعرفون قيمة مالديهم وما لدى الآخرين، ولا يؤمنون بأن الحضارات سجال، و"تلك الأيام نداولها بين الناس"».

ثم يخلص الدكتور "العزب" ـ الذى يعمل استاذا للغة والحضارة الإسلامية بجامعة السوربون إلى النتيجة التالية. التى يقررها باطمئنان شديد، فيقول: «لابد أن يتميز الإسلام الغربى فى تفاعله مع الواقع الحضارى "الغربى": لأن عظمة الإسلام تكمن فى جانب كبير منها فى تفتحه على الحضارات وتزاوجه مع سابقيه، واندماجه فى نفوس الشعوب ومع تراثها وحصيلتها من الثقافات من كل جنس ولون.. والأفضل فى نظرنا أن يأخذ الإسلام فى الغرب طريقه الخاص به، وهو بذلك لا ينسلخ أبداً عن منابعه الأولى وعمقها الراسخ فى القرآن».

الخاتمة

عزف ثقافى منفرد

- صناع الثقافة العربية يدخنون النارجيلة فى الحى اللاتينى.
- دور مصر الثقافى ومنطق الـ "سداح مداح».
- .. إنهم يسرقون التراث ويغنون على الربابة.
- قراءة اغترابية فى حوار فلسفى.
- الجامعة المصرية.. هل تأسست بفرمان من ملك ايطاليا؟
- اليعقوبان صروف وصنوع (وأسماء أخرى).
- العقاديون والطحاسنة (وخفافيش الظلام).

..في مكان بعينه من حديقة لوكسمبورج الشهيرة التى تقع فى قلب باريس، كانت تلح على خاطرى أفكار كثيرة شغلت مساحة عريضة من عقلى.

وها أنذا أختار بعضها تذييلاً لهذا الكتاب علها تكون "استراحة فكرية" ، لمن يشاء أن يستريح..

صنّاع الثقافة العربية. يدخنون النارجيلة في الحي اللاتيني!

إحدى قواعد الفيلسوف الألماني «عمانويل كانت» لفهم الظواهر الاجتماعية تقول بأن الوصول الى الفهم الصحيح لظاهرة ما، يتطلب تحليلها أو اختزالها إلى أبسط المعادلات مثل س = ص.. فماذا عسانا نقول في أزمتنا الثقافية؟

حسب هذه القاعدة، نستطيع أن نقول بأن ثقافة أي شعب من الشعوب هي حاصل جمع إرثها الثقافي والفكري إلى الجهد الذهني والعقلي الذي يبذله المفكر أو الكاتب باعتباره صانع الثقافة.. أي أن الأرث الثقافي + جهد الصانع = ثقافة نشطة.

وإنطلاقاً من هذه الرؤية، فالثابت أن الجزء الثاني من الطرف الأول في المعادلة وهو هنا (جهد صانع الثقافة) أصبح اليوم في خبر كان!.

وإذا لم تصدق فتعال معي لنقم بجولة في مقاهي باريس القريبة من جامعة السوربون لتكتشف بنفسك أن معظم الجالسين عليها ليل نهار هم من الشباب العربي الذي أنهى دراسته الجامعية، وحصل على درجة الدكتوراه في مختلف التخصصات إلا أنه لم يجد ما يفعله سوى الجلوس على المقاهي بعد أن تبلد منه الذهن، وجمدت دماؤه في العروق، فبات لا يشعر بمعنى ما لأي شيء..

ولا شك أن المسئول الأول عن هذه الحالة النفسية التى تطفح بالكآبة هو الشعور بالأحباط..

* فهذا الشاب الذى كنت أشاركه المقعد فى الجامعة، وداخل المكتبات، وكان لا يتهاون لحظة واحدة فى جمع المعارف وتمحيصها، ليتمكن من إنجاز أطروحته للدكتوراه فى الأدب المقارن.. عاد ليلعن حظه العاثر بعد أن حصل على الدكتوراه - الحلم بتقدير مُشّرف جداً ثم عاد إلى بلده.. حيث طرق جميع الأبواب آملاً لنفسه مكاناً بين أعضاء هيئة تدريسها.. فلم يجد!

وعندما حفيت قدماه، طوى أحزانه فى صدره، وحمل أوراقه وعاد ليجد نفسه بلا عمل سوى الجلوس على المقاهى!

* أما زميلنا الثانى الذى حصل على درجة الدكتوراه فى الرياضيات، وكان يُمنّى نفسه بمستقبل باهر، يستطيع فيه أن يضخ بفكر جديد فى اسلوب تعليم الرياضيات، وقد بشره اساتذته بهذا المستقبل بعد ان لمسوا فيه قدرة فائقة على التطوير والابداع.

إلا أن حظه لم يكن بأفضل من زميله دارس الأدب، وعاد بُخفى حنين من بلده، ليجلس على مقهى آخر، يندب حظه وزمانه.

* ثم هذه الفتاة التى كانت متُحمسة لدراسة الفلسفة واختارت المفكر المصرى زكى نجيب محمود موضوعاً لرسالتها، لتساهم فى تعريف الغربيين بجانب من فكرنا الفلسفى المعاصر، فقد طافت أقاليم بلدها بحثاً عن فرصة عمل لأنها تعلمت الكثير وتود لو تساهم فى إحداث النهضة الفكرية التى تطلبها بلادها منذ سنوات.. لكنها عادت صفر اليدين، ولم تفز بأى شىء سوى الخذلان!

تقول كاسفة: إنى أشعر أنى مجرمة، وجريمتى هى انى حاولت أن أتعلم.

ثم تضيف باكية: بعد أن أغلقت كل الجامعات العربية أبوابها فى وجهى، ولم تُكلف نفسها مشقة الرد علىّ.. ماذا تريدنى أن أفعل؟

شهادات حيّة

هذه الحالات الثلاث التي تمثل شهادات حيّة على صدق ماأقول هي نماذج من عشرات الحالات التي تؤكد أن أزمتنا الثقافية تكمن في شق كبير منها، في عدم إستغلالنا الجيد لصُنّاع الثقافة.

فالباحث الأوروبي في مجال الأدب أو الفلسفة أو التاريخ يجد فور إنتهائه من دراساته العليا، عملاً ينتظره، إما داخل الجامعات أو في مراكز البحث العلمي وهي كثيرة ومُتعددة. بينما يظل زميله العربي تائهاً في شوارع باريس، وكأنه قد خُلق شقياً حتى ولو حصل على أعلى الدرجات العلمية!

حدثني صديق يحمل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، ويعمل حالياً كحارس ليلي في فندق، قال:

لقد أضعنا الوقت في البحث العلمي، وسلخنا من عمرنا السنوات الطوال، لكي نضيف الى المكتبة العلمية دراسة جادة في مختلف التخصصات، ثم في النهاية نجدنا كما لو كنا «زائدين عن الحاجة».

ويتساءل بأسف: ماهو الجُرم الذي إرتكبناه؟

وهل سنبقى هامشيين في بلاد ليست بلادنا.. وإلى متى؟.

ثم تركني وفرّ بعينيه التي إمتلأت بالعبرات..

حوقلة وبسملة

عندما ناقشت هذه القضية مع بعض العارفين، قالوا إنها من علامات الليل الحالك الذي يُغلّف كل حياتنا ويضرب بسواده في كل اتجاه..

ثم إكتفوا بالحوقلة والبسملة وإنتهى كل شيء وكانت هذه هي مشاركتهم الوحيدة في النقاش! وسوف تزداد للأسف أعداد هؤلاء العاطلين العرب من حملة الدكتوراه بعد أن أستفحلت هذه الظاهرة حتى أصبحت ظاهرة مفجعة يتندر بها

قراءة اغترابية فى حوار فلسفى

قبل سنوات حدثت هذه الواقعة أمام عينى عندما سأل أحد زملاء الدراسة (وكان يدرس على نفقته الخاصة، ويُعد أطروحة للدكتوراه فى جامعة السوربون)، زميلاً آخر مخضرماً عن عمل ليلى يمكن ان يقوم به ليوفر نفقاته المعيشية.. فكان ان سأله هذا الأخير عن موضوع الأطروحة، فأجابه إنه فلسفة اللغة عند الجوينى.

فصرخ الزميل المخضرم كمن لدغه ثعبان وقال متهكماً:

- الجوينى مات وشبع موتاً، ألم تجد كاتباً أو مفكراً مايزال على قيد الحياة.

- فرد الزميل الأول وقال:

- أنا لا يهمنى شخص الكاتب أو المفكر بقدر مايهمنى فكره، ولا شك ان الجوينى قد خدم العربية بما اضافه اليها من منهج جديد فى دراسة اللغة..

فعاد المخضرم يقول دون ان يفارقه غضبه:

- أنت الآن تبحث عن عمل، وتعانى من قسوة الحياة، وتعجز عن تدبير أمورك المعيشية، ناهيك عن الدراسية، مثل شراء الكتب والمراجع.. ترى ماذا عساه يفعل لك هذا الجوينى؟.

وقبل أن يجيب الزميل، استطرد المخضرم قائلاً:

الجوينى - ياصاحبى - لن ينفعك، ولو كنت فكرت طويلاً قبل أن تختار موضوعك، ربما كنت اهتديت - كما يفعل آخرون - لدراسة موضوع يتعلق بحياة أو فكر أحد الكُتاب الذين يعيشون بيننا الآن، فى هذه الحالة كانت الأيدى الكثيرة ستمتد نحوك، لتساعدك، وتجلب لك المنح والهبات والعطايا!.

وبعد نقاش طويل كان يحتدم حينا، ويهدأ حينا آخر، ضرب زميلنا (الباحث عن عمل) كفا بكف، وحوقل، واستعاذ بالله من كل شيطان رجيم ومن الزمان الذى أصبح فيه الصواب خطأ، والأبيض أسوداً!.

الحمير.. وصناعة الكلمات

قفزت الى ذهنى هذه الواقعة ـ بكل تفاصيلها ومدلولاتها الاخلاقية، عندما قرأت واحدا من الحوارات البليغة التى دارت بين توفيق الحكيم وحماره.. وهو حوار يترك فى النفس حسرات لا تقل عن الحسرات التى حصدها زميلنا (الباحث عن عمل) فى حواره مع زميله المخضرم..

فيروى الحكيم انه رأى حماره مهموماً ذات مساء، وعندما سأله عن السبب اجابه الحمار وقال:

ـ إنى مهموم لأنى أفكر فى مستقبلى.

فاندهش الحكيم للإجابة وقال:

ـ هذه أول مرة أسمع فيها أن «الحمير» تفكر فى مستقبلها.

فرد عليه الحمار فى شبه غضب وقال:

ـ ولمَ لا نفكر فى مستقبلنا، ألسنا كائنات حيَة، مثلك، نعيش كما يعيش بنو الانسان، ونخَضع لقانون الزمن كما يخضعون.

ثم استطرد وقال: اتسخر من انشغالى بحياتى رغم أنى أعيش معك بدون «سيرج» ذهب أو حتى بردعة!

فضحك الحكيم وسأل:

هل الذهب هو الذى ينُغَص عليك حياتك؟

فأجاب الحمار: نعم، ولمَ لا، فكل بنى الانسان يفعلون كما أفعل، حتى لكأنهم يعيشون للذهب والثروات فقط!

فقال الحيكم فى زهق:

ـ أرجو أن تفكر لنا فى شىء أكثر نفعا من هذا الأصفر الرنان.

فأجابه الحمار وقال:

ـ صدقنى انفع من الذهب لن تجد.

ويواصل الحكيم حواره الفلسفي العميق مع حماره عندما جاء يشكو اليه قسوة البرد، لأنه عاري الظهر.. فرد عليه وقال:

- أنت تشعر بالبرد، ليس لأنك لا تملك بردعة كما تظن، ولكن لأن قلبك لم يعرف بعد حرارة الايمان، ومحبة الناس.

فصرخ الحمار أو نهق في غيظ وقال:

- لقد اشبعتني بالكلمات التي لا تجيد سواها. إذا أتيتك أشكو من الجوع، اطعمتني بالكلمات، وإذا شكوت من البرد، كسوتني بالكلمات.. ألم تدرك بعد ان صناعة الكلمات هذه لم تعد تُسمن أو تغنى من جوع!.

فغضب الحكيم من حماره غضباً شديداً وقال:

- أنا لا أطيق أن أسمع إنساناً يُحقّر الكلمات والأفكار، لأن الكلمات هى التي شيّدت العالم. فالنبي محمد عليه الصلاة والسلام لم ينشر الاسلام بالذهب وانما بالكلمات، وعيسى المسيح عليه السلام لم ينشئ المسيحية بالمال وإنما بالكلمات..

ان الكلمات الصادقة - ياصاحبي - وكذلك الأفكار السامية والمبادىء العظيمة هى وحدها التي قادت الانسان في كل اطوار حياته، وبنت الأمم والشعوب فى كل أدوار تاريخها.. فما من حركة وطنية أو قومية أو انسانية قامت أول أمرها على شيء غير المبادىء والكلمات..

وأرجو ان تعتقد ان الذهب عندما يظهر ببريقه ولمعانه فالأنهيار لابد آت. لأن بريق الذهب سوف يُذيب المبادىء بأشعته الساحرة، ورنينه سوف يصم الآذان بجرسه الفاتن، وستضيع عندئذ الكلمات وتتبخر الأفكار وتتلاشى كل المبادىء إلا مبدأ واحد سيطفو على السطح ويسلب الألباب وهو مبدأ الربح والمنفعة والحصول على الذهب والأموال.. ويتحول الناس الى تجار، كل فرد يريد ان يكون تاجرا. بل ان لكل شخص اليوم عملين، التجارة وعمل آخر. كل انسان اليوم تاجر الى جانب عمله الظاهر، لأن الذهب أعمى بصائر الناس ولعب بعقولهم وقلوبهم الى حد

انساهم انفسهم. كما أنساهم مدلولات اللغة والألفاظ. فغدا للناس قاموس جديد كلماته هي:

الربح الربح.. المال المال.. الثراء الثراء.

ثم ماذا بعد..

بعد أن تأملت هذا الحوار طويلاً، تذكرت ان الزميل المخضرم كان يتكلم بمنطق حمار الحكيم، اما الزميل الباحث عن عمل فلم يكن له «نفسْ» الحكيم الطويل، ولذلك انسحب طاوياً احزانه في صدره، وشاءت المصادفة ان التقي بهذا الزميل قبل فترة. وكان قد انتهى من دراسته حول الجويني - باصرار - وشغل منصباً أكاديمياً في أحد أقسام الدراسات العربية في جامعة السوربون، وعندما ذكرته بهذه الواقعة التي استحضرها من ماضيه بصعوبة أجاب متألماً وقال:

لا يغرنّك اني لم أنهزم أمام منطق حمار الحكيم، فالمؤسف انه قد انتصر على كثيرين، وتكالب الناس على الثروة. وأخشى أن يصبح البحث العلمي الجاد «ذكرى» نبكي عليها ونندم، في يوم لم يعد مُجدياً فيه ندم أو دموع!.

دور مصر الثقافى ومنطق الـ «سداح مداح»!

إذا كان صحيحاً أن الصراع الثقافى أصبح فى عصرنا الراهن بديلاً عن الصراع العسكرى والسياسى وهو ماأشار إليه الرئيس حسنى مبارك فى خطابه أمام المؤتمر السابع والعشرين لمنظمة اليونسكو فى باريس.

وإذا كان صحيحاً أيضاً أن مصر - الحضارة والتاريخ - هى الدولة المرشحة بقوة - حسب أغلب التحليلات - لكى تقوم بدور الوسيط لسد الفجوة الثقافية بين العالمين الإسلامى، والغربى..

فمن حقنا إذن أن نتساءل عن دور مصر الثقافى فى الخارج، بل وننزعج من شعورنا بأن هذا الدور غير فاعل فى السنوات الأخيرة، ونعجل بتسجيل إعتراضنا على كل من يقول بأن الاهتمام بالثقافة فى الداخل، أولى من الاهتمام بها فى الخارج لسببين:

* الأول هو أن الثقافة تكاد تكون الساحة الوحيدة الباقية لنا فى معترك البقاء فى عالم شهد تغيرات كادت تقلب أعلاه، وترفع أسفله فى المرحلة الأخيرة.

* والثانى هو أن الاهتمام بالثقافة فى الخارج لم يعد يقل أهمية - أو هكذا ينبغى أن يكون - عن الاهتمام بها فى الداخل خصوصاً فى عالم أصبح كالقرية الصغيرة، يعلم أقصاه فى دقائق معدودات ماذا يدور فى أدناه، كما أصبحت المنافسة فى الأعلام والثقافة والفكر هى شرعة ومنهاج الجميع.

والمؤسف أننا إذا بحثنا (على خريطة هذه المنافسة الثقافية فى الخارج، وتحديداً فى فرنسا التى نعيش فيها) عن الوجود المصرى، أكاد أجزم أننا لن نجده على الأقل بالصورة التى تتناسب مع ما لمصر من «زخم ثقافى وحضارى» يعرفه ويقدره أبناء الفرنجة قبل غيرهم من البشر.

وعلى أية حال، فإن هذا الوجود يمكن أن يتحدد في ثلاث زوايا..

الزاوية الأولى هي زاوية المثقفين المصريين الذين يعيشون في باريس، أو المترددين عليها أو الذين تربطهم بها علاقة قراءة أو إطلاع أو متابعة. وهم كما يبدو، غائبون تماماً.. صحيح أن عددهم ليس كبيراً، لكن حتى هذا النفر ليس فاعلاً، ويكاد يعيش منزوياً لا تربطه صلة بأحد، وكأنه بقعة الزيت، على حد تعبير إستاذنا الراحل د. زكي نجيب محمود، التي تظل عائمة ومتكومة على ذاتها غير قابلة للذوبان في إناء الماء الكبير.. ولمزيد من إيضاح فكرتي سأذكر هذه الواقعة:

زرت قبل عامين مدينة مونبلييه في جنوب فرنسا، وهي مدينة لها من الذكريات في صدري، مثل مالها في قلب كل عربي مهتم بالثقافة. باعتبارها المدينة التي قصدها عميد الأدب العربي في المرة الأولى التي جاء فيها مبعوثاً للدراسة.

وبفضول الصحفي، إذا شئت، ظللت أبحث عن الأماكن التي وطأها طه حسين بقدمه، فزرت كلية الآداب، والتقيت بعميدها الذي حدثني حديثاً خلاباً عن طه حسين الذي لم يره وانما سمع به من أساتذته.

ثم قادتني المصادفة للقاء مهندس فرنسي على المعاش كان يعمل استاذاً بكلية الهندسة، واكتشفت انه صديق صدوق لمؤنس ابن طه حسين، مثلما كان أبوه استاذ الأدب زميلاً وصديقاً لطه حسين أيضاً.

وبعد أن زرنا الأماكن التي عاش فيها عميد الأدب العربي، وتعرف فيها على زوجته السيدة سوزان، والبيت الذي كان يسكن فيه صديقه أندريه جيد، روى لي الرجل ان طه حسين، عندما كان يزور مونبلييه، كانت تقام له الاحتفالات، وتنظم الندوات، ويتجمع مثقفو المدينة، وتتحول الأيام القليلة التي يمضيها في مونبلييه الى حلقات بحث ونقاش، أشبه بحلقات الذكر التي لا شيخ فيها سوى طه حسين وحده.. وتدور المناقشات حول الثقافتين العربية والأوروبية، وحول ثقافة البحر المتوسط،

وحـول مناهج الدراسـة فى الجامـعتـين. القـاهرة، ومـونبليـيـه.. الخ، ثم تـتكرر هذه الأمسـيات واللقـاءات فى باريس عندمـا يمر بـها طه حسـين فى طريق عـودته الى مصر..

هذا مـاذكره المهندس الفرنسى وهو قليل من كثير ماتزال ذاكرته تختزنه حتى اليوم.. فأين منه هذا الخمول الذى يغلف حياة مثقفينا المصريين المقيمين فى باريس أو المترددين عليها أو المرتبطين بها بأى رباط كان..

المبعوثون ومنطق البطاطا..

الزاوية الثـانيـة هى زاوية الطلاب أو المبـعوثين المصـريين الذين يدرسـون فى الجامعات الفرنسية.. وهؤلاء إذا بحثت عنهم فلن تجدهم، فهمومهم كثيرة، فسنوات البعثة تقلصت وأصبحت لا تزيد عن العامين فى إطار مايسمى حديثاً بنظام القنوات العلمية.. ولذلك فالطالب مشتت دائماً، يمضى هذين العامين إما فى محاولة إجادة اللغة أو فى البحث عن سكن ملائم لا يلتهم مرتبه المتواضع.. ثم تأتى المهمة العلمية التى جاء من أجلها فى المرتبة التالية من اهتماماته أو همومه.. وقد يكون الطالب ـ والحالة هذه ـ معذوراً. لكن المحقق أنك لن تجده بأى حال من الأحوال، خارج مجال تخصصه، فطالب الزراعة غارق حتى أذنيه فى النباتات، وطالب الحقوق لا يبتعد قيد أنملة عن دائرة القوانين. وكذلك الحال مع طالب الآثار أو الطب.. وهنا تذكر التراجم التى تركها لنا الرعيل الأول من كتابنا أمثال محمد حسنين هيكل الذى لم تمنعه دراسة القانون فى باريس من الحصول على درجة علمية فى الأدب، وكتابة فصول روايته «زينب» التى كان يرسلها لتنشر فى الصحف المصرية وقتئذ.. وزكى مبارك الذى كان يدخر من عمله راتب ستة أشهر فى مصر، لينفق على حياته فى باريس فى النصف الآخر من العام، وكان يرسل بمقالاته بشكل دورى الى الصحف المصرية، كما كان يشارك فى الندوات والمناقشات داخل السوربون وخارجها.

أما طه حسين الطالب، فالجزء الثالث من «الأيام» يروى كم كان شغوفاً

بالاستماع الى محاضرات التاريخ والأدب اليونانى من مدرجات السوربون، والكوليدج دى فرانس.. الى جانب دراسته الأساسية فى الفلسفة التى حصل فيها على درجة الدكتوراه حول موضوع بعنوان: الفلسفة الاجتماعية عند إبن خلدون.

وتطول القائمة إذا ذكرنا أسماء أخرى مرت بباريس أو اقامت فيها بعض الوقت مثل أمير الشعراء أحمد شوقى، او استاذ الجيل أحمد لطفى السيد أو قاسم أمين الذى كتب كتابه الشهير «المصريون» رداً على مقالة كتبها الدوق داركور، ينتقص فيها من حياة أهل مصر وأخلاقهم..

الترجمة..أخماس×أسداس

الزاوية الثالثة هى زاوية الترجمة.. فباستثناء ترجمات سابقة لبعض مؤلفات الحكيم وطه حسين ثم ترجمات أخيرة لروايات نجيب محفوظ، وجمال الغيطانى، وادوار الخراط، وصنع الله ابراهيم.. دعنى أسأل: أين الأدب المصرى المنقول الى اللغة الفرنسية؟ أو بالأحرى أين الفكر المصرى الذى يمكن ان يطلع عليه قارىء الفرنسية اليوم فى وقت لا عمل فيه للأعلام الغربى عامة سوى تشويه الحقائق عن بلادنا؟

وأتساءل: لماذا تُترك الترجمة لتكون مسئولية دور النشر وحدها؟ وأى دور لمصر فيها؟. ولا شك ان مسألة الترجمة تكتسب بُعداً أعمق إذا إنتقلنا من مجال الرواية المترجمة الى مجالات الفكر الأخرى.. فعلى سبيل المثال: الاسلام فى عصر كفكر، وكممارسة تتولى بعض دور النشر الفرنسية ترجمته اليوم من خلال مقالات لبعض الكتاب المصريين، فصدر قبل فترة ـ مثلاً ـ كتاب يضم عدداً من المقالات المترجمة لفهمى هويدى، وفرج فودة، وسعيد العشماوى وآخرين.. وليس عندى اى اعتراض على هؤلاء الكُتاب أو غيرهم، وانما ماأعترض عليه هو ان يُترك هذا المجال «سداحا مداحاً» لمعايير وتقييم دور النشر وحدها.

بمعنى انه يجب أن يكون لمصر دور أساسى فى هذا المجال، لأن هذه الكتب أو

المقالات المتُرجمة هى التى يقرأها المواطن الفرنسى، ويحكم علينا من خلالها الى جانب متُابعاته لما يُكتب بين وقت وآخر فى الصحف والمجالات وتبثه أجهزة التليفزيون.. هذه المهمة التى تمس فى الصميم صورة مصر في الخارج يجب أن تضطلع بها أجهزة مسئولة فترسم خطة مدروسة لما يجب أن يترجم أو ينُقل من أدبنا وفكرنا الى اللغات الأخرى..

صحيح أن هذا الأمر لن يمنع دور النشر من ترجمة ماتريد، لكن سيقُدم وجهات نظر أخرى، وسيجعلنا فى النهاية نتحكم بشكل أو بآخر فى رسم جزء من الصورة المعطاة عنا فى الخارج..

هذه الزوايا الثلاث تمثل رؤيتى الخاصة لما يمكن ان نسميه بتفعيل دور مصر الثقافى فى الخارج.. وتبقى القضية مفتوحة للنقاش.

إنهم يسرقون التراث ويغنون على الربابة!

.. قبل فترة قرأت في إحدى الصحف الفرنسية مثلاً شهيراً، نضربه في مناسبات عديدة.. المثل يقول: إن رجلاً كان ملزماً أن يسدد دينه لصديق له صباح اليوم التالي، ولأنه لم يتمكن من توفير هذا الدين (وكان مبلغاً من المال).. فقد ظل طوال الليل حائرا، يذرع حجرة نومه ذهاباً وإياباً، وهو يكاد يتميز غيظاً وخجلاً، إذ بعد ساعات قليلة ستشرق شمس الصباح، وسيلقى صديقه لكنه لن يتمكن من الوفاء بوعده الذي كان قطعه على نفسه!.

وأمام حيرته، قامت زوجته من نومها، وإتصلت هاتفياً بهذا الصديق وأخبرته أن زوجها لن يسدد دينه لأنه ـ ببساطة ـ لم يتمكن بعد من توفير المبلغ المطلوب.. ثم إتجهت الزوجة الى زوجها وقالت له وهي تربت على كتفه في شيء من حنان:

ـ الآن يازوجي العزيز، يمكن لك أن تنام قرير العين، وعلى صديقك أن يبدأ السهر، والقلق والحيرة.

سرقوا أطروحتي!

هذا المثل ـ كما ذكرت ـ هو مثل معروف وشائع وكنت قد سمعته كما سمعه غيري في مصر منذ سنوات، وسنوات.. وما لفت نظري اليه انني عندما قرأته في الصحيفة الفرنسية وجدت تعليقاً عليه يقول: إنه مثل مأخوذ من التراث اليهودي وليس العربي!

وبداية، أنا لست ضد تراثيات الشعوب الأخرى، ولست من أولئك الذين يقولون أن العرب هم أصل الحضارة، والكون، وطبقات الجو! لكن ان ينسب هذا المثل الى أصول يهودية، وكنت قد سمعته صغيراً، وشاباً، وكهلاً في قريتي بشرق دلتا مصر. فهو أمر مثير للدهشة خصوصاً انني قد طرحت السؤال على أحد الباحثين في علم

الاجتماع والانتربولوجيا فأجابني بما يشبه اليقين وقال: إن هذا المثل هو ابن شرعي للبيئة الريفية العربية، باعتبار أن الحكم والأمثال هي افراز طبيعي لمجموعة القيم والعادات والأعراف التي تحكم المجتمعات.. وهذا المثل هو اقرب الى البيئة العربية لأنه ينم عن صفات الشهامة والصدق والوفاء بالعهود، ونُصرة المحتاج، وليس هكذا اليهود كما تتحدث عنهم كتب التاريخ على الأقل!.

أياً كان الأمر، فإن القراءة السريعة لهذا المثل، تجعلني أطرح على نفسي عدة أسئلة مُهمة تتعلق بتراثنا العربي وعلاقته بالتراثات الأخرى.. وهل هناك محققون عرب يقومون بهذه المهمة الحضارية، أم أننا تركنا للآخرين «الحبل على الغارب» ليعبثوا بتراثنا كما يحلو لهم؟!

وهل ثمة دراسات علمية مُتخصصة في هذا المجال؟

بعبارة أخرى هل عرفنا مالنا ومالهم، أم أن كل شيء قد انتهى. «واللي سبق أكل النبق» كما يُقال في الأمثال الشعبية؟

وفي هذا الصدد، اذكر اني التقيت قبل فترة، بالدكتور محمود قطاط مدير معهد الكونسرفاتوار في تونس وهو شاب على قدر كبير من ثقافة، وعمق، ومقدرة فائقة على التحليل العلمي. وحاصل على درجة الدكتوراه في الموسيقى، وكان روى لي حكاية ذات مغزى تقول: إنه عندما انتهى من مناقشة الأطروحة العلمية التي تقدم بها الى جامعة باريس، فوجيء - بعد أسبوعين - بالجامعة العبرية في إسرائيل تتصل به بشأن اطروحته، وتذكره بانه في نهاية الأطروحة أشار الى ان ابحاثه العلمية قد اكدت ان هناك مخطوطة في الموسيقى تلقي اضواء على علاقة الموسيقى العربية وخصوصاً في شمال افريقيا بالموسيقى الاندلسية.. لكنه لم يعرف مكانها بعد.

ويقول الباحث التونسي الدكتور محمود قطاط إن الأساتذة في الجامعة العبرية قرأوا أطروحته، واتصلوا به ليدعوه لزيارتهم حتى يدلوه على مكان هذه المخطوطة الضائعة.

كان ذلك قبل سنوات..

ويقول الدكتور قطاط: رفضت طبعاً الذهاب، لكن لابد أن أخبرك بشيء مهم وخطير وهو ان هذا المجال الذى أدرس فيه قد سبقنى اليه عدد من الباحثين اليهود. وتبين لى أن بعضهم كان يسطو على هذه المخطوطات التى تحفظ تراث العرب فى الموسيقى، وتؤكد اسبقيتهم بل ودورهم فى هذا المجال، ثم يقوم بشطب اسم المؤلف العربى الأصلى، ويضع اسمه على المخطوطة.. وهكذا يضيع من بين أيدينا تراثنا الموسيقى العظيم.

الخطير فى الأمر، كما يقول الدكتور قطاط ان الباحثين العرب المحدثين عندما يشرعون فى دراسة تاريخ الموسيقى العربية والأندلسية ينقلون عن هذه المخطوطات التى حرفها الباحثون اليهود، ومن ثم يشيع فى الأوساط البحثية أن اليهود هم مؤلفو هذه المخطوطات، وهو أمر غير صحيح!.

النوم فى العسل..

هذا ما قاله لى الباحث التونسى الدكتور قطاط، مدير معهد الكونسرفاتوار وهو ما تذكرته عندما قرأت المثل الشعبى الذى أشرت اليه فى بداية حديثى.. مما جعلنى فى ذات الوقت أوقن بأن تراثنا العربى يتعرض لعملية سطو قوامها، الطمس والمحو لأصحابه الحقيقيين.

وكنت قد تحدثت مع عالم الاجتماع المصرى الاستاذ السيد ياسين فى هذا الأمر، فضحك فى مرارة وقال: يا عزيزى، الباحثون الاسرائيليون قد سطو على الفلكلور الفلسطينى، واعتبروه حقاً لهم. ولذلك لا استبعد مايقومون به من أعمال تخريبية فى تراثنا وثقافتنا العربية.. وهو مايجعلنا نؤكد من جديد على أهمية ان يكون عندنا جيوش من الباحثين والمحققين وظيفتهم الكشف عن أصول تراثنا، والتمييز بين الأصيل والوافد، وبين الصحيح والزائف منها..

وهنا، أنظر بكثير من التقدير والاحترام للجهود الذاتية التى يقوم بها الدكتور

عبدالرحمن بدوى الذى كرّس كل عمره للبحث فى التراث العربى والاسلامى، وكشف النقاب عنه، لكننا فى حاجة الى مئات بل آلاف مثل الدكتور عبدالرحمن بدوى فى شتى ميادين المعارف. وحاجتنا اليهم اليوم شديدة لأننا قادمون على مرحلة سيكون فيها «التطبيع الثقافى» مطلوبا بعد التطبيع السياسى!.

وهذا التطبيع إذا لم يُؤسس منذ البداية على تحديد دقيق لما لنا، وما لهم، وعلى ماهو من حقنا، وماهو من حقهم، أو ماهو من «عندياتنا» وماهو من «عندياتهم» فلن يكون هناك تطبيعاً.

وعلى كل حال.. لست أشارك البعض رؤيتهم خصوصاً أولئك الذين يؤكدون بأنه لا خوف على الثقافة العربية من التطبيع.. لأن هذا «التطبيع» إذا قام على السطو، والسرقة، والمحو، والشطب، والتهميش لكل اسهامنا، فلن يكون تطبيعاً وانما سيكون «قرصنة»!.

قبل سنوات احتل الاسرائيليون أرضنا العربية، واليوم يزايدون فى الجلاء عنها.. مثلما هو الحال فى دنيا الثقافة التى ينشطون فيها ويسرقون عن عمد ابداعاتنا، ليوهموا الناس انهم أصحاب الابداع الحقيقيون.

ولذلك علينا ان نأخذ حذرنا منذ الآن، وأن نفتح عيوننا قبل أن يملأها القذى.. وصرختنا هى انتبهوا أيها الأخوان تراثنا فى خطر !!..

«الجامعة المصرية» هل تأسست بفرمان من ملك ايطاليا؟!

.. اعترف أنى لم أكن أعرف ان لايطاليا كل هذا الدور الهام فى تأسيس «جامعة القاهرة» حتى التقيت - مصادفة - بمستعرب ايطالى شاب أخبرنى أنه يعد أطروحة دكتوراه بعنوان «اسهام ايطاليا فى انشاء الجامعة المصرية».. وأخذ يحدثنى عن المعارضة التى قادتها بريطانيا فى ذلك الوقت، لأن انشاء الجامعة سيجعل الفلاح المصرى يتخذ لنفسه طريقاً، غير ذاك الطريق الذى رسمه له الانجليز، وهو ان يكون مزارعاً وكفى، يكدح فى الأرض ليل نهار حتى تمتلئ كنوز التاج البريطانى بالثروات.. وإذا كان لابد من تعليمه فليس أكثر من ان يكون موظفاً فى الدوائر الحكومية التابعة للانجليز، أو حافظاً للملفات فى إحدى المصالح..

وحدثنى المستعرب الايطالى الشاب عن بعض المصريين من اعداء النور الذين سخروا من فكرة المشروع وقالوا انه ليس «جامعة»، وانما هو على أقصى تقدير «كلية للآداب».. كما شارك نفر منهم فى كتابة نشرة كانت تصدر بالإنجليزية والعربية تحت عنوان «صدى الشرق والغرب» ودبجوا المقالات التى تستثير سخط «عامة المصريين» على مشروع الجامعة الوطنية المقبلة.

وأطلعنى الباحث الايطالى على مجموعة وثائق تؤكد الصلة القوية بين مصر وايطاليا فى ذلك الوقت وقال ان الأمير أحمد فؤاد (عم الخديو عباس حاكم مصر فى تلك الفترة) والذى كان يتولى الرئاسة الفعلية لمشروع انشاء الجامعة، كانت تربطه علاقات طيبة بعدد من الباحثين الايطاليين، كما كانت صلاته ودية مع بلاط ايطاليا (صاحب الجلالة الملك فيكتور عمانويل الثالث، والملكة مرجريت..)، ولذلك نجح فى أن يجعل ايطاليا تتحمس لمشروع الجامعة، وتقدم الدعم الأدبى والمالى لكى يخرج إلى حيز الوجود..

البلاط الايطالي والجامعة

ويذكر المستعرب الايطالي الشاب ان لجنة ثلاثية قد تشكلت بأمر من البلاط الايطالي تضم ممثل ايطاليا فى القاهرة السيد جياكومو دى مارتينو، والسيد جيو كاردينى وزير الخارجية الايطالى، والبروفيسور فينشنزو فاجو، المستشرق المعروف فى تركيا وشرق البحر المتوسط، وتهدف إلى تقديم كافة سبل العون للمشروع. وبالفعل تم انشاء كراس جامعية (أقسام) لتدريس اللغة والحضارة العربية، وشارك فيها البروفيسور إينانتزيو جيدى أمين عام أكاديمية الليسيهات فى روما والمتخصص فى العلوم العربية، والمستشرق كاتيانو أ. نااللينو الذى كان يلقى محاضراته فى الأدب والجغرافيا باللغة العربية الفصحى، والبروفيسور سنتلانا، وزميله ميلونى. وكانا يقومان بتدريس تاريخ النظريات الفلسفية، والتاريخ الإسلامى، وتاريخ الشرق القديم..

كما قام البروفيسور فينشنزو فاجو العضو الثالث فى اللجنة الايطالية بوضع نواة مكتبة الجامعة. عندما منحها أول خمسة مجلدات. ثم تولى بعد ذلك مهمة إحضار المؤلفات الأدبية والعلمية من مختلف أنحاء العالم. ونجح فى أن يحصل على عدد ضخم من الموسوعات. والنسخ النادرة لبعض المؤلفات مثل كتاب حملات الأمير أيوجين دى سافوا الذى ألفه صاحب الجلالة الملك فيكتور عمانويل الثالث إلى جانب مجموعة من الألبومات والخرائط الجغرافية والاستراتيجية..

وتمكن فاجو أيضاً من تزويد المكتبة الوليدة بهدايا نادرة حصل عليها من كل الجهات وأبرزها نسخة مصورة من ديوان السلطان سليم الأول، مطبوعة فى برلين عام ١٩٠٤ على نفقة صاحب الجلالة امبراطور ألمانيا غليوم الثانى. والموسوعات المهمة للكتب التى نشرت فى المغرب مع الحروف الأولى للمطبعة وكانت مهداة من السلطان مولاى عبد الحفيظ..

واستطرد المستعرب الايطالى الشاب موضحاً جوانب الاسهام الايطالى فى

تأسيس الجامعة المصرية، فذكر ان مسيو جان داتارى، أحد المرتبطين بمصر، والذى عاش فيها فترة من عمره، قدم مجموعة نادرة من قطع العُملة للمكتبة، وتبلغ أكثر من ستة آلاف قطعة وتعود إلى العصور الفارسية، واليونانية، والمقدونية، والرومانية والعربية فى مصر.

أما الحكومة الايطالية فقد منحت الجامعة مجموعة أخرى من المعادن الموجودة فى ايطاليا، وأمر الملك فيكتور عمانويل الثالث بتزويد الجامعة ببعض الآلات الكهربائية التى كانت موجودة فى مكتب جاليليو فى فلورنسا، والتى أصبحت نواة معامل الفيزياء بالجامعة بعد ذلك.. كما قدمت ايطاليا بعض المنح الدراسية للشباب المصريين، الذين لمع منهم الكثيرون فى مختلف التخصصات، وأشهرهم ألماس بك الذى تولى منصب مدير الاكاديمية المصرية للفنون الجميلة فى روما.

خطابات ووثائق:

وأطلعنى الباحث الايطالى على خطابين باللغة الفرنسية، أولهما نص خطاب صاحب السمو الأمير أحمد فؤاد الذى ألقاه فى افتتاح الجامعة المصرية فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٠٨، والثانى هو خطاب صاحب السمو الخديو عباس حلمى الثانى الذى استهله بعبارة تقول: «باسم الله، مصدر كل العلوم، أعلن افتتاح الجامعة، مقدماً كل التمنيات فى ان تكون قادرة على افادة كل الطلاب، دون تمييز بينهم بالنسبة لجنسيتهم أو دينهم».

وذكر الباحث ان الأميرة فاطمة هانم ابنة الخديو إسماعيل هى التى ساهمت بالجزء الاكبر من ممتلكاتها لدعم مشروع الجامعة، فتطوعت بمساحة أرض تبلغ ستة فدادين تقع قرب قصرها فى الجيزة لكى تُبنى عليها مُنشآت الجامعة، كما دفعت مبلغ ثمانية عشر آلف جنيه ذهباً لنفس الغرض، وسلمتهم إلى أعضاء مجلس الجامعة وهم: الدكتور محمد علوى باشا، وعبد ا لخالق ثروت باشا، وأحمد عزت باشا، وعلى بهجت بك، وحسن سعيد بك.

كما أوقفت الأميرة فاطمة هانم أملاكاً تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف وثلثمائة فدان لكي يُخصص ايرادها للانفاق على تأسيس الجامعة..

وأسعدني ان الباحث الايطالي في غمرة حماسه لموضوع بحثه، ولأ سهام بلده في تأسيس واحدة من الجامعات العريقة في العالم، لم ينس ان يذكر إلى جانب الاساتذة الايطاليين الذين تولوا مسئولية التعليم فيها في هذه الفترة المبكرة من عمرها، اساتذة مصريين لعبوا دوراً رائداً في نهضة التعليم في مصر، من بينهم حفني ناصف الذي كان قاضياً في المحاكم المصرية، وفقيهاً في النحو وعلوم اللغة، والشيخ محمد الخضري، الاستاذ بمدرسة القضاء الشرعي، والمؤرخ الإسلامي، وسلطان افندي محمد المتخصص في الفلسفة والأخلاق الاسلامية. وإسماعيل رأفت بك، المدرس بدار العلوم، والمتخصص في الجغرافيا وعلم الأجناس..

كما أشار الباحث الايطالي إلى الدور الذي قامت به الطليعة الوطنية المصرية في ذلك الوقت والذي جسده رجال افذاذ من طراز سعد زغلول، وقاسم أمين، وأحمد لطفي السيد..

أن قصة تأسيس الجامعة المصرية هي قصة مُثيرة لأنها تختزل في عمرها نضال شعب. كانت له بالعلوم والمعارف أسباب ووشائج.. فتمرد على سياسة التوظيف العقيمة التي فرضها «دنلوب» ورفض ان تتمحور حياته حول زراعة القطن لتدور مصانع الانجليز. وانطلق يبني جامعته لتصبح منارة تربط اللاحق بالسابق، وتضئ الطريق ..

اليعقوبان: صروف وصنوع (واسماء أخرى)!

فى تاريخ الثقافة العربية المعُاصرة تتشابه مجموعة من اسماء الأعلام حتى يكاد يختلط على البعض ممن يكتفون بالاطلاع السريع التمييز بينها. من هذه الاسماء، اسم اسماعيل مظهر، وإسماعيل أدهم، كلاهما اشتغل بالكتابة، وامتهن الصحافة، أصدر أولهما مجلة شهرية فى مصر تسمى «العصور» أما الثانى فهو باحث مصرى من أب تركى، وقد اهتم كثيرا بالأول أى بإسماعيل مظهر، ووضع حوله مؤلفاً مهماً، وكان يعتبره أحد أبرز أساتذته.

أما الاسماء الأخرى التى تحضُرنى الآن فهى اسم أمين الريحانى ونجيب الريحانى حتى ليحلو للبعض ان يطلق عليهما اسم «الرياحانيان» الأول كاتب فحل، وعروبى حتى النخاع، وكان أول من تحدث فى بداية القرن عن انشاء هيئة عربية موحدة، وأمضى عمره جوالاً، ساعياً لرأب الصدع العربى، وتقريب الأقطار عن بعضها البعض.

والثانى نجيب الريحانى، ممثل ومُخرج، وفنان بارع، كانت حياته «مسرحية» تجمع بين الدراما والتراجيديا.. أضحك الجميع لكن من يتأمل حياته يبكى، إذ كان قلبه حزيناً، وظروفه صعبة، لكنه لم يتردد فى أضحاك الناس ورسم البسمات على الشفاه، فانطبق عليه قول جبران خليل جبران:

ما أنبل القلب الحزين الذى لا يمنعه حزنه عن ان يعزف أغنية مع القلوب المرحة.

الاسماء الأخرى التى تحضرنى هى اسم يعقوب صروف، ويعقوب صنوع أو اليعقوبان.

الأول فيلسوف أو بالأحرى هو أول عربى يحمل درجة الدكتوراه فى الفلسفة كما يقول عباس العقاد، وكان بكل أعماله العلمية فاتحاً لفجر جديد فى حياة الشعوب العربية.. أما الثانى فهو صحفى حتى النخاع، عاش حياته مُغترباً فى باريس، وكان

يصدر كل شهر، بل كل أسبوع جريدة، وكان أول من استخدم فن الكاريكاتور كمادة صحفية، لها رسالة محددة.

الأول تزامل مع كاتب آخر هو فارس نمر، وكانا من الرواد اللبنانيين الذين حملوا مشعل النهضة في بيروت ثم القاهرة، وأصدار معاً مجلة أطلقا عليها اسم «المقتطف» تهتم بالقضايا العلمية والمعرفية.. بل كانت أول مجلة تصدر باللغة العربية في هذا الخصوص.

أما الثاني يعقوب صنوع، فكان عصامياً، يؤسس المجلة ثم يقوم بكتابتها بمفرده، واختار لمجلاته اسماء ضاحكة أو على الأقل اسماء غريبة، فأطلق على أولى مجلاته اسم «أبو نظارة زرقا» وتعتبر شكلاً من أشكال الكتابة الصحفية الجديدة التي تأسست في تاريخ الصحافة العربية ثم أصدر بعدها جريدة باسم «النظارات المصرية» ثم جريدة ثالثة باسم «أبو صفارة».. وفي نفس العام أصدر جريدة رابعة باسم «أبو زمارة» ثم جريدة «الحاوي» التي كان يدعو فيها للتقارب بين فرنسا والدول العربية.

الدكتور يعقوب

أما يعقوب صروف أو الدكتور يعقوب صروف بالأحرى، فكان من المنتسبين إلى المدرسة الكلية السورية أو الجامعة الأمريكية حالياً، ودرس على أيدي الشيخ ناصف اليازجي والشيخ يوسف الأسير، وكان أول من درس علم السموم باللغة العربية في العصر الحديث. وبعد ان عقد العزم على اصدار جريدة «المقتطف» مع زميله فارس نمر، كتب في افتتاحية العدد الأول يقول:

«.. لا يخفى ان الجرائد العلمية والصناعية من افضل الوسائل لنشر العلم والصناعة وتسهيل منافعهما للخاصة والعامة، ولما كانت خدمة الوطن فرضاً واجباً.. وبناء على طلب الكثيرين ممن يعرفون وسائطنا ويهمهم تقدم الوطن عزمنا بعد الأتكال عليه تعالى وبهمة أولياء الأمور العظام على نشر جريدة علمية وصناعية

سميناها «المقتطف»، صفحاتها أربع وعشرون، تصدر مرة فى الشهر، وهى لا تتعرض لشئ من المسائل الدينية والسياسية على الاطلاق، بل تقتصر على المباحث العلمية كالطبيعيات والعقليات وما أشبه..»

وقد دخلت المجلة بعد ان قوى عودها فى المعركة التى أُثيرت حول نظرية داروين عندما نشرت آراء تسعة من العلماء الذين ناصروا النظرية ضد وزير خارجية أمريكا فى عهد الرئيس ويلسون، والذى كان ضد النظرية.. وقد حدث فى ذلك الوقت ان المحاكم الامريكية قد انتصرت لوزير الخارجية وحكمت على أحد أنصار نظرية داروين وكان مُدرِّساً بالفصل والطرد من مهنة التدريس!

أما صاحب الأسم الآخر، أعنى يعقوب صنوع، فقد واصل اصدر جرائده فى باريس، فأصدر جريدة باسم «الوطن المصرى»، ثم جريدة باسم «الثرثارة المصرية»، والغريب ان هذه الجريدة الأخيرة قد طُبعت بثمانى لغات شرقية وغربية.. ثم اصدار بعد فترة قصيرة مجلة باسم «مجلة المنصف». أما آخر مجلة أصدرها فكانت قبيل وفاته بقليل وكانت باسم «العالم الإسلامى».

الفلاح المصرى والخديوى

وكان يعقوب صنوع أول من استخدم الكاريكاتور فى الصحافة فوضع رسماً طريفاً فى جريدة «النظارات المصرية» للخديوى وهو يحتضن فلاحاً مصرياً وكتب تحته تعليقاً يقول:

* الخديوى يحتضن الفلاح، ليس حُباً، ولكن لكى يسمح للوزراء ان يسرقوه!

ويُلام يعقوب صنوع كثيرا فى الأوساط العربية باعتباره أول من روّج لاستخدام اللغة العامية المصرية فى الصحافة، واتهمه الآخرون بالأقليمية ومُعاداة الصف العربى، ولغة الضاد..

كما كان معروفاً بكراهيته الشديدة للخديوى إسماعيل لأن فرنسا نفسها كانت

تكرهه، ولذلك شن عليه حملات عنيفة.. ويروى ان فرنسا، لكى لا تحرج نفسها ازاء الخديوى، كانت تأمر بأيقاف الجريدة التى تنتقد الخديوى حتى تسترضيه، ولكنها فى ذات الوقت كانت تسمح ليعقوب صنوع بأصدار جريدة أخرى تسير على نفس الخط والإتجاه.

وهكذا كان يصدر يعقوب صنوع الجرائد التى يريد بمنتهى السهولة واليُسر وكأنه يأخذ شهيقاً، ويطرد زفيراً!.

وأشار الأمام محمد عبده فى مذكراته إلى انه قد استعان هو وجمال الدين الافغانى بخبرة يعقوب صنوع فى الصحافة عندما قاما باصدار مجلتهما الرائدة: «العروة الوثقى».

أما يعقوب صروف فكان مُفكراً من طراز رفيع، وأصدر روايتين تاريخيتين، الأولى بعنوان «أمير لبنان» يصف فيها لبنان فى العقد السادس من القرن الماضى، والثانية بعنوان «فتاة مصر» يصف فيها المجتمع المصرى فى مطلع القرن العشرين. وكان دقيقاً فى كل كلمة يقولها فى مقالاته التى ينشرها فى «المقتطف»، فيذكر عباس العقاد أنه ذهب ذات يوم ليلقاه بمقر الجريدة، ففوجئ به «مُتشعلقاً» على أحد الجدران، ومشغولا فى البحث عن أحد القواميس، فانتظره فترة طويلة ريثما عاد إلى مقعده وراء المكتب، وعندما سأله عما كان يبحث، آجابه بأنه يبحث فى آصل كلمة لأنه يشك فى معناها، فاضطر ان يرجع إلى المعجم الكبير..

ويقول عباس العقاد: لقد علمنى الدكتور يعقوب صروف درساً دون ان يدرى، وهو الدقة، وتكبد المشاق من أجل التحقق من كلمة أو معنى.

وهكذا، كان اليعقوبان..

الأول فيلسوف دقيق، والثانى صحفى مغرم بالأثارة. الأول عاش فى بيروت والقاهرة، ولعب دوراً مُهماً وأساسياً فى دفع عملية النهضة العلمية إلى الامام.

والثانى عـاش مُغـترباً فى باريس، وكـان من أوائل من أسـسـوا صـحـفـاً عربيـة مُهاجرة فى الخارج، وحتى اليوم ما يزال يذكره القليلون حتى ان هناك باباً ثابتاً فى احدى الصحف المصرية يحمل عنوان «أبو نظارة»، ربما تيمُناً بيـعقوب صنوع أبو نظارة زرقا.

العقاديون والطحاسنة (وخفافيش الظلام)!

يشعر معي كثيرون أن حياتنا الثقافية في مصر تُفسح مجالاً رحباً لطه حسين وتضعه في مكان السنام منها، وتقر له في إطمئنان شديد بالعمادة في الأدب، والريادة في الفكر، بينما تعطى مكاناً متواضعاً لعملاق الأدب عباس محمود العقاد.

ففي كل عام وبمناسبة رحيل الرجلين (الأول في أكتوبر عام ١٩٧٣، والثاني في مارس عام ١٩٦٤) تنساب الاقلام في تقريظ «طه» بينما تشح في ذكر «عباس».

ولست أدرى سبباً لذلك سوى روح الشللية التي عانت منها الثقافة في مصر ردحاً طويلاً من الزمن. فأنقسم المثقفون إلى عقاديين، وطحاسنة، وكأن الجمع بين الرجلين، والإعجاب بالعقلين هو مما تأباه الطبيعة، ويمجّه الذوق السليم!. وهذه لعمري خلة، حرى بنا ان نتخلص منها ليس فقط لأن ضررها أكثر من نفعها، ولكن أيضاً لأن «حظ» الخصومة بين الرجلين، من الافتعال، هو حظ وافر.. فها هو طه حسين يذكر - حسبما يروى زوج كريمته محمد حسن الزيات في كتابه «ما بعد الأيام» - أن عباس العقاد هو زميل قديم، وكاتب كبير، ورجل بمعنى الكلمة، ثم يستطرد فيقول:

إن بعض الشباب يتعمدون الدسّ بيننا، ويوجهون إلى العقاد من الانتقاد ما كانوا يعتقدون بغير شك أنه سيرضيني، فقلت لهم أن هناك في أغلب الظن في نفس الوقت، شباباً مثلهم في مجلس العقاد يحاولون أن ينالونى بمثل ما تحاولون أنتم أن تنالوه به، وما أظن العقاد سيسر بذلك أو سيعجب به.

وعلى الرغم من ذلك تعمّقت الشلليّة، وأصبح من يقبل على الأول، لابد أن ينفر من الثاني بدون أسباب واضحة. لكن غاب عن بال هؤلاء وهؤلاء أن الرجلين كانا لا يحمل أحدهما للآخر سوى الاعجاب والتقدير، وكانت خصوماتهما في الأدب خالية من أى لفظ ينبو عنه الذوق السليم، كما كانت - باعتراف جميع

النقاد ـ سبباً ووسيلة لتنشيط الحياة الأدبية فى ذلك الوقت..

فيذكر عميد الأدب أنه كان يُتابع بشغف كل ما يكتبه العقاد ويضيف: «عندما كان يهدى إلىّ كتاباً من كتبه، يقول أنه ليس هدية، ولكنه قرض ينتظر منى أن أؤديه بتأليف كتاب جديد، وإهدائه نسخة منه».

وهذا صحيح، فقد قدم طه حسين كتاب «دعاء الكروان» إلى عباس العقاد رداً على ديوانه «ديوان الكروان» الذى كان أصدره قبل فترة، وكتب للعقاد إهداءاً يقول:

«أنت أقمت للكروان ديواناً فخماً فى ا لشعر العربى الحديث، فهل تأذن فى أن اتخذ له عُشاً مُتواضعاً فى ا لنثر العربى الحديث، وأن أهدى اليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص».

النبى قَبِل الهدية!

وفى مقالة طويلة بمجلة «الرسالة» يُعلّق العقاد على الأهداء فيقول: «إنى لا أحب وأنا اتقبل الهدية شاعرا أن الكروان سيأوى إلى العش الذى سماه صديقنا مُتواضعاً لأنه يرتضى العش وإن اغريناه بالدواوين وحسبُنا منه أنه يدعونا وندعوه، وإننا وإياه نلبى الدعاء».

ويُخطئ من يعتقد أن أحدهما كان لا يطيق الآخر أو يُغمطه حقه، فها هو عباس العقاد يرفض أى محاولة لاقصاء طه حسين عن الجامعة، ويقف فى مجلس النواب مُحذراً ويقول لخصوم طه حسين: تمهلوا، فأنتم إذا أخرجتموه من الجامعة فلن تجدوا من يستحق أن يجلس مكانه.

كما لم يتردد عباس العقاد فى الدفاع مرة أخرى عن زميله طه حسين فى أزمته التى سببها كتابه الشهير «فى الشعر الجاهلى» رغم انه اغضب بموقفه هذا، الوفديين وعلى رأسهم زعيم الوفد سعد زغلول..

وقد حفظ طه حسين هذا «الجميل» لعباس العقاد، وكان يذكره بامتنان لأصدقائه والمقَربين منه.

ويروى عامر العقاد أن عمه من فرط حبه واحترامه لطه حسين، كان يتمنى ألا يُطيل الله حياته بعده، لأن فى ذلك مشقة وتعباً لا يقوى عليهما، حدث ذلك عندما وقع طه حسين مغشياً عليه فى إحدى جلسات المجمع اللغوى وأشيع وقتها أنه قد مات!

ويبدو أن الله سبحانه قد استجاب للعقاد، فغادر هو دنيانا قبل رحيل صديقه طه حسين بأكثر فى تسع سنوات، فوقع الخبر كالصاعقة على العميد الذى طلب ألا يدخل عليه أحد فى غرفته، ثم استجمع قواه وأملى على سكرتيره مقالة باح فيها بمكنون صدره وما يحمله من حبٍ لعباس العقاد، قال فيها: ايه أيها الأخ الكريم، إن موتك لم يفجع أسرتك وحدها، ولا وطنك وحده، وانما يفجع العالم العربى كله، فقد كنت علماً من أعلام العُروبة الشاهقة، ونجماً من نجومها المشُرقة، ملأت الدنيا أدباً، وحكمة، وفلسفة وعلماً. تألق نورك بين مُواطنيك منذ شبابك الأول، وما لبث أن تجاوز وطنك وأشرق على العالم العربى فى جميع أقطار الأرض.. ثم عدّد طه حسين مناقب عباس العقاد وحدد، فى عبارات بليغة، ملامح الدور الذى قام به من وجهة نظره، فى دنيا الفكر، والأدب فقال:

وما أدرى عن أى جانب منْ جوانبك يمكن ان يتحدث عنك الذين يأخذون رثائك أو فى الترجمة لك. أعن نضالك السياسى الذى لم يعرف هوادة ولا ليناً، ولم تصرفك عنه الأحداث ولا الخطوب، ولم يثْنك عن المضى فيه رغب ولا رهب.

أم عن تجديدك فى ا لأدب شعراً ونثراً ونقداً، أم عن تعمقك للتاريخ الإسلامى وإتقانك تصوير أعلام الإسلام أم عن إقتحامك لمشكلات الفلسفة ونفوذك إلى لبها، أم عن تزودك من العلم على إختلاف ألوانه حتى ناظرت العلماء المتُخصصين والمتفوقين، أم عن نفسك السمحة وروحك العذب، وذوقك الصفو، أم عن خلقك الكريم وسيرتك النقيَة، أم عن وفائك للصديق وإنصافك للخصوم، أم عن إيثارك للكرامة وحرصك عليها، ومبالغتك فى هذا الحرص؟

وما أعرف جملة تختصر جوانبك هذه كلها فى إيجاز ودقة وصدق إلا هذه

الجملة التى أُرسلت فى المتنبى فقيل عنه: إنه ملأ الدنيا وشغل الناس!

. أنت أيها الأخ الكريم، والصديق الحميم، والزميل العزيز، ملأت الدنيا وشغلت الناس حقاً، وستشغلهم بعد وفاتك أكثر مما شغلتهم فى حياتك».

العقادأميرا للشعراء:

هذا ما قاله طه حسين عندما سمع بنبأ وفاة العقاد لكنه قال له ما هو أكثر من ذلك فى «حياته» فأشاد بملكته الشعرية، وأعلن فى الحفل الذى أقيم بمسرح حديقة الأزبكية فى ابريل عام ١٩٣٤ بمناسبة تكريم العقاد لنظمه «النشيد القومى» أنه عندما يخلو إلى شعر العقاد يستمع إلى نفسه ويرى صورة قلبه وقلب الجيل الذى يعيش فيه، وقال إن العقاد يصور له المثل الأعلى فى الشعر الذى يحبه، وتمنى وجاهد فى أن يحبه الشباب. هذا المثل الأعلى الذى يجمع بين «جمال» العربى القديم، وبين «أمل» المصرى الحديث.

ثم يبايع طه حسين العقاد أميراً للشعراء بعد شوقى فقال: ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد، وقولوا للأدباء والشعراء أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء، فقد رفعه لكم صاحبه.

.. هذه لمحات سريعة من علاقة «عميد الأدب» بـ «عملاق الأدب» وهى علاقة لا تشوبها شائبة على صعيد المشاعر الانسانية الخالصة والأعجاب المتبادل. ويقينى أنه إذا كان ثمة شئ فاسد بينهما، فمرجعه إلى التلاميذ وليس إلى الرجلين، لأن هؤلاء التلاميذ - سامحهم الله - هم الذين يذكرون أحدهما اليوم ويتناسون الآخر، وهم الذين يحتفون فى «أكتوبر» من كل عام بذكرى رحيل العميد، ويهملون فى «مارس» من كل عام ذكرى رحيل العملاق، وهم أيضاً الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها الآن مطالبين بأطلاق اسم العميد على احدى جامعات مصر، ويتناسون العملاق الذى كان جامعة بحد ذاته.

◆ ملاحق الكتاب ◆

ملحق رقم (١)

خطاب المسيو "إدوارد لامبير" عن « نجلزة » التعليم فى مصر..

«لقد تحاشيت حتى الآن إعطاء أى تبرير للمناقشات التى أثارها أمر استقالتى، إذ إننى لم أكن قد تحررت بعد بالكامل من ارتباطات الموظف المصرى. ولقد حصلت على حريتى فى الحديث، وأنا سعيد لكى أفيد من ذلك حتى أتمكن من أن أشرح الأسباب التى اضطرتنى إلى ترك إدارة مدرسة الحقوق الخديوية.

وتركت هذه الوظيفة والأسف يكاد يمزق فؤادى، لأن البقاء فيها لم يعد فى وسع رجل مثلى، جعل حياته وقفاً على العلم، ولأنى لم أكن بقادر على حفظ هذا المنصب ذى الراتب الضخم ما لم أرض بأن أكون آلة صماء لسياسة غير قويمة، ومكدرة لصفاء العلاقات بين المصريين والأوربيين.

إن الموظف الإنجليزى القابض فعلاً على الإدارة لنظارة المعارف هو المستر دوجلاس دنلوب، الذى كان قبل قدومى إلى مصر بعام قد حارب ناظر مدرسة الحقوق السابق (المسيو جرانمولان) بثبات نادر، فغلبه على أمره، وسلب منه سلطته، ثم اغتنم تلك الفرصة التى آلت فيها هذه السلطة إلى العدم، فأخذ يثير مشاعر الطلبة بإصداره لهم أوامر متناهية فى القسوة والغلظة، ولا مسوغ لها، حتى جرهم إلى الإضراب، ثم اتخذ إضرابهم ذريعة للتشفى من سلفى الذى كان حاقداً عليه. ولم يكن حظى من المعاملة بأسعد من حظ هذا السلف، إذ كثيراً ما وضعنى

المستشار الإنجليزى، بسوء تصرفاته، ولا أدرى إن كانت مقصودة منه، أو غير مقصودة، فى مواقف حرجة عجزت عن الخروج منها، وعن توقى نتائجها، إذ كنت مقيداً كل التقييد بلوائح تنزع من يدى كل سلطان، حتى فى المسائل الفنية الصرفة، والتى أدخلت أيضاً فى اختصاص أقلام الوزارة.

حارب المستر دنلوب تقدم التعليم الفرنسى فى مدرسة الحقوق بلا تبصر، على حين أن تعليم الحقوق فى هذه المدرسة لا يزال ويجب أن يبقى تعليماً فرنسيا، ما دامت قوانين البلاد لم تغير تغييراً كلياً، لأنها عبارة عن ملخص لقوانيننا، ولأنه لا توجد لها شروح ومؤلفات بالعربية إلا فى النادر. وقد مثل المستر دنلوب رواية مضحكة للتعليم العالى فى مدرسة الحقوق، فوقف تعيين ما يحتاج إليه القسم الفرنسى من الموظفين تتميماً لما ينقص من عددهم المحدد قانوناً، وحجته فى ذلك أن مصير هذا القسم إلى الزوال فى القريب العاجل، واكتسح من القسم الأكبر، وهو الذى تدرس فيه الحقوق الفرنسية باللغة الإنجليزية، الأساتذة الأكفاء الذين قاموا بأمره فى بداية تأسيسه، وهم من القضاة الذين أفادتهم إقامتهم الطويلة فى الديار المصرية خبرة بأسرار قوانيننا، واستبدل بهم شبانا من الإنجليز يعيَّنون بمجرد تخرجهم من الكلية الإنجليزية فيقدمون إلى مصر، وهم يجهلون القوانين المصرية، بل إن فريقاً من هؤلاء المعلمين لم يبلغ إلى الآن فى معرفته لغتنا حداً يستطيع معه ترجمة المؤلفات الفرنسية التى يستعان بها على التدريس ترجمة سليمة ولقد رأيت تحطم الواحد بعد الآخر من مجهوداتى من أجل تحسين الثقافة المهنية لهؤلاء الناس، سواء بتخصصهم لتدريس فرع واحد، أو تقليل عدد الدروس التى يقومون بتدريسها، ويكفلون بها، حتى لا يصعب عليهم تحضيرها، أو توسيع مجال المنافسة بينهم بترقية النابهين منهم، أو بمنع الأسباب التى تدفع المعلمين الإنجليز إلى ترك المدرسة بمجرد استفادتهم شيئاً من المبادئ القانونية يتمكنون بها من الدخول قسراً فى المحاكم الأهلية، بذلت كل سعى فى هذا السبيل، وذهبت كل مساعىَّ بلا جدوى

بسبب عناد مستر دنلوب وتعنته.

كان تدهور التعليم يتطلب الكثير من التبصر والحكمة ومعاملة الطلبة بالحسنى، خشية أن تؤدى حالتهم السيئة وانحطاط التعليم إلى هياج الطلاب، خصوصاً وأن فى مصر الآن حركة فكرية ترمى إلى طلب العلوم والمعرفة. ولكن مستر دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة، الذين بلغوا سن الرجال، نظماً لا تليق إلا بصغار تلاميذ المدارس الابتدائية، وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية، ويستعمل معهم سياسة وخز الإبر، سياسة اضطهاد دنىء، فكانت نتيجة ذلك أن انضمت فئة متعلمة راقية إلى الحزب المعارض للإنجليز، وأن يسود على أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للإدارة الإنجليزية، وأن تتحول مدرسة الحقوق إلى معقل للوطنية المصرية، بحيث لا تكاد ترى بين الأربعمائة طالب الموجودين فيها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمبادئ مصطفى كامل باشا.

حاولت مراراً أن ألفت نظر المستشار الإنجليزى إلى الأخطار التى تنشأ عن اتباع خطته فى نظام التعليم، فلم أنل منه شيئاً سوى بعض تجاوز وقتى عن بعض مسائل، ولكنه لم يخلص مطلقاً فى التنازل نهائيا عن خطة كلها إيلام وإرغام، ولذلك فقد كنت أتوقع دائماً من وراء عمل مستر دنلوب واستفزازه للخواطر من هذا النوع أن تعصف فى مدرستى عواصف جديدة أشد خطراً من العاصفة التى عصفت بها فى عام ١٩٠٦، وكانت تلقى عليّ مسئولية ذلك، أمام الرأى العام المصرى.

وانتهى مستر دنلوب أخيراً بالتعرض لكرامتى تعرضاً مؤلماً، وذلك أنه أراد أن يجعلنى، رغما عنى، شريكاً له فى الدسائس التى يدبرها ضد وزير وطنى هو سعد زغلول باشا، ذلك الذى اختارته الوكالة الإنجليزية، بفعل تأثير الرأى العام عليها، والذى لم يشأ أن يكون آلة لا إرادة لها. ولكى ينزع من هذا الوزير كل سلطة ويغلبه على كل أمر، أكره رؤساء الموظفين فى الوزارة على أن يتألبوا حزباً لعرقلة كل عمل لرئيسهم الرسمى، ولم يكن حظى من هذا الإكراه أقل من حظ زملائى، فكنت أتلقى

أوامره قبل تحرير تقاريرى الرسمية، ثم كان يجبرنى على تقديمها له، قبل إرسالها للوزير، ليفتح فيها ما يشاء. بل لقد حدث لى أحيانا أنى، بعد أن حررت أوراقى، وبعد أن خرجت من مكتبى وسجلت فى الوزارة، عدت فغيرت ونقحت منها ما شاء المستشار، كل ذلك مما لا طاقة لى على احتماله. ولم يكتف المستر دنلوب بذلك، بل كان يريد منى أنى ما دمت راغباً فى البقاء طويلاً بجانبه، فيجب أن أتدنى إلى حد التضحية بضميرى وتعريض نفسى فى كل حين للظهور بمظهر الخائن الأثيم أمام الوزير سعد زغلول باشا، وفى حقه.

ونتج عن كل هذه الأسباب التى شرحتها أن علاقاتى مع المستر دنلوب كانت دائماً ينقصها الود. ثم إنها توترت فجأة على أثر خلاف حدث بسبب تعيين بعض المدرسين. فقد ترك ثلاثة من المدرسين وظائفهم، ووضعت لائحة جديدة للتدريس يزيد بها عدد الحصص ، فاضطررت أمام هذه الحالة إلى أن أطلب للسنة الدراسية ١٩٠٧ _ ١٩٠٨، تعيين مدرسين اثنين على الأقل. وبعد أن وعدنى مستر دنلوب وعداً صريحاً بإجابة طلبى، عاد فنكث بوعده، قائلاً: إن الظروف السياسية لا تسمح باستخدام مدرسين أوربيين زيادة على الموجودين، ثم هو لا يقبل بحال من الأحوال استخدام الوطنيين للتدريس فى مدرسة الحقوق. ولكنى لم أذعن لهذه النتيجة، وتمكنت بفضل مساعدة أحد كبار الموظفين الإنجليز من حمل مستر دنلوب على تعيين مدرسين من أصل مصرى فى مدرسة الحقوق، ولكن بعد أن اضطررت إلى أن أتساهل معه فى مسائل كثيرة، أخصها تعهدى له بإساءة الشهادة فى كل مصرى ينتظر أن يتقدم للتدريس بمدرسة الحقوق، إجابة للدعوة التى أعلنها وزير المعارف فى الجريدة الرسمية. وشدد مستر دنلوب حملته علىّ كما شددها على سلفى، وبعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع وأيقنت أنى قد أصبحت عاجزاً عن حماية موظفى مدرسة الحقوق وتلاميذها من مظالم مستر دنلوب، اضطررت إلى السفر إلى بلادى. ثم حدثت بعد ذلك حادثة يستنكرها الذوق السليم، وقد أبلغها إلى

الجرائد بصورة لو احتملتها لضعيت كل كرامة لى عند زملائى وتلاميذى، ولذلك فإنى قد أصررت على تنفيذ رغبتى فى الاستقالة، وقدمتها فعلاً، فقبلت بمنتهى الارتياح. وفى اليوم التالى عين بدلاً منى مدرساً إنجليزياً، لا أجد جملة تصدق عليه خيراً من هذه الجملة التى نسبت بحق، أو بدون حق، إلى السير إلدون جورست، وهى: «إن مستر هل Hill جاهل، وإنه خير لنا أن يكون كذلك: ليكون أسهل قياداً».

وعتب على نفر من أبناء وطنى فى القاهرة، وأخذوا على تضحية مصالح فرنسا المهمة فى سبيل عواطفى الذاتية، وقالوا: إنى قد تركت وظيفة من أسمى وظائف التعليم فى مصر كانت للآن محفوظة للفرنسيين رغبة فى الخلاص من مهمة لم ترق لى. ولست أرى رأيهم هذا فى تقدير المصالح الفرنسية. فإنه كما كان من اللازم لنشر نفوذ أمتنا فى الشرق أن يتولى مدرسة الحقوق الخديوية رجال أمثال فيدال vidal باشا، وتستو Testoud، فى وقت كانت أيديهم فيه مطلقة حرة، يعملون ما يشاءون لنشر علومنا القضائية، كذلك لا يليق بشرف فرنسا، ولا يوافق تأييد نفوذها فى مصر أن يرضى علماؤها بأن يقتل المستر دنلوب روح الأخلاق، ويهدم صروح العلم تحت ظلالهم.

ومن جانب آخر علينا ألاً نخفى أنه ليست لدينا أية فرصة للاحتفاظ بتمثيل، حتى جزئى، فى إطار التعليم المصرى الرسمى. فمنذ بضع سنوات، كان فى وسعنا أن ندافع عن أنفسنا بطريقة نافعة. أما اليوم، فإن الوقت قد فات. لقد ثبتت هزيمتنا، وآخر تتويج لذلك قد أعطاه المستر دنلوب بذلك العمل المعادى لفرنسا، وذلك بواسطة القرار الخديوى الأخير والخاص بالإلغاء النهائى للسنة الأولى من التعليم الرئيسى للفرنسية فى آخر مدرسة ثانوية فى القاهرة، وحيث كان لا يزال موجوداً فيها، وهى مدرسة التوفيقية. وبالتالى، فإنه سوف يتم، فى خلال أربع سنوات، اختفاء الفرنسية، كلغة للتعليم من مدارس الحكومة، وتصفية القسم الفرنسى من مدرسة الحقوق الخديوية، والتى سوف تبدأ بعد ذلك. وبعد هذا، لا يمكننا أن نحافظ على نفوذنا

الثقافى إلا باستغلال اخطاء السياسة المدرسية الإنجليزية، من أجل تنمية مؤسساتنا التعليمية الحرة. ونحن نمتلك فى القاهرة مدرسة فرنسية للحقوق، ولكى نحول إليها الغالبية العظمى من الدارسين الحاليين للمدرسة الخديوية، يكفى أن نوفق برامجنا مع البرامج والاحتياجات الخاصة للبلاد، وأن نستخدم كفاءات الوطنيين، وخاصة كفاءات العلماء المتخصصين فى الشريعة الإسلامية، وأن نرسل إليها لجان امتحان تشبه تلك التى تعمل قرب مدرسة الطب التابعة لنا فى بيروت، وأن ننظم فيها مقررات تمهيدية فى اللغة الفرنسية، وإنه لمن غير المتوقع أن نتمكن من أن نجد فرصة مواتية لإعادة بناء فعلى، لاحتكار تعليم الحقوق، والذى انتزع منا فى عام ١٨٩٩.

إدوارد لامبير

الأستاذ بكلية حقوق ـ جامعة ليون

والمدير السابق لمدرسة الحقوق الخديوية بالقاهرة.

◆ ملحق رقم (٢) ◆

صورة رسالة د. زكى نجيب محمود

٦/ شارع ابن مالك
الجيزة - مصر
١٩٨٢/٤/١٨

الباحثة الفاضلة كوكب عماره
تحية مباركة طيبة، وبعد

سعدت بخطابك، ولو كنت ذا بصر لأفضت لك القول فيما طلبت الإجابة عنه، فلعلك تعلمين ما قد أصاب بصري منذ حين، مما كادت تستحيل معه الكتابة، واستحالت معه القراءة استحالة تامة.

لكن دار الشروق في بيروت - وهي الدار التي تنشر لي كتبي منذ ١٩٧٠ يمكن أن تمدك بمعظم ما تطلبين، ومن أهم ما يعينك كتاب (هو آخر صدر لي هذا العام) عنوانه "قصة عقل"، ففيه تجدين خلاصة وافية بحياتي العقلية كلها، وقد أطلقت عليه هذا الاسم ليجيء مكملا لتوأم له سبقه الى الظهور بعنوان "قصة نفس" أحكي فيه عن حياتي من الداخل لا من الخارج، فارجو أن ترجعي اليهما - والى قصة عقل بصفة خاصة،

ومن هذا الكتاب ستعرفين في سياق الحديث شيئا عن جميع ما أصدرته من كتب، كل في وقته وظروفه، فضلا عن أن الكتاب سيقدم لك تقسيما لحياتي العقلية واتجاهاتها الرئيسية (من وجهة نظري على الأقل)

وستجدين مع هذا كلمة مختصرة عن أطوار حياتي، ربما أعطتك فكرة عامة، وذلك لأن حياتي كما صورتها في "قصة نفس" قد عرضت في صورة أدبية أكثر منها صورة تاريخية، مع أنه بغير شك ستجدين فيها بعض النفع

أكون سعيدا لو سمعت منك تطورات عملك، لكنني تعلمين أنني أكثر عجزا من أن أتابع مبادلة الكتابة، ولو استطعت لكانت سعادتي غامرة

ولك مني أطيب الأمنيات بالتوفيق   زكي نجيب محمود

◆ ملحق رقم (٣) ◆

المؤلف في سطور



صورة للمؤلف
بريشة الفنان الكبير/ **جورج البهجوري**

* د. "**سعيد اللاوندى**" ولد بمحافظة الدقهلية فى مصر عام ١٩٥٥. تخرج فى كلية "الاقتصاد والعلوم السياسية" بجامعة القاهرة عام ١٩٧٧. وحصل على دبلوم فى "اللغة والحضارة الفرنسية" عام ١٩٨١، ودبلوم الدراسات العليا فى "العلوم السياسية" عام ١٩٨٢، ودبلوم الدراسات العليا فى "تاريخ الفلسفة" عام ١٩٨٣، ودكتوراه الدولة فى الفلسفة السياسية من جامعة باريس (السوربون) عام ١٩٨٧.

الخبرات:

- رأس لعدة سنوات أول اتحاد مُنتخب للجالية المصرية فى فرنسا - أصدر صحيفة "صوت مصر" عام ١٩٨٣ - ورأس تحرير صحيفة "أخبار الجالية المصرية" عام ١٩٨٧ - أسس المركز المصرى لحوار الثقافات فى باريس عام ١٩٩٢ - شارك فى تقديم النشرة الإخبارية السياسية فى قناة "إيرونيوز" عام ١٩٩٦ - قام بإعداد وتقديم برامج سياسية وثقافية فى إذاعتى "مونت كارلو" و"الشرق" - كتب لعدد من الصحف العربية، ونشر مجموعة من الدراسات فى الملف العربى - الأوروبى، ألقى محاضرات وشارك فى ندوات دولية بمنظمة "اليونسكو"، وجامعة "السوربون" وجامعة "مونبلييه"، والمركز الثقافى المصرى، والمركز الثقافى الجزائرى - عمل مراسلاً لمجلة "أكتوبر" فى

باريس (١٩٨٢) ثم مراسلاً "للأهرام" منذ عام ١٩٨٧ وحتى عام ١٩٩٧، باحث مختص بالشئون الأوروبية والمتوسطية.

كُتب المؤلف:

١ـ **الفكر السياسي المصرى المعاصر** (عباس العقاد نموذجاً) رسالة دكتوراه بالفرنسية.

٢ـ **عمائم وطرابيش**(مصريون عاشوا فى باريس):(جزءان) ـ الناشر «دار إيجى مصر" ط١٩٩٩ (الجزء الأول)

٣ـ **مثقفون فى مهمة رسمية** ـ جدل الذات ـ الآخر فى الفكر العربى المعاصر

كتب قيد الطبع:

١ـ **فى السياسة**.. القرن الـ ٢١ هل يكون أمريكياً.. بحث فى استراتيجيا الصراع من أجل الهيمنة على العالم.

٢ـ **فى الفكر الدينى**.. إشكالية ترجمة معانى القرآن: محاكمة جاك بيرك.

٣ـ **فى تاريخ الأفكار**..

أـ الغزو الثقافى المصرى للعالم العربى: حقائق وأوهام.

ب ـ ثلاث محطات فى حياة هؤلاء

٤ـ **كتابات اغترابية:**

أـ كنت رئيساً للجالية المصرية فى باريس.

ب ـ عمدة باريس..الفيلسوف (عبد الرحمن بدوى).

ج ـ إلى مصر العزيزة.. مع خالص تحياتى!

المحتويات

رقـم الايـداع: ٩٩/١١٨٥١

الكتاب والكاتب

الكتاب

أشهد أنني منذ زمن كنت قدرت لنفسى ألا تعرف كلمة IMPENSABLE (أى اللامفكر فيه) ، فربحت كثيرا، ولم أخسر شيئا، فكل أمورى «الخاصة والعامة» تمر بالضرورة بعقلى الذى يزنها ويمحصها ويقلبها على كل وجه. هكذا .. يعلم الله، كان ديدنى فى هذا الكتاب الذى شغلتنى أفكاره ردحاً طويلاً من الزمن ..توافدت إلى رأسى فرادى مثلما يخرج الناس إلى الدنيا فرادى..

وفى هذا الفضاء الفكرى الحر التقيت بأفكار كتيبة من المثقفين الكبار، أمثال: منصور فهمى، وعزيز الحبابى ورجاء جارودى، ومالك بن نبى، وطه حسين. ولويس عوض، ومحمد عبده، وزكى نجيب محمود، وسمير أمين، ولطفى الخولى، وعبد الرحمن بدوى، وأنور عبد الملك، والطاهر بن جلون ، والبير قصيرى ، وفرح انطون ، وأمين الخولى، ورشيد رضا، وسلامه موسى، وصلاح عبد الصبور، وزكى مبارك، ومحمد حسين هيكل، وجاك بيرك ..

فأتفقت واختلفت كثيراً أو قليلاً معهم .. التفاصيل داخل الكتاب

الكاتب :

د. سعيد اللاوندى تخر[ج فى كلية الا]قتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة (١٩٧٧) وحد[...] للغة والحضارة الفرنسية (١٩٨١). ودبلوم الدراسات العل[يا فى العلوم الس]ياسية (١٩٨٢). ودبلوم الدراسا[ت] فى تاريخ الفلسفة (١٩٨[...] [دكت]وراه الدولة فى الفلسفة الس[...] من جامعة باريس (السوربون - ١٩٨٧).

كاتب صحفى بالأهرام مختص بالشئون الأوربية والمتو[...]

من مؤلفاته: عمائم وطرابيش (مصريون عاشوا فى باريس)

- مثقفون فى مهمة رسمية (جدل الذات والآخر فى الفكر العربى ال[...]

القرن الـ ٢١ هل سيكون أمريكيا .. بحث فى استراتيجيا الصراع [...] الهيمنة على العالم.

